نسمات
nesemat.com
للدراسات الاجتماعية والحضارية

التعليم المعاصر

بين سوق العمل وبناء الشخصية

إعداد وتحرير
صابر المشرفي

دار الانبعاث للنشر والتوزيع

محتويات

١- مفهوم التعليم في فكر الأستاذ فتح الله كولن ٣
يوكسل تشاير أوغلو

٢- التعليم المعاصر بين سوق العمل وبناء الشخصية ١٠
تشارلز نيلسون

٣- التقوى طريق التقدم، مجالس دروس النساء في حركة الخدمة .. ٢٤
مارجريت راوش

٤- نموذج كولن التعليمي ونظريات التعلّم الحديثة ٤٠
ألب أصلان دوغان

٥- نظرة كولن للتعليم أساس أفكاره وأفعاله ٤٩
علي أونسال

٦- المرجعية الأخلاقية لدى الأستاذ كولن فكرًا وسلوكًا ٥٩
أمل عبد الله محمد النعيمات

٧- قراءة في كتاب مفاتيح التجديد عند الأستاذ فتح الله كولن ٧٤
عبد العزيز الإدريسي

٨- العقيدة ودورها في البناء المعرفي لدى الأستاذ كولن ٨٣
محمد عطا فنير المساعيد

٩- هندسة الاجتزاء، تقرير الشؤون الدينية التركية نموذجًا ٩٣
أرجون جابان

facebook.com/nesematstudies

twitter.com/nesemat_com

نسمات

بحوث ودراسات متخصصة

www.nesemat.com

Copyright©2021 Dar al-Inbiath

جميع الحقوق محفوظة، ولا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بأية وسيلة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

إعداد وتحرير
صابر المشرفي

اللجنة الاستشارية العلمية
أ.د. محمد إقبال عروي
أ.د. محمد جكيب
أ.د. عبد المجيد بوشبكة
أ.د. هدى درويش
أ.د. سليمان الدقور
أ.د. باسم عيتاني
د.أبو زيد عبد الرحيم
د. جمال السفرتي
د. عبد الله الدعجاني

إخراج فني
أحمد شحاتة

غلاف
نور الدين صواش

البريد الإلكتروني
nesemat@yahoo.com

التوزيع
دار الانبعاث للنشر، مصر
Tel. : 002 02 25379391
Mobile: 002 01023201002
E-mail: info@daralinbiath.com
www.daralinbiath.com

الترقيم الدولي
978-977-6704-15-2

رقم الإيداع
2021/7733

رقم النشر
025
القاهرة - مصر

جوهر الإصلاح

إن الإصلاح تربية وتعليم، فالتعليم بكل أبعاده الشمولية هو الذي يمثل جوهر المنهاج الإصلاحي، وسر مركزية التعليم في العمل الإنساني هو دورانه على الإنسان، معلمًا ومتعلمًا، فالمعلم المنخرط في مهنته بروح التعبد الخالص يستطيع أن يصنع من تلميذه إنسانًا جديدًا، ينظر إلى مستقبل الأمة بعيون يملؤها الأمل، وقلب ينبض بالمحبة والسلام. ومن ثم فإن إصلاح الأجيال مرتهن بإصلاح التعليم، وإخراج فلسفته من ضيق المنطق الوظيفي الميت إلى سعة العمل الإنساني النبيل، ألا وهو بناء الإنسان بكل أبعاده النفسية والفكرية، لكي يسهم في تجديد البنى الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية في البلاد، ويحدوها برفق وهدوء نحو التآلف والتكامل والنهوض.

لقد تأثر الكثيرون برؤية فتح الله كولن هذه في الإصلاح، وبذلوا الجهد والمال لتأسيس مدارس ممتازة، تعد قطب الرحى في مشروع الرجل الإصلاحي، وهذه المدارس ليست مجهزة بأحدث التجهيزات والوسائل التربوية فحسب، بل يقوم عليها كذلك كفاءات إدارية وتربوية يشتغلون بنفس رسالي وأفق إنساني وهمة عالية، يرعون البذور الجيدة وينمونها في النشأ، ويزيلون البذور السيئة، لينشأ جيل يحترم قيمه الثقافية ويتمتع بالمثل العليا ويسهم في بناء حضارة إنسانية نبيلة.

وليست الرسالة التعليمية مقصورة على المدارس فحسب، بل هناك قاعدة عريضة جدًا في الخدمة تهتم برسالة التعليم على مستويات مختلفة، بداية من البيوت التي فتحها متطوعو الخدمة إلى الجلسات الأسبوعية، ومن السكن الطلابي حتى الدورات التأهيلية للجامعة، هذا إلى جانب وسائل الإعلام وأنشطة النشر وكذلك الندوات والمؤتمرات العلمية التي تتكامل فيما بينها لمناهضة الجهل ونشر العلم وبناء الإنسان.

ويرى بعض الباحثين أن تميز هذه الرؤية الإصلاحية في التعليم لا يكمن في جديد تقدمه الخدمة أو شيء مختلف تتمايز به، بل يكمن جزئيًا في توليفة مثالية من الوقت والمكان والسياق، وجزئيًا في فتح الله كولن نفسه، فجميع قصصه وتعاليمه والنموذج الأخلاقي الذي يجسده يلهم الآخرين لاتخاذ موقف، ويدفعهم إلى إيثار التضحية، والسعي بدأب في خدمة البشرية عوضًا عن خدمة أنفسهم.

ومن ثم فقد اهتمت هذه الإصدارة بالبحث عن رؤية الأستاذ فتح الله كولن الإصلاحية في التعليم وبيان الفلسفة القابعة وراءها، والمقارنة بينها وبين بعض التجارب التعليمية التي برزت إلى الساحة للتركيز على الجانبين العلمي والروحي، وغرس الفضيلة في نفوس الطلاب والعمل على بناء شخصيتهم.

كما تناقش هذه الإصدارة أيضًا دور الإيمان والتقوى في النهوض والتقدم العلمي والاجتماعي وخاصة في مجتمع النساء، على عكس ما هو شائع عن ربط التقدم في الحياة بالعلمنة أو البعد عن الروح وتعاليم الدين. هذا إلى جانب دراسات أخرى تسبر جوانب متعددة من نموذج الأستاذ كولن الإصلاحي، وتوضح المرجعية الأخلاقية لديه فكرا وسلوكًا، وتعرض بإيجاز أهم مفاتح التجديد في مشروعه الإصلاحي. كل ذلك من خلال باحثين متعددي الجنسيات والثقافات والمرجعيات الفكرية والثقافية مما يشي بإنسانية هذا المشروع الذي يقدم تطبيقا عمليا معاصرا للإسلام، يصحح مسارات نماذج أخرى طبعت صورة الإسلام السمحة بسحابة قاتمة حجبت رؤية معالمه على النحو الصحيح.

مفهوم التعليم

في فكر الأستاذ فتح الله كولن

إن الأنشـطة التربويـة والتعليمية هي أبـرز مظاهر حركة الخدمة بلا شـك. وقد أضاف بعض الباحثين الحوار إلى جانب الأنشطة التعليمية واصفين ذلك بأنهما أبرز مظاهر حركة كولن. وعلى الرغم من أن المـدارس التركية الموجودة بداية في تركيا ثم في مختلف دول العالم، هي أول ما يخطر بالبال إذا ما ذُكر التعليم، إلا أن الأنشطة التعليمية ليست مقصورة على المدارس فحسب. فهناك قاعدة عريضة جدًّا على مستويات مختلفة تهتم بالتعليم ومناهضة الجهل وتنشـئة الإنسـان؛ بداية من البيوت التـي فتحها متطوعو الخدمة إلى الجلسـات الأسـبوعية، ومن السـكن الطلابي حتى الدورات التأهيليـة للجامعة، ومن رواق القراءة حتى أنشطة النشر، ومن الأجهزة الإعلامية من الصحافة والتلفزيون إلى المؤتمرات والندوات.

فمـن الأهمية بمكان الاطـلاع على رؤية الأسـتاذ فتح الله كولن في هذا الصدد، من أجل إدراك الفكرة الرئيسية والفلسفة القابعـة وراء الخدمات التعليمية المقدمة بهـذا القدر الهائل. لذلك سيعرض المقال بداية بعض تعليقات الأستاذ كولن حول أهميـة التعليم، ثم سـيتناول بعض الملاحظـات التي وجهها للنظام التعليمي الحالي، وبعدها سيعرج المقال على الخطوط العريضة لآراء الأستاذ كولن وتوصياته حول التعليم.

يوكسل تشاير أوغلو

باحث وكاتب أكاديمي تركي، ولـد فـي جنـاق قلعة إحـدى محافظات تركيا عـام ١٩٨٢. تخرج في كلية الإلهيات عام ٢٠٠٥ بجامعة إزمـير دوكـوز إيلول. حصل على الماجستير عام ٢٠٠٨ في رسالة بعنوان "الـزاهـد الـكـوثـري والـفـكـر الفقهي"، ونـال الدكتوراه عام ٢٠١٣ بـأطـروحـة عـنـوانـهـا "مشكلة الطعام الحلال في الشريعة الإسـلامـيـة"، وهـو أحـد طـلاب الـخـدمـة الـذيـن يستلهمون أفكارهم من الأستاذ فتح الله كولن، ومتخصص في الـدراسـات والـبـحـوث حـول الخدمة إلى جانب تخصصه في الشريعة والفقه الإسلامي، ومن مؤلفاته حول الخدمة: فتح الله كولن رجل الفكر والفاعلية.

يرى الأستاذ فتح الله كولن أن التعليم -بوجه عام- هو تطوير الخصائص الفطرية الكامنة في الإنسان منذ نعومة أظافره. فهو يرى المخلوقات الأخرى غير الإنسان على دراية جيدة بقوانين الحياة، وتطأ الأرض بغريزة فطرية غاية في الكمال وكأنها تربَّت في عالم آخر. لكن الإنسان ليس كذلك. فعلى الرغم من أنه مخلوق مكرَّم ومثالي للغاية، إلا أنه وُلد محرومًا من كل هذه الغرائز الفطرية الموجودة في الحيوان ومن المعلومات الضرورية للحياة، وعاجزًا للغاية، فهو غير مدرك لقوانين الطبيعة، ويحتاج إلى تعلم كل شيء، ولن يتأتى له معرفة كل هذا ووصوله إلى الكمال إلا بالتعليم.

وبتعبير آخر، خلق الله تعالى الإنسان مهيّأً لبلوغ أعلى المراتب، وقد زوده بمجموعة من المواهب والاستعدادات لتحقيق هذا، بيد أن انكشاف هذه المواهب وتطورها مرهون بالتربية والتعليم.

من جانب آخر يولد الإنسان ببعض الميول الحيوانية إلى جانب المشاعر الإيجابية المنفتحة على الخير والفضيلة. أي إن لديه «آلية النفس» إلى جانب «آلية الوجدان». فإن لم يهذب الإنسان هذه المشاعر المنفتحة على الشر والسوء، فإنه يبتعد عن غاية خلقه وعن إنسانيته. ومن ثم فإن التربية تقوم برسم حدود حركات الإنسان ونشاطاته، وتمنعه من التيه والانحلال والانحطاط. فكما سيطور المهارات التي أتى مزودًا بها إلى الدنيا، ويعلن عن الطاقة الكامنة بداخله بالتعليم، فإن تحكمه في مشاعره السلبية، واتقاءه المساوئ سيكون مرهونًا بالتعليم أيضًا.[٢]

يذكر كولن أن التربية والتعليم شقان مهمان بالنسبة للفرد، كما أنهما مهمان لدرجة أكبر بالنسبة للمجتمع؛ حيث يرتبطان بشكل مباشر بحيوية المجتمع وبقائه. وبهذا المنطلق أصبح التعليم من أهم القضايا الأساسية التي تهم كل الدول تقريبًا حتى اليوم، وفي ظل الفترات الانتقالية التي تُعتبر أوقاتًا مستعصية على الشعوب، تكتسب قضية التعليم أهمية أكبر.[٣]

وتكشف العبارات الآتية عن قناعة الأستاذ فتح الله كولن بأن التربية والتعلم هي غاية وجود الإنسان وبقائه:

«لا تظهر إنسانية الإنسان واضحةً إلا عند محاولته التعلم ثم تعليم غيره وتنويره. والذي لا يحاول التعلم -مع كل جهله- ولا يفكر بذلك ولا يجدد نفسه بما تعلمه ولا يكون قدوة لغيره، فهو إنسان بالصورة فقط وليس بالسريرة»[٤].

ومن المعلوم أن الأستاذ بديع الزمان، يرى أن الجهل والفقر والفُرقة هي مصدر كل شر والسبب الأساس لما تتعرض له الأمة. ويمكن القول إن جميع المشاريع والأنشطة التي تضطلع بها حركة الخدمة تقوم على أساس مكافحة هؤلاء الأعداء الثلاثة. ويلفت الأستاذ فتح الله كولن من خلال مقولته «الجهل هو أول الأسباب لمآسينا الاجتماعية ومقدمة الدواعي إلى بؤسنا السائد»[٥] إلى حقيقة أن الجهل هو أعظم خطر من كلا الأمرين الآخرين، لأن الجهل هو المصدر الرئيسي للفقر والفرقة، أما السبيل إلى التغلب على الجهل فيكمن في التعليم. فبما أن الجهل هو العدو الأكبر، فيجب بذل

الاهتمام الأكبر للتعليم الذي سيتغلب عليه. ومن ثم ركز الأستاذ فتح الله على التعليم بشكل مباشر وغير مباشر في أغلب مقالاته وحواراته.

ملاحظات الأستاذ كولن على نظام التعليم الحالي

على الرغم من أن التعليم هو قضية حيوية للغاية من حيث حياة الفرد والمجتمع، إلا أن قدرته على تحقيق النتيجة والثمرة المرجوة منه مرهونة بالتنفيذ السليم وفق أصوله. وقد وجه كولن بعض الملاحظات على مفهوم التعليم الحالي في هذا الصدد. لأنه يرى أن «المدارس النظامية» التي أسسها الوزير السلجوقي «نظام المُلك» قد خدمت الأمة مدة سبعة قرون، إلا أن المدارس المفتوحة اليوم قد انتكست قبل أن تستوفي عامها الخمسين. ويثبت صحة هذا الرأي عدم تنشئة الكليات لطلبة علم على المستوى المرجو منذ سنوات، وعجز النظام الحالي للتعليم عن تنشئة رجال علم جادين[٦]

هناك أسباب تمنع -للأسف-رقي الدولة ونهضتها مثل عدم تحرر السياسيين من الاعتبارات السياسية وتركيزهم على فكرة الارتقاء ببلدهم، وتعرض نظام التعليم من الماضي إلى الحاضر إلى ضغوط العقليات القمعية والاستبدادية، وعدم قدرة الشعب على التحرر من قيود المعتقدات المختلفة، وعدم تمكُّن المسؤولين من إيجاد الوقت لتطوير هذه الأمور بسبب الانشغال بالسعي وراء المال والمجد والشهرة.[٧]

إن أحد أهم الملاحظات التي وجهها كولن لنظام التعليم هو سيادة «**النمطية والحفظ**» في المدارس. فالحفظ يقطع السبيل أمام المحاكمة العقلية، وينشئ الطلاب محرومين من التحليل والتركيب. فإذا تقيد الذكاء بالمعتقدات تعرَّض للضمور والاضمحلال. فإن لم يتم التحرر من النمطية، فلن يكون هناك عباقرة. ونظرًا لأن القوالب والأنماط التعليمية تُوضع مسبقًا، فإنه يتم تربية الناس وتنشئتهم وفقًا لها. وأولئك الذين يتجاوزون هذا النمط يعتبرون متمردين. كل هذا يوضح كيف تحولت المدرسة إلى معقل للعقائد السوداء، والقوالب المتعفنة إلى وكر استقر في الأذهان. وما لم يتم تصحيح هذه الأخطاء، فسوف يتخرج الطلاب بقدرات ضعيفة حتى ولو أتوا بأمثال "أينشتاين" في المدارس.[٨]

ومن ضمن الجوانب التي لاحظها كولن أيضًا، عدم احترام الفكر الحر، وعدم إيقاظ حب البحث والحقيقة في الطالب، والتعامل مع المسائل ببعض السطحية. يقول مثلاً في أحد المواضع:

«إنني أرى أن مؤسسات التربية والتعليم التي تهتم دائمًا بظاهر الأمور، ستستمر في تهميش الأجيال، وتهميش حياتنا الفكرية مادامت بمنأى عن روح الحكمة، ومادامت الأذهان التي تُدرِّس فيها ضيقة. بل حتى الاكتشافات الحديثة والوصفات الناجعة السحرية التي تقدَّم من أجل إنقاذ الإنسانية، لن تستطيع أن توقف هذا الانحطاط العام على مستوى العالم.»[٩]

nesemat.com نسمات nesemat.com

إن لم يأخذ العلمُ الوحيَ بعين الاعتبار إلى جانب النتائج التي يتوصل إليها بالوسائل العقلية وبالأعضاء الحسية، فإن المؤسسات التعليمية ستنحدر إلى مجريات مختلفة، ولن تستطيع تأدية الوظيفة المرجوة.

ويذكر أيضًا أنه من الضروري دراسة كيف أن بعض الأشخاص الذين نشأوا في نظامنا التعليمي كانوا أداة للقوة الغاشمة، وكيف تمردوا على القيم الإنسانية، وكيف أساؤوا عمدًا إلى أمتهم؟! فهو يرى أن انغماس الأجيال الشابة في العادات الضارة مثل المخدرات والقمار والسُكْر، وانتشار السرقة والاستيلاء على الممتلكات العامة بالنهب والاختلاس وغيرها من المشكلات، تثبت أن هناك قصورًا وجوانب يمكن التساؤل عنها في نظامنا التعليمي الذي لا يضع تنشئة الإنسان في المقام الأول. فإن لم توضع تنشئة الإنسان في المقام الأول ستظل الأجيال تضيع سدى، وسيظل البعض يستغلونهم من أجل مصالحهم ما داموا قد نشأوا محرومين من الجوانب المعنوية ولم يتلقوا التربية الكافية[١٠].

ومن النقاط التي ينتقدها الأستاذ فتح الله كولن أيضًا هي هيمنة المنهج الوضعي في نظام التعليم. وعلى الرغم من أن المنهج الوضعي له مكانة لا مراء فيها في العلم، إلا أنه ليس من الصواب أن يقوم نظام التعليم برمته عليه، فما هو إلا منهج من المناهج العلمية. إلا أننا قد أصبحنا أكثر وضعية من الغرب منذ فترة التنظيمات؛ لقد أفرط مثقفونا في هذا الأمر، وخطوا خطوات خاطئة في هذا الصدد. فإن لم يأخذ العلمُ الوحيَ بعين الاعتبار إلى جانب النتائج التي يتوصل إليها بالوسائل العقلية وبالأعضاء الحسية، فإن المؤسسات التعليمية -كما هو الحال اليوم- ستنحدر إلى مجريات مختلفة، ولن تستطيع تأدية الوظيفة المرجوة منها. حتى إن هذه المؤسسات قد تضر باستقرار الدولة، وتقضي على أمل الأمة.[١١]

إعادة بعث التعليم وإصلاحه

يقول كولن: «نحن ملزمون بالبحث عن حل لمشكلاتنا التربوية، والإسهام في الحياة الثقافية للإنسانية بتراثنا الثقافي ومفهومنا الحضاري الأصيل». معبرًا عن ضرورة قيام طاقم التعليم ورجال العلم بإعادة النظر في كل ما قيل إلى يومنا هذا، وإعادة فحصه بطريقة علمية مرة أخرى[١٢]. إذ يُشعر بحاجة ماسة اليوم إلى مؤسسات تعليمية جديدة تقوم على فكر وفهم وفلسفة حديثة.

ولتحقيق ذلك لا بد من إعلان التعبئة في كل مناحي الحياة، بدءًا من الروضة والتعليم الابتدائي والإعدادي والثانوي حتى التعليم الجامعي. لأنه في عالم سريع العولمة، حيث تبدأ المسافات في الزمان والمكان في التقلص سيحتل العلم مكانة مهمة للغاية بالعلم، وسيستمد كل شيء قوته أيضًا منه. فلن يتأتى تشكيل وبناء مستقبل كهذا على العلم إلا بإصلاح المؤسسات التعليمية.[١٣]

وعبر كولن عن أنه إذا كانت هناك رغبة في تنشئة طبقة مثقفة أو الكشف عن قادة بارزين في مجالات متنوعة، فيجب إعادة النظر في المناهج الدراسية بدءًا من التعليم الابتدائي والثانوي إلى برامج التعليم العالي. لأن المدارس الثانوية والجامعات ليست مناسبة لتأهيل إنسان ناجح وذي جودة عالية

لا بد من إعلان التعبئة في كل مناحي الحياة بدءًا من الروضة حتى التعليم الجامعي. لأنه في عالم سريع العولمة، سيحتل العلم مكانة مهمة للغاية، وسيستمد كل شيء قوته أيضًا منه. فلن يتأتى تشكيل مستقبل وبناؤه على العلم إلا بإصلاح المؤسسات التعليمية.

بالمناهج الدراسية التي تقررها. ومن هذا المنطلق تكون جميع المؤسسات التعليمية هذه بحاجة إلى عملية إصلاح حقيقية[١٤]. فهو يرى أننا بحاجة اليوم إلى **أرواح ثورية** من أجل تحقيق إصلاح كهذا؛ أي إضافة الروح والمعنى إلى هذا النظام التعليمي المفروض على الجميع بضغط الأذهان والعقول القمعية والاستبدادية.[١٥]

مزاوجة القلب والعقل

إن الهدف الأساس من المؤسسات التعليمية في وقتنا الحاضر هو تزويد الطالب بالمعلومات المادية المطلوبة لمهنهم المستقبلية؛ فهو يؤهل الطالب للحصول على فرص عمل جيدة والوصول إلى وظائف مرموقة. وبالتالي، سوف يسهمون في تقدم الدولة ونهضتها وإنعاشها اقتصاديًا. ونظرًا لأن التطور التقني والتكنولوجي، والتعزيز الاقتصادي وزيادة الرفاهية هي الأهداف الأساسية لسياسيي اليوم، فإن المناهج الدراسية للمؤسسات التعليمية تتشكل أيضًا وفقًا لذلك. والواقع أنه لا يمكن إنكار أهمية هذه الأهداف، إلا أن هذا النهج في الواقع قد جعل التربية والتعليم تقوم على المادية بقدر كبير، لدرجة أنه تم تجاهل التربية تمامًا والاهتمام بالتعليم فحسب. فمن المسلَّم به أن مثل هذا النظام التعليمي لا يمكن أن يلبي الاحتياجات الروحية والمعنوية للفرد، ولن يمنحه القيم الأخلاقية العالمية، ولن يقدم أي توصيات لحل النزاعات والمشكلات التي تنخر في عضد المجتمع.

فمفهوم التعليم عند فتح الله كولن يتمثل في: «الإنسان ليس مجرد جسد، ولا مجرد عقل ومنطق، ولا مجرد مشاعر، ولا مجرد روح.. إنه كائن يتشكل من جسدٍ يتحرق شوقًا لكثير من الرغبات، ومن عقلٍ له احتياجات أعمق من الجسد، وينشغل بآلام الماضي ومخاوف المستقبل، فضلاً عن أنه يبحث في الكون كله عن جواب على سؤال «من أكون؟ ما هذا العالم؟ ماذا تريد مني الحياة والموت؟ من أرسلني إلى الدنيا ولأي غرض؟ أين أذهب؟ وما الهدف من هذه الحياة؟ من هو دليلي في هذه الرحلة الدنيوية؟»، ومن مشاعر تتطلب إشباعًا أكثر من العقل، ومن روحٍ تمنحه هويته الإنسانية، إنه عبارة عن مزيج من هذا كله، أي إنه كائن متكامل. فإن الإنسان الذين تدور حوله جميع الأنظمة والجهود، قد يصل إلى السعادة الحقيقية عندما يُنظر إليه ككل من جميع جوانبه هذه ويُعاد تقييمها ككيان واحد، وتُشبع جميع احتياجاته».[١٦]

لهذا السبب «يجب أثناء التخطيط لقضايا تربية وتعليم النشء، تضمين الأخلاق والقيم الإسلامية على الأقل بقدر علوم ومعارف وتكنولوجيا العصر؛ حتى لا يقع الشباب في مشاكل معنوية وروحية، ومن ثم لا يضطرون إلى البحث عما يرضي أهواءهم ويُشبع احتياجاتهم».[١٧]

nesemat.com نسمات nesemat.com
يجب أثناء التخطيط لقضايا تربية وتعليم النشء، تضمين الأخلاق والقيم الإسلامية على الأقل بقدر علوم ومعارف وتكنولوجيا العصر؛ حتى لا يقع الشباب في مشاكل معنوية وروحية، ومن ثم لا يضطرون إلى البحث عما يرضي أهواءهم ويُشبع احتياجاتهم.

يوضح كولن ثمرات المنهج التعليمي الذي يأخذ في الاعتبار القلب إلى جانب العقل، وكذلك الاحتياجات الروحية إلى جانب الاحتياجات المادية بالكلمات التالية:

«إن مفهوم التعليم -كما صاغه مفكرنا الجليل والقدير-[١٨] الذي يرى استنارة العقل في العلوم الحديثة، وضياء القلب في الإيمان والأخلاق، والذي يجعل الطالب يطير في سماء الإنسانية بهذين الجناحين، ويسعى إلى رضا الله بخدمة الناس، لديه الكثير ليقدمه للإنسانية. مثل هذا المفهوم سوف ينقذ العلم من براثن المادية، وينقذه من أن يستحيل عنصرًا ضارًا وسلاحًا فتاكًا؛ فلن يدع الدين مجهولاً بحسب تشبيه "أينشتاين"، ولن يكون بمنأى عن العقل والحياة والحقائق العلمية، ولن يسمح بأن يُنظر إليه على أنه مؤسسة للتعصب الأعمى التي تبني الجدران العازلة بين الأفراد والأمم»[١٩].

بعض التوصيات الخاصة بنظام التعليم

وقد عبر كولن -الذي يتحدث كلما سنحت له الفرصة تقريبًا عن أهمية الحرية، والحاجة إلى تحقيق حرية الفكر- عن **ضرورة أن يكون نظام التعليم أيضًا بمنأى عن أي ضغوط وقمع، وأن يتبنى احترام الفكر الحر**. فهو يرى أنه لا يتأتى تنشئة العظماء إلا من خلال تهيئة مناخ حر يمكن للجميع التعبير فيه عن أنفسهم بحرية تامة. ومن متطلبات ذلك احترام ميول الطلاب بدءًا من مرحلة الثانوية بناء على استعداداتهم ومواهبهم، ومنحهم الحق في الاختيار في هذا الصدد. لذلك يجب أن توضع المناهج الدراسية في الثانوية والجامعات بمرونة تسمح بتحقيق ذلك. فإذا لم تُوفر لهم الفرصة، ولم يتم إرشادهم من سن مبكرة حسب قدراتهم وذكائهم، فلن تظهر العقول الفذة ولن يمكن تنشئة عباقرة المستقبل.[٢٠]

يرى كولن، أن نظام التعليم الحالي يضيع قدرًا كبيرًا من وقت الطالب، فيذكر أنه حتى الطفل الذي يتمتع بمستوى متوسط من الذكاء يمكنه اختزال ١٢ عامًا من التعليم الابتدائي والإعدادي والثانوي الحالي في ٤-٥ سنوات فقط بتخطيط جيد.[٢١]

هناك مسألة أخرى أكد عليها حول مسألة التعليم وهي **إمكانية تقديم المعلومات الضرورية للحياة في المدارس**. على سبيل المثال، يتعلم الطلاب المعارف الأساسية بالصحة من خلال الدروس التي يقدمها الأطباء، وبالمثل، يمكن للطلاب أن يتعلموا في سن معينة بعض القضايا المتعلقة بالزواج والعلاقات بين الزوجين وتربية الأبناء من خلال المختصين بهذا المجال[٢٢].

يرى كولن، أن **التربية والتعليم يجب أن يسيرا جنبًا إلى جنب في نظام التعليم**. فمهما كان المستوى الذي ارتقى إليه الطالب في التعليم، فلن يكون هذا كافيًا لسد الفجوة في التربية. فالتربية باختصار تعني ترقية الإنسان العادي إلى مستوى الإنسانية الحقة. لذلك يجب أن يكون المعلمون المنشغلون بالتعليم

لا يتأتى تنشئة العظماء إلا من خلال تهيئة مناخ حر يمكن للجميع التعبير فيه عن أنفسهم بحرية تامة. ومن متطلبات ذلك احترام ميول الطلاب بدءًا من مرحلة الثانوية بناء على استعدادهم ومواهبهم، ومنحهم الحق في الاختيار في هذا الصدد.

قادرين على الكشف عن أثر وهيكل الإنسان مثل النحّات الماهر تمامًا. يجب أن يكونوا قدوة للطلاب في أفعالهم وتصرفاتهم ومعتقداتهم وأفكارهم ونظراتهم للعالم، فيكونوا مربين لهم بلسان حالهم. فإن لم تمر هذه العقول الفذة من تحت أيادي معلمين ماهرين، ولم يتم تنشئتهم في كنف مربين حاذقين، فلن تتطور أخلاقهم وشخصياتهم[٢٣].

وظيفة المدرسة والهدف الأساس منها

عبّر كولن عن أن نظام التربية والتعليم الذي لم يُوضع له هدف معين، سوف يربك ويشوش الأجيال[٢٤]، فيذكر أن المهمة الأولى للمدرسة هي رعاية وتنمية البذور الجيدة التي تلقى على عالم مشاعر وأفكار الطفل في عشه وإزالة البذور السيئة. بمعنى آخر، يجب أن تساهم المدرسة في تنمية الشخصية والأخلاق التي بدأت أولاً في الأسرة وأن تؤهل الطفل ليكون فردًا جيدًا يحترم قيمه الثقافية ويتمتع بالمثل العليا.

والمفهوم من تصريحات فتح الله كولن حول هذا الموضوع، أن الهدف الوحيد للمدرسة ليس تعليم الأطفال علومًا مختلفة وملء عقولهم بالمعلومات المفيدة. بل يجب على المؤسسات التعليمية إلى جانب هذا أن تنشئ الطفل على علم ووعي بالقضايا الدينية وشؤون الدولة والأحداث العالمية. فإن تعويد الطلاب على التفكير بشكل منهجي والعمل بانضباط، هو من بين الواجبات الأساسية للمدرسة.

لخص كولن بإيجاز الغرض الأساسي من المدرسة وواجبها في الجمل التالية:

«تهدف المدرسة إلى إيصال طلابها إلى أسمى السمات وأرقاها، والارتقاء بهم فوق كل الأمم على المستوى المادي والمعنوي، وإرشادهم إلى طرق بناء حضارات تفوق الحضارات الموجودة كما كان في السابق... ومن أجل تحقيق هذه الغاية لا بد من الاهتمام بكل طالب على حدة، والتعريف بقيم الأمة ومقدساتها وغرسها فيهم من خلال تمثيلها شخصيًا؛ يجب تهيئة المناخ لولادة وتنشئة الشخصية الإنسانية الفاضلة التي تحمل فعلاً القيم القومية لوطننا الذي أصبح مشوشًا وغير واضح المعالم بالأفكار والانصهار الأجنبي الذي غلب عليه». [٢٥]

الهوامش

(1) Anwar Alam, For The Sake of Allah, s. 194.
(2) Fethullah Gülen, Çağ ve Nesil, s. 47-38.
(3) Fethullah Gülen, Buhranlar Anaforunda İnsan, s. 114.
(٤) فتح الله كولن، الموازين أو أضواء على الطريق، ص ١٠.
(٥) فتح الله كولن، ونحن نقيم صرح الروح، ص ٧٣.
(6) Fethullah Gülen, Fasıldan Fasıla, 1/11.
(7) Fethullah Gülen, Fasıldan Fasıla, 3/197.
(8) Fethullah Gülen, Fasıldan Fasıla, 5/114; Işığın Göründüğü Ufuk, s. 96.
(9) Fethullah Gülen, Yitirilmiş Cennete Doğru, s. 114.
(10) Nuriye Akman, Gurbette Fethullah Gülen, s. 26-27.
(11) Fethullah Gülen, Fikir Atlası, s. 115-116.
(١٢) فتح الله كولن، الموشور ١، ص٧٢.
(١٣) فتح الله كولن، الموشور ٣، ص ٢٣٠.
(14) Fethullah Gülen, Yenilenme Cehdi, s. 153.
(15) Fethullah Gülen, Fasıldan Fasıla, 3/197.
(16) Fethullah Gülen, İnsanın Özündeki Sevgi, s. 234-235.
(17) Fethullah Gülen, Zamanın Altın Dilimi, s. 164.
(١٨) يوجد هنا إسقاط على كلمات الأستاذ بديع الزمان، التي يقول فيها: «إن ضياء القلب هو العلوم الدينية ونور العقل هو العلوم الحديثة فبامتزاجهما تتجلى الحقيقة، فتتربى همة الطالب وتعلو بكلا الجناحين. وبافتراقهما يتولد التعصب في الأولى والحيل والشبهات في الثانية.» (سعيد النورسي، المناظرات، ص ١٢٥)
(19) Fethullah Gülen, İnsanın Özündeki Sevgi, s. 237.
(20) Nevval Sevindi, «Röportaj», Yeni Yüzyıl Gazetesi, 20-29 Temmuz 1997.
(21) Fethullah Gülen, Fasıldan Fasıla, 3/197.
(22) Nuriye Akman, Gurbette Fethullah Gülen, s. 26-27.
(23) Fethullah Gülen, Buhranlı Günler ve Ümit Atlasımız, s. 235-236.
(24) Fethullah Gülen, Fasıldan Fasıla, 2/268.
(25) Fethullah Gülen, Zamanın Altın Dilimi, s. 114-115.

التعليم المعاصر

بين سوق العمل وبناء الشخصية

تركـز المدارس عـلى تحصيـل المعـارف باعتبارها خطوة أساسـية في طريق بناء مستقبل مهني واعد، لكنها نادرًا ما تنتبه لتضمين الأخلاقيات والقيم في المنهج الدراسي. وقد تعرضت الولايـات المتحـدة ومدارسـها إلى أزمـة أخلاقية بسـبب هذا الإهمال، المصحوب بنظرة مادية لمخرجات العملية التعليمية. ثم ظهرت حركة بناء الشخصية استجابة لهذه الأزمة في محاولة لغرس الفضيلة في نفوس الطلاب الأمريكيين. كما ظهرت حركة تعليمية أخرى؛ هي حركة فتح الله كولن. نجحت هذه الحركة في تأسـيس مئات المدارس حول العالم ، والتي تركز على الجانبين العلمي والروحي، بهدف تنشـئة "الجيل الذهبي" الذي سـيبني أفراده عالماً من السـلام والتناغم. تأثـر المعلمون برؤية كولن ووضعـوا هذا الهدف نصب أعينهـم ، وفضّلوا تعليم الأخلاق للطلاب من خلال ضرب المثل بدلاً من التلقين، لكيلا ينشـأ أي صراع بين أفكارهم وتوقعات المجتمع. غير أنه في ثقافة تشيع فيها النزعة الفردية وفضائح سوق المال والسياسة، لا يتضح إن كانت القدوة الأخلاقية كافية وحدها لإلهام الطلاب الأمريكيين بوجه عام لمناقشة أسباب قيامهم بهذه السلوكيات، ناهيك عن تحولهم إلى "الجيل الذهبي". لذلك تسـتقصي هذه الدراسـة نتائـج البحث التعليمي وكتابات فتح الله كولن، وتخلص إلى أنه في البيئة الأمريكية، يجب عـلى الأقل على المعلمين المتأثرين بأفـكار كولن التفكير في تضمين ممارسـات ذات مغزى أخلاقي ونوايا وتصرفات يختارونها بأنفسهم في مدارسهم.

تشارلز نيلسون

أسـتاذ مسـاعد في قسـم اللغة الإنجليزية بجامعة كين نيو جيرسي. حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة تكساس في أوستن. تشمل اهتماماته تحليل الأفـراد، ومـمارسات الوساطة الاجتماعية، والديناميكيات البيئية الأساسية، كما قام باستكشاف طريقة تعلم الطلاب وتحصيلهم مـعـارف الـلـغـات الـثـانـيـة، وكيـف يتعلمون التعرف على الممارسات الثقافية المختلفة، وكيـف تتغير هوياتهم نتيجة التعلم، وكيف يؤثر فقدان الاتزان على التغيير والتعلم في العمليات النفسية والاجتماعية التاريخية والبيئية. إلى جانب كتابة فصل في كتاب "الكتابة بلغة ثانية" ومقالات نُشرت في العديد من الجرائد العلمية، شارك في تأليف ورقتين بحثيتين حول الحركة التعليمية المرتبطة بفتح الله كولن.

ما الغاية النهائية من العملية التعليمية؟ كانت إجابة أغلب الطلاب الذين طُرح عليهم هذا السؤال «الحصول على وظيفة جيدة وجمع المال». وأذكر كمعلّم أن طالبيْن أو ثلاثة طلاب فقط وجدوا المدرسة مكانًا يوفر لهم فرصة التعلم. بل إنني بدأت مؤخرًا أنظر إلى التعليم نظرة أوسع من مجرد وسيلة للحصول على وظيفة جيدة والاستمتاع بمستوى معيشة مرتفع.

لم تكن هذه نظرتي أنا وطلابي فحسب، فقد صدر تقرير عام ١٩٨٣ بعنوان «أمة في خطر» جاء فيه «يبدو أن مجتمعنا ومؤسساته التعليمية قد نسيا أغراض التعليم المدرسي الأساسية». وهذه «الأغراض الأساسية» وفقًا لما ورد في التقرير هي بناء «يد عاملة ماهرة» للنهوض بالولايات المتحدة عقب «١٥ عامًا من تدهور الإنتاج الصناعي»، وإعادتها إلى سابق عهدها باعتبارها «دولة متفوقة في ابتكار الأفكار العظيمة وجلب المكاسب المادية للبشرية جمعاء». وتنتشر نظرة مشابهة في كندا؛ «يرى الاتحاد الوطني للأعمال في كندا أن المسؤولية الجوهرية للمدارس هي «تعليم المهارات الأساسية» (شاكر ١٩٩٨). لدرجة أن بعض دعاة حركة بناء الشخصية -التي سنتناولها لاحقًا- يركزون على بناء الشخصية بقدر ما ستفيد عالم الأعمال. كما نشر كتيب التعليم الصادر في ولاية كارولينا عام ٢٠٠٢، عبارة لإينيز تينباوم، مسؤولة التعليم في الولاية، تقول فيها: «ليست السمات الشخصية القوية، مثل الأمانة والنزاهة والمسؤولية، هي ما تنتظره الشركات من العاملين فيها فحسب، بل إنها السمات التي ستدفع المدارس والمجتمعات إلى تحقيق مستويات أعلى من النجاح والإنجاز في ولاية كارولينا الجنوبية وعلى الصعيد الدولي». وربما تكون هذه الرؤية متوقعة نظرًا لأن الاعتقاد السائد أن تركيز المدارس ينصب على تعليم القراءة والكتابة والرياضيات (قارن: «الطلاب الذين يتركون المدرسة يفتقرون إلى مهارات القراءة والكتابة والرياضيات»).

وبالتالي من الطبيعي أن تحرص المدارس على تعليم الطلاب المهارات والمعارف التي تساعدهم على النجاح في مستقبلهم المهني. غير أن اقتصار «الأهداف الأساسية» للمدارس على هذه الأهداف دليل على قصر النظر. فهي تعكس رؤية مادية مفادها أن المدارس لا تعدو كونها مصانع، والطلاب ليسوا أكثر من منتجات. يؤيد بوستمان هذا الرأي (١٩٩٥)، ويذكر أن المدارس تخدم اليوم أرباب المنفعة الاقتصادية، والاستهلاكية، والتكنولوجيا، وتهمل فلسفة ما وراء التعليم.

لا شك أن النظرة المادية لها تبعاتها، فقد بدأ العنف يتزايد في المدارس (بولاش ٢٠٠٢). وتقوم نسبة ٧٥٪ من طلاب المدارس الثانوية بالغش في

nesemat.com نسيات nesemat.com

تحرص المدارس على تعليم الطلاب المهارات والمعارف التي تساعدهم على النجاح في مستقبلهم المهني. غير أن اقتصار "الأهداف الأساسية" للمدارس على هذه الأهداف دليل على قصر النظر. فهي تعكس رؤية مادية مفادها أن المدارس لا تعدو كونها مصانع، والطلاب ليسوا أكثر من منتجات.

امتحان واحد على الأقل، ونسبة ٤٠٪ بالسرقة من المتاجر، وتلجأ نسبة ٤٠٪ إلى «الكذب للحصول على عمل جيد» (تقرير مدرسي صادر عام ٢٠٠٢ حول أخلاقيات الشباب الأمريكي، مشار إليه في ليكونا ٢٠٠٤، راجع أيضًا جودمان ١٩٩٨). كما تتزايد نسبة الغش في الكليات، حيث بلغت النسبة ٨٢٪ من طلاب كلية الهندسة منذ عشر سنوات. والأسوأ من ذلك أن أحد الأساتذة يقول: «لم يعد الأمر مخزيًا بالنسبة للطلاب» (سيلينجو ٢٠٠٤).

بالطبع تشير هذه الإحصاءات أيضًا إلى أن رُبع طلاب المدارس الثانوية لا يغشون، وأن الغالبية لا تسرق أو تكذب. وسيكون من المجحف أن نعزو المناخ الأخلاقي في أمريكا إلى النزعة المادية وحدها، بل إن تفاعل مجموعة من العوامل الاجتماعية والثقافية والاقتصادية قد أفرز بيئة تقلل من قيمة الأخلاق. ومع ذلك، لا يمكننا إغفال دور النزعة المادية في اضمحلال الأخلاق في الولايات المتحدة اليوم.

عندما أعدت التفكير في الغاية النهائية من العملية التعليمية، توصلتُ إلى أنه مع الاهتمام بإعداد الطلاب لمستقبلهم المهني، يجب إعدادهم لحياة تستحق أن تُعاش. وقد توصل آخرون إلى نفس النتيجة، فقد انتشرت حركة بناء الشخصية داخل الولايات المتحدة. وهناك حركة أخرى خارج الولايات المتحدة مستوحاة من كتابات وتعاليم فتح الله كولن؛ حركة تقدم رؤية من شأنها تغيير شكل التعليم وحياة الطلاب. تتناول هذه الدراسة هاتين الحركتين. فتبدأ أولاً باستقصاء حركة بناء الشخصية في الولايات المتحدة، ثم تتناول حركة فتح الله كولن. وأخيرًا تقدم بعض الاقتراحات حول طريقة تعديل منهج المدارس المستوحاة من رؤية كولن لبناء شخصية الطلاب في الولايات المتحدة.

تعليم بناء الشخصية في الولايات المتحدة

بغض النظر عن الأسباب، فقد تحوّل التعليم من غرس الحكمة والمعرفة إلى تدريس مواد دراسية. كتب وايتهيد (١٩٢٩) ما يلي:

«إن تلاشي المُثل دليل مؤسف على إخفاق الجهود البشرية. في المدارس القديمة، كان طموح الفلاسفة نشر الحكمة، أما في الكليات الحديثة فإن هدفنا المتواضع هو تدريس المواد الدراسية. إن الانحدار من الحكمة السامية التي كانت هدف القدماء، إلى معارف الكتب الدراسية التي يسعى إليها المحدثون، مؤشر على إخفاق تعليمي مستمر على مر العصور» (ص ٤٥)

لقد أصبح «تلاشي المُثل» أمرًا ملحوظًا. يشير بلين وليفل (٢٠٠٢) إلى أن مدارس الولايات المتحدة بدأت تتجه نحو تعليم بناء الشخصية بعد إدراك وجود «أزمة أخلاقية في المجتمع الغربي»، في محاولة لغرس القيم في نفوس الطلاب دون الرجوع إلى الدين. وقد أثارت هذه المحاولة جدلاً واسعًا على عدة جبهات، تؤكد إحداها على استحالة فصل القيم عن الدين. ويشعر آخرون أن التربية

nesemat.com نسمات nesemat.com

إن تفاعل مجموعة من العوامل الاجتماعية والثقافية والاقتصادية قد أفرز بيئة تقلل من قيمة الأخلاق، ومع ذلك، لا يمكننا إغفال دور النزعة المادية في اضمحلال الأخلاق في الولايات المتحدة اليوم.

المدنية -وثيقة الصلة بتعليم بناء الشخصية- ما هي إلا «هراء» يقتطع من وقت تعليم مواد أكثر أهمية، في حين ما زال آخرون يعارضون هذا التوجه العام (كريستيانسون ٢٠٠٤). يمثل كون (١٩٩٩) جبهة أخرى، حيث يؤكد أنه من غير المحتمل أن يؤدي تعليم بناء الشخصية إلى أي تغيّر دائم في السلوك نظرًا لاعتماد طريقة التدريس على نقل المعلومة بشكل رئيسي بدلاً من قيام الطلاب بإدخال القيم في سياق حياتهم. يرى ديفيس (٢٠٠٣) أن تعليم بناء الشخصية معيب بكل بساطة.

في الحقيقة، ظل تعليم بناء الشخصية سائدًا منذ أيام أفلاطون وحتى منتصف القرن العشرين (كريستيانسون ٢٠٠٢)، وقد انتشر في فترة في الولايات المتحدة، لكن الدراسات التي أجريت في الثلاثينيات أظهرت عدم فعاليته، ومع انتشار فكرة نسبية الأخلاق في الستينيات، تحولت المؤسسات التعليمية إلى المناهج الخالية من القيم التي تتضمن إما شرحًا للقيم أو منهجًا «للاستدلال الأخلاقي» لبناء الشخصية (مورفي ٢٠٠٢). وقد ركز كلاهما على أن الأخلاق ليست مسؤولية المعلم، بل يجب على الطلاب إرساء معاييرهم الأخلاقية الخاصة (ليفنز ١٩٩٧). لم تكن الطريقة الأولى ناجحة، لكن الطريقة الثانية نجحت في غرس مهارات الاستدلال المعرفي (مورفي ٢٠٠٢) وبالتالي كان لها دور في بناء الشخصية.

بدأ تعليم بناء الشخصية يظهر مؤخرًا في مدارس الولايات المتحدة، غير أن المقصود بمصطلح تعليم بناء الشخصية يتفاوت تفاوتًا كبيرًا؛ يراه البعض -كما أشرنا سابقًا- منهجًا آخر لإعداد الطلاب لسوق العمل، ويراه آخرون وسيلة لتيسير إدارة المدارس، عن تجنب ظهور مشكلات تتعلق بالانضباط. يبدأ ليفين إبستين إحدى مقالاته قائلاً: «هل تريد تقليل نسبة تعليق الدراسة والإحالات التأديبية وتحسين المناخ المدرسي بوجه عام؟» (ص ١) في حين ما زال آخرون مهتمين بتأثير تعليم بناء الشخصية على تعلّم الطلاب (ليكونا ٢٠٠٤)؛ أي إن المواد الدراسية ما زالت نقطة تركيز التعليم المدرسي.

ينظر الكثيرون إلى تعليم بناء الشخصية، باعتباره فضيلة مدنية. ربط ويليام بينيت وزير التربية والتعليم القيم المدنية والأخلاقية معًا، مؤكدًا تفوق الولايات المتحدة الأخلاقي على الاتحاد السوفييتي (مُشار إليه في ريتشبورج ١٩٨٨). لا يتحدث فينسون (١٩٩٨) في شكواه ضد بيان موقف المجلس الوطني للدراسات الاجتماعية سوى عن الشخصية المدنية والديموقراطية. يشير مورفي (٢٠٠٢) إلى أن نحو رُبع مدارس بلو ريبون (المدارس الاستثنائية بإقرار وزارة التربية والتعليم الأمريكية) تعرّف تعليم بناء الشخصية بأنه «المواطنة الصالحة». تعتبر ماير (٢٠٠٢) أن الفضيلة المدنية جزء أساسي من أي نظام ديموقراطي لكنها تتجاوز ذلك. ولإيمانها بضرورة إعداد الطلاب للمشاركة في النظام

nesemat.com نسيات nesemat.com

عندما أعدت التفكير في الغاية النهائية من العملية التعليمية، توصلتُ إلى أنه مع الاهتمام بإعداد الطلاب لمستقبلهم المهني، يجب إعدادهم لحياة تستحق أن تُعاش.

الديمقراطي، فإنها تؤكد على ضرورة تواجدهم مع بالغين ومعلمين يبادلونهم الثقة والاحترام.

يرى نحو ثُلث مدارس بلو ريبون أن تعليم بناء الشخصية يركز بشكل أساسي على الأخلاق والقيم (مورفي ٢٠٠٢). "توماس ليكونا" أحد المربّين الذين يرون أن تعليم بناء الشخصية يتعامل في الأساس مع الفضيلة، وهو عالم نفس تنموي وأستاذ التعليم بجامعة ولاية نيويورك في كورتلاند. يسرد ليكونا (٢٠٠٤) عشر فضائل ضرورية هي: الفطنة، والعدالة، وقوة الاحتمال، وضبط النفس، والحب، والرؤية الإيجابية، والعمل الجاد، والنزاهة، والامتنان، والتواضع. ويجب الإشارة إلى أن "ليكونا" أحد القلائل الذين يذكرون فضيلة الحب صراحة.

تغيير شكل التعليم

يرى ريفيل (٢٠٠٢) أن مستوى فعالية برامج تعليم بناء الشخصية ما زال غير واضح. فقد أجرى بحثًا شمل ١٢ مدرسة (سبع مدارس ابتدائية وخمس مدارس ثانوية)، ركز فيه على قضايا المواطنة والهوية. أشار ريفيل إلى ميل طلاب المدارس الثانوية إلى «السخرية أو الارتياب من بعض السمات الشخصية التي ينادي بها تعليم بناء الشخصية»، وخاصة طلاب المدارس غير المتخصصة الذين يتصرفون بطريقة «عدوانية» (ص ٤٢٧-٤٢٨). بالرغم من تشابه البرامج المطبقة في مختلف المدارس، والدعم الكبير الذي يقدمه أولياء الأمور والعاملون في المدارس، تفاوتت رؤية الطلاب لمبادئ هذه البرامج وفقًا لتجاربهم الشخصية في مجتمعاتهم.

من الطبيعي أن تؤثر التجارب على التعلم، لكن هناك عوامل أخرى مؤثرة أيضًا؛ أحدها أنه تكاد لا توجد إشارة إلى تعليم بناء الشخصية في برامج إعداد المعلمين (ميلسون وميليج ٢٠٠٢). لا تتوفر للمعلمين والمدارس سوى معلومات نظرية أو تجارب عملية قليلة جدًّا -إن وُجدت- حول طريقة تطبيق تعليم بناء الشخصية. ومع أن الخبرة شرط أساسي لتدريس «مادة دراسية»، يبدو أنها غير مطلوبة في تعليم بناء الشخصية. ثانيًا، لا يلعب الطلاب أي دور مهم في تحديد طريقة تنمية شخصياتهم. وأخيرًا، يركز كثير من دعاة تعليم بناء الشخصية على الطلاب، ويهملون شخصية العاملين في المدرسة (هناك استثناءات بالطبع مثل ليكونا وماير). وتجدر الإشارة إلى ما قاله هوبنر (١٩٩٩) حول هذه النقطة:

أولاً، يركز الحوار الأخير بشأن القيم الأخلاقية والروحانية في الفصل الدراسي على الجانب الخطأ. يفترض هذا الحوار وجود شيء مميز يمكن أن نطلق عليه وصفًا أخلاقيًا أو روحانيًا، وهذا افتراض خاطئ. فكل شيء يتم في المدارس -وتجهيزًا لأنشطة المدرسة- ممزوج بالفعل بالروحانية. جميع الأنشطة التي تتم في المدرسة لها تبعات أخلاقية. مجرد الإشارة إلى الحاجة لتدريس القيم الأخلاقية والروحانية في المدرسة يوحي بوجود خلل، ليس في الجانب الروحاني والأخلاقي

nesemat.com نسيمات nesemat.com

لا تكمن مشكلة المدارس في أن الأطفال لا يتعلمون القيم الأخلاقية والروحانية، بل المشكلة أن المدارس ليست المكان المناسب لممارسة القيم الأخلاقية والروحانية بأي صورة من الصور المتعمدة.

للطالب، بل في النشاط الأخلاقي والروحاني في المدرسة والقائمين عليها. يحاول القائمون على المدارس إخفاء تواطئهم مع نظام السيطرة المطلقة من خلال المناداة بتدريس القيم الأخلاقية والروحانية. ولا ينادون بتغيير المناخ الأخلاقي والروحاني في المدارس التي يقومون عليها. إن عدم تمتع المعلمين بالحرية للتصرف بطريقة نقدية أو إبداعية دليل على عبوديتهم لأنظمة وسلطات أخرى. لا نحتاج إلى النظر إلى القيم الأخلاقية والروحانية كجزء مستقل عن المنهج والنشاط المدرسي العادي، بل نحتاج إلى التدقيق في المشهد التعليمي لنكتشف كيف يتم رفض الجانب الأخلاقي والروحاني في كل شيء. لا تكمن مشكلة المدارس في أن الأطفال لا يتعلمون القيم الأخلاقية والروحانية، بل المشكلة أن المدارس ليست المكان المناسب لممارسة القيم الأخلاقية والروحانية بأي صورة من الصور المتعمدة (ص ٤١٤-٤١٥).

من الطبيعي أن يسخر الطلاب من برامج تحاول تغيير شخصية الطالب وترفض تغيير شخصية المدرسة. لا شك أن النشاط الأخلاقي والروحاني في المجتمعات مهم أيضًا، وحتى ينجح تعليم بناء الشخصية، يتعين علينا العودة ليس إلى المُثل، بل إلى التطبيق المتعمد للمُثل في المدارس والمجتمعات. وأهم هذه المُثل الحب.

أكد إريك فروم (١٩٥٥) على أهمية الحب من أجل «مجتمع عاقل». بالرغم من صعوبة تعريف مفهوم الحب، اعتبره فروم توجهًا يدفع الشخص للبحث عن مصلحة الآخرين، والاهتمام بهم، وتحمل مسؤوليتهم، واحترامهم (فروم ١٩٥٥، ص ٣٣). وبالمثل اعتبر برتراند راسل (١٩٦١) الحب والمعرفة قيمتين أساسيتين لبناء الشخصية والتقدم: «ليس هناك سوى طريق واحد نحو التقدم، سواء في التعليم أو في شؤون البشر الأخرى، وهو طريق العلم المغلف بالحب. الحب ضعيف بلا علم، والعلم مدمّر بلا حب» (ص ١٥٨).

في غياب الحب، تكون محاولات غرس القيم الشخصية مدفوعة بأهداف تحقيق النجاح المادي، مثل بناء «يد عاملة ماهرة» وتجنب ظهور مشكلات تتعلق بالانضباط. وهذه الأهداف ليست بالضرورة ضارة للتعليم، لكن عندما لا يكون الحب هو المبدأ التوجيهي، فإن محاولات غرس القيم لا تعدو كونها عملية تلقين مصممة لحصاد الطاعة وليس لبناء الشخصية (كولبيرج ١٩٩٩، وكون ١٩٩٩)؛ وهي محاولات غير ناجحة تثير السخرية أو الريبة أو العدوانية.

حتى تنتشر قيمة الحب في المدارس، يجب تغيير فكرة أن المدرسة مصْنع ينظر فيه المعلمون إلى الطلاب كأشياء وليس كأفراد، مصْنع لتقديم المعرفة بدلاً من بناء الشخصية (قارن: هوبنر ١٩٩٩). عوضًا عن ذلك، يجب تشجيع المدارس والمربّين الذين لا يتقنون موادهم الدراسية فحسب، بل ويهتمون أيضًا بطلابهم ويريدون مصلحتهم في كل شؤون حياتهم حتى بعد انتهاء اليوم الدراسي.

nesemat.com نسيات nesemat.com

ليس هناك سوى طريق واحد نحو التقدم، سواء في التعليم أو في شؤون البشر الأخرى، وهو طريق العلم المغلف بالحب. الحب ضعيف بلا علم، والعلم مدمّر بلا حب.

رؤية فتح الله كولن التعليمية

إذا انتقلنا من التعليم في الولايات المتحدة إلى رؤية فتح الله كولن التعليمية، فسنلاحظ بعض نقاط التشابه. كولن (١٩٩٨) -مثله مثل بوستمان ووايتهيد- يشير إلى إخفاق المؤسسات التعليمية نتيجة الانحراف عن القيم والأخلاق البشرية واعتناق قيم النجاح المادي وبناء أجيال «لا تحمل أي مُثل» (ص ١١٠). على سبيل المثال، يتعلم العلماء إيجاد طرق جديدة للسيطرة على الطبيعة وغيرهم من البشر (كولن ٢٠٠٣)، ولأنهم لا يتحملون مسؤولية تبعات أعمالهم، فقد تسببوا في مشكلات عالمية كبرى مثل التلوث البيئي (كولن، مُشار إليه في أجاي ٢٠٠٣). وعلى الصعيد المحلي، انتشر الفساد والطمع، ولن يعم التناغم والتفاهم إلا بعد «مصالحة الجانبين المادي والروحاني» أثناء تنشئة الأجيال الجديدة (كولن ٢٠٠٠).

يؤكد كولن في مختلف كتاباته أن هذه المصالحة تتطلب وجود المعرفة والحب. تأتي المعرفة من العلوم وتمنح الطلاب القدرات الفكرية اللازمة لمساعدة الغير، لكن العلوم وحدها غير كافية لدفع الأشخاص إلى مساعدة غيرهم، لا بد من وجود الحب.

يرى كولن (٢٠٠٢) أن «الحب أهم عنصر من عناصر تكوين الشخص» (ص ٤١). «الحب الذي يقصده كولن هو حب التضحية بالنفس والمبادرة بالأفعال، طاعة لله واهتمامًا بالآخرين وليس طمعًا في منفعة شخصية أو من منطلق حسابات نفعية لسعادة الشخص.. يستتبع هذا الحب التضحية بالنفس ونكران الذات والقناعة الشخصية بتغيير شكل الحياة على الأرض» (يافوز ٢٠٠٣، ص ٣٤، راجع أيضًا أوزدالجا ٢٠٠٣ أ و٢٠٠٣ ب). هذا هو الحب الذي يصلح أن يكون أساس أي جهود تربوية.

وبالتالي ليس كل المعلمين مربّين. يتفق فتح الله كولن (٢٠٠٤) مع راسل (١٩٦٧) وهوبنر (١٩٩٩)، ويشدد على أن «التعليم يختلف عن التدريس. يستطيع أغلب الناس التدريس، لكن قلة فقط تتقن التعليم» (ص ٢٠٨). بعبارة أخرى، التدريس ليس إلا نقلاً للمعلومات. أما التعليم فيشمل تقديم المعرفة وينطوي على حب التضحية والتوجيه الأخلاقي:

يزرع المعلم الحقيقي البذور النقية ويحافظ عليها، ويشغل نفسه بما هو جيد ومفيد، ويقود الأطفال ويوجههم في الحياة ومختلف المواقف التي يتعرضون لها. (كولن ٢٠٠٤، ص ٢٠٨)

لهذا فإن التعليم عمل «مقدس»، ومساعدة الطلاب على تنمية قدرتهم على إحداث تغيير إيجابي هي «المهمة الأسمى» للمعلم (كولن ١٩٩٨، ٢٠٠٤). المعلم مسؤول عن تقديم المعرفة، والتحلي بالفطنة لاستخدامها، وتوفير التوجيه الأخلاقي ليس من خلال تلقين القيم، بل عبر تجسيد الروحانية والحب.

الغاية النهائية وراء رؤية كولن التعليمية هي تنشئة «الجيل الذهبي»، وهم أفراد مثاليون متمسكون بالصدق، يجمعون بين العلم والدين، ويعملون على نفع المجتمع (كولن ١٩٩٨).

nesemat.com نسيمات nesemat.com

عندما لا يكون الحب هو المبدأ التوجيهي، فإن محاولات غرس القيم لا تعدو كونها عملية تلقين مصممة لحصاد الطاعة وليس لبناء الشخصية.

أي شخص من هؤلاء يوصف بأنه "يملك جناحين» (zul-cenaheyn)، وانعكاس ثمرة «زواج العقل والقلب" (كولن ١٩٩٦ ب)، وامتزاج القيم الأخلاقية العامة بالعلم والمعرفة الحديثة (كولن ٢٠٠٤) لإفراز «أشخاص متنورين بصدق» (ميشيل ٢٠٠٣، كولن ١٩٩٦ أ)، يقومون بخدمة الآخرين بدافع الحب (كولن ٢٠٠٠، يلدريم وكرمزيالتن ٢٠٠٤).

المدارس المستوحاة من رؤية كولن

شجعت هذه الرؤية كولن وأتباعه على بدء مشروع حماسي في بداية الثمانينيات لبناء مؤسسات تعليمية في جميع أنحاء العالم. وبالفعل تم تأسيس مئات المدارس وسبع جامعات في تركيا وغيرها من الدول.

تشترك هذه المؤسسات مع غيرها من المدارس في المنهج الدراسي والمواد التعليمية. جميع المختبرات وأجهزة الكمبيوتر المستخدمة في صفوف العلوم واللغة على أحدث مستوى، وجودة التعليم ممتازة (أجاي ٢٠٠٣، وبالجي ٢٠٠٣، وأوزدالجا ٢٠٠٠، ويافوز ٢٠٠٣). يتحدث عنها توماس ميشيل (٢٠٠٣)، سكرتير الأمانة اليسوعية للحوار بين الأديان وأمين عام مؤتمرات اتحاد أساقفة آسيا، مشيرًا إلى أداء الطلاب الاستثنائي في المسابقات الأكاديمية في العلوم الطبيعية وعلوم المعلومات واللغات، ويرى أنها «من بين أكثر المؤسسات التعليمية نشاطًا وجدارة ... في العالم» (ص ٧٠).

تتميز هذه المدارس أيضًا بأخلاقيات المعلمين والعاملين فيها. على سبيل المثال، تقع مدرسة التسامح الفلبينية التركية في مدينة نصف سكانها مسيحيون والنصف الآخر مسلمون. يقول ميشيل (٢٠٠٣): "إن المدرسة تقدم لما يزيد عن ألف طالب بدائل ووسائل إيجابية للتعامل بعيدًا عن العنف الذي تستخدمه القوات العسكرية والبرلمان". ويشير إلى أن المدرسة لها نصيب من اسمها، لأنها حصن من التسامح وسط منطقة استقطاب ديني في الفلبين، وهي تحافظ على علاقات ممتازة مع المؤسسات المسيحية في المنطقة.

ومن الأمثلة الأخرى مدارس كولن في ألبانيا. يوضح أجاي (٢٠٠٣) أنه نظرًا لأن ألبانيا «أسست هويتها الوطنية على نقيض الإمبراطورية العثمانية» (ص ٤٤)، فإنها لا ترغب في الترويج للقومية التركية أو الإسلام في مدارسها. ومع ذلك حصلت المدارس على اعتماد الحكومة وموافقة العامة بفضل مستواها التعليمي الممتاز وتركيزها على العلوم وقيمها العامة.

أجرت أوزدالجا (٢٠٠٣ب) مقابلات مع المعلمات في العديد من هذه المدارس، ووجدت أنهن يشتركن في قيم معينة: «الحب (الحب العام الذي يشمل كل الإنسانية)، والتقوى، والتواضع، والنقد الذاتي، والنشاط المجتمعي (وليس السياسي)، والاحترافية المهنية (في التعليم)» (ص ٦٣). ومن القيم الأخرى التي تعتنقها المعلمات تجنب الصراع

nesemat.com نسيات nesemat.com

حتى تنتشر قيمة الحب في المدارس، يجب تغيير فكرة أن المدرسة مصْنع ينظر فيه المعلمون إلى الطلاب كأشياء وليسوا أفرادًا، مصْنع لتقديم المعرفة بدلاً من بناء الشخصية.

و"الحفاظ على علاقات سلمية" (ص ٦٩). من الطبيعي أن تؤدي هذه القيم إلى تسامح الحركة وتقبلها للتقاليد والأديان الأخرى، وبدلاً من إلقاء المحاضرات حول القيم أو تعليم مبادئ الإسلام، فإن المعلمات ينقلن قيمهن من خلال «ضرب المثل الحي بأفعالهن» (أوزدالجا ٢٠٠٣ أ، ص ٨٦).

تغيير الشخصية

يؤكد كولن (٢٠٠٤) أن «المدرسة يجب أن تكون في أكمل صورة» (ص ٢٠٦-٢٠٧) سواء على الصعيد الأكاديمي أو الأخلاقي. تتفوق المدارس المستوحاة من رؤية كولن، في الجانب الأكاديمي لأن المعلمين والمعلمات يسعون إلى الكمال، ليس فقط في إتقان موادهم الدراسية، بل أيضًا في منح طلابهم الحب والاهتمام وتنمية شخصياتهم وشخصيات طلابهم، لتغيير الآخرين يجب على الشخص أن يغير نفسه في البداية، و«ضرب المثل الجيد» أحد المكونات الأساسية لعملية التغيير.

غير أنه يجب على المدرسة ألا تقتصر على تقديم «المثل الجيد» عند محاولة تنمية شخصية طلابها. فبناء الشخصية وتنميتها لا يختلف عن أشكال التعلم الأخرى. يمكن تعريف التعلّم، سواء نظرنا إليه من منظور معرفي أو اجتماعي ثقافي أو بنائي اجتماعي، بأنه عملية فعالة لبناء المعرفة وإرساء الممارسات (مثل: ديفريز وزان ٢٠٠٥، إنجستروم ١٩٨٧، ليف ووينجر ١٩٩١، بياجيه ١٩٨٥، فيجوتسكي ١٩٧٨، فون جلاسرسفيلد ١٩٩٥). صحيح أن القدر الأكبر من التعلم يبدأ بالملاحظة (قارن: باندورا ١٩٧٧)، لكن الملاحظة بوجه عام يجب أن يتبعها فعل ليحدث التعلم (قارن: كولن ١٩٩٨، ص ٩٩).

بالنظر إلى أنشطة مجتمع كولن، نجد أن أتباعه لا يكتفون بملاحظة المثل الأخلاقي الذي يضربه فتح الله كولن، بل إنهم يقرأون ويدرسون ويناقشون ويتفكرون في كتاباته وكتابات سعيد النورسي وآيات القرآن. كذلك فإنهم يتصرفون وفقًا لما يعرفونه، ويطبقون معارفهم في أفعالهم، كما يفعل رجال الأعمال الذين يؤسسون المدارس ويدعمونها، والمعلمون الذين يقدمون تضحيات كبيرة بمغادرة تركيا والسفر إلى دول أخرى.

إن أنشطة مجتمع كولن تجسد تعاليمه الخاصة بالتعلم وتغيير الشخصية، وهي تعاليم تؤكد الحاجة إلى أداء فعل يوجّهه التفكير والنية.

الفعل في رأي كولن (١٩٩٦ب) «يجب أن يكون أكثر عنصر لا يمكن الاستغناء عنه في مستقبل حياتنا» (ص ٨٥). يرى كولن أن أداء فعل يعني السعي باستمرار لتحقيق الأهداف الشخصية في خدمة الآخرين، وهو أمر ضروري للحفاظ على الهوية الذاتية دون أن تتأثر بالآخرين.

لا بد أن يوجه التفكير تلك الأفعال، يشدد فتح الله كولن على حاجة الأشخاص «إلى مراجعة وإعادة تقييم الآراء السائدة حول الإنسان والحياة والكون»

يجب تشجيع المدارس والمربّين الذين لا يتقنون موادهم الدراسية فحسب، بل ويهتمون أيضًا بطلابهم ويريدون مصلحتهم في كل شؤون حياتهم حتى بعد انتهاء اليوم الدراسي.

(كولن ١٩٩٨، ص ٨، النص الأصلي مائل). يساعد التفكير الأشخاص على وضع أهداف واضحة، بل إنهم بحاجة إلى ذلك إذا أرادوا «تجنب الغرق في سيل من الأفكار» (كولن ٢٠٠٠، ص ٦٤). إذا قام «مؤسسو المؤسسات ومديروها بتذكير أنفسهم باستمرار بالسبب وراء تأسيس هذه الكيانات، فلن تحيد جهودهم عن الهدف، بل ستظل مثمرة» (ص ٦٥)، وتنجح أكثر في تغيير شخصية الطلاب.

والتفكير يمهد الطريق للنية التي يقول عنها كولن (١٩٩٨): «تنشأ العقول وتنمو الشخصيات السليمة من الأفكار والنوايا الخالصة» (ص ٣٣). النية في الواقع «واحدة من أهم مبادئ الدين الإسلامي» (جولدتسيهر ١٩٨١، ص ٤٢). ولا شيء يدل على أهميتها أكثر من ذكرها في أول حديث في صحيح البخاري: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى» (ص ٤٩). بعبارة أخرى، النية هي التي تحدد طبيعة الفعل، حتى في النظام القضائي المدني، النية هي التي تفرق بين القتل المتعمد والقتل غير المتعمد على سبيل المثال. وإذا قام الشخص بفعل في الدين الإسلامي دون «وجود نية للقيام به، فإنه ليس مقبولاً عند الله» (كولن ٢٠٠٥، ص ١٠٣). والمعنى الكامن وراء هذه السطور أن التصرف الأخلاقي لا يكفي وحده، بل يجب أن تكون وراءه نية.

العلاقة بين النية والفعل مهمة جدًا. تفترض خواريرو (١٩٩٩) أن الأفعال «مسارات سلوكية مقيدة من أولها إلى آخرها بالنية» (ص ١٥١). يأتي السلوك -إرساء المعنى والقيم الأخلاقية والمعتقدات- نتيجة عملية منظمة ذاتيًا لسابق تفاعلات الشخص المتبادلة مع بيئته، وهي عملية تستتبع وجود علاقات متبادلة بين النية والفعل، وبين الفرد والمجتمع. إذا لم تخضع النية للتنظيم أو لم يتبعها الفعل، فسوف يتبع الشخص أفكار ونوايا وأفعال الآخرين (كولن ١٩٩٨، ص ٨٥). أي إن الأشخاص يمتثلون لبيئتهم الاجتماعية ما لم يعتزموا بصورة متعمدة خلاف ذلك.

بخلاف الأسرة والمدرسة، تضم بعض أمثلة البيئة المحيطة بالطلاب في الولايات المتحدة أطماع الشركات والفضائح السياسية والغش المنتشر على نطاق واسع (يحقق النجاح غالبًا). وتستطيع الضغوط الاقتصادية والاجتماعية وضغوط الأقران أن تقوض تأثير النماذج الأخلاقية الجيدة. أضف إلى ذلك أنه كما تستطيع خبرات الطلاب السابقة تشويه فهمهم للنصوص الأخلاقية (نارفاييز ٢٠٠١)، تشكّل المؤثرات البيئية طريقة فهمهم للنماذج الأخلاقية. وبالتالي يحتاج الطلاب أن يتعلموا ليس فقط معارف المواد الدراسية بل أيضًا التفكير الأخلاقي والفعل المتعمد. كتب كولن (٢٠٠٤) ما يلي حول هذه النقطة: «صحيح أن العلم قيمة في ذاته، لكن هدف التعليم هو أن تصبح المعرفة دليلاً مرشدًا في الحياة وأن تنير الطريق إلى الكمال البشري» (ص ٢٠٦).

nesemat.com نسيات nesemat.com

الحب الذي يقصده كولن هو حب التضحية بالنفس والمبادرة بالأفعال، طاعة لله واهتمامًا بالآخرين وليس طمعًا في منفعة شخصية أو من منطلق حسابات نفعية لسعادة الشخص.

لتصبح «المعرفة دليلاً مرشدًا»، يتعين على الطلاب تنمية قدرتهم على التفكير الأخلاقي. وإحدى النتائج التي توصلت إليها عمليات البحث أن بيئة الحوار المفتوح تشجع الطلاب على تنمية قدرتهم على التفكير في المعضلات الأخلاقية التي تضع الأطفال في مواقف تتعارض فيها بنيتهم الأخلاقية مع البنيات الأكثر تطورًا (كولبيرج ١٩٩٩).

إلى جانب دراسة الطلاب المعضلات الأخلاقية لتنمية مهارات التفكير، يمكنهم دراسة القصص ومناقشتها. ليست القصص فكرة جديدة. فقد تم استخدام ملحمتي الإلياذة والأوديسا لهومر في تعليم التراث والقيم. كما قام روجر شانك -وهو باحث دولي معروف في مجال الذكاء الاصطناعي والعلوم المعرفية ونظريات التعلم- بتأسيس شركة (Socratic Arts) التي تستعين بالقصص في تصمم المناهج الدراسية. أما «جلوبال سيناريوز» التي تستخدمها شركة «شل إنترناشونال»، فهي قصص مصممة لمساعدة المدراء على اتخاذ القرارات. يرى يافوز (٢٠٠٣) أن فتح الله كولن أفضل راوي قصص دينية في تركيا.

تنجح القصص في تنمية مهارات التفكير الأخلاقي لأنها «تعيد ابتكار الديناميكيات المباشرة غير المتوقعة للعمليات الواقعية التي تسعى لشرحها» (خواريرو ٢٠٠٢، ص ٢٤١)، وبالتالي تكون لديها القدرة على تحدي القراء لإعادة النظر في الأفكار المألوفة ورؤيتها من منظور جديد. ولا يسري ذلك على كل القصص، بل يجب أن تكون القصص ذات نهاية مفتوحة، وأن تثير مناقشات تأملية عميقة بدلاً من مجرد التلقين.

تؤكد بعض الأبحاث على دور القصص في تنمية التفكير الأخلاقي. يشير ليمنج (٢٠٠٠) إلى نجاح برنامج بناء شخصية قائم على الأدب في تنمية المهارات المعرفية لدى طلاب المرحلة الابتدائية، في حين جاءت «النتائج مختلطة» فيما يتعلق بالتأثير الوجداني والسلوك. يقول كولبيرج (١٩٩٩) إن التفكير ضروري لإصدار حكم أخلاقي، والحكم الأخلاقي مهم للقيام بفعل أخلاقي، لكن التفكير والحكم الأخلاقيين ليسا كافيين للقيام بالسلوك الأخلاقي. أي إن الشخص قد يستطيع إصدار الحكم الصحيح على موقف معين بناء على المبادئ الأخلاقية، ومع ذلك لا يقوم بالفعل الأخلاقي.

حتى تصبح التصرفات الأخلاقية روتين حياة، يجب أن تترسخ المبادئ الأخلاقية في ذات الفرد. ومن هذا المنظور، ندرك أهمية نظرية التقرير الذاتي (SDT). ترى النظرية أنه حتى يسعى الفرد وراء القيم الأخلاقية، ويعتنقها حتى تترسخ في ذاته، يجب أن يكون سلوكه نابعًا من ذاته، ولا بد أن تشبع البيئة احتياجاته النفسية للكفاءة والاختيار الذاتي والعلاقات بالآخرين. ومعنى الاختيار الذاتي «ممارسة التكامل والحرية» بإرادة، ومعنى العلاقات بالآخرين «الرغبة في الشعور بالترابط مع الآخرين؛ أي منحهم الحب والاهتمام وتلقيه منهم» (ديسي وريان ٢٠٠٠، ص ٢٣١).

يزرع المعلم الحقيقي البذور النقية ويحافظ عليها. ويشغل نفسه بما هو جيد ومفيد، ويقود الأطفال ويوجههم في الحياة وفي مختلف المواقف التي يتعرضون لها.

nesemat.com نسمات nesemat.com

لـن يركـز هـذا البحـث علـى استكشـاف كل جوانـب نظريـة التقريـر الذاتـي وتطبيقاتهـا فـي مـدارس كولـن، لكـن إذا نظرنا إلى مؤيـدي كولن، فسـنلاحظ أنهـم يمارسـون التقرير الذاتـي ويؤدون الأفعـال بإرادتهـم مدفوعيـن بحبهـم للبشـرية. وبالمثـل، نتوقـع عنـد محاولـة بنـاء الشـخصية أن يبـادر الطلاب بـأداء الفعـل ليتكامل مـع تفكيرهم الأخلاقـي النابـع مـن هويتهـم والحب المتجسـد فـي معلميهم.

لا شك أن النزعة الأخلاقية الكامنة في مجتمع مـن الأشـخاص الذيـن يحبـون البشـرية، عنصر جوهـري لتنشـئة الجيـل الذهبي. هنـاك حاجة لإلقاء مزيـد مـن الضوء على طرق دمـج التفكير الأخلاقي والأفعـال المتعمـدة والتقرير الذاتي فـي المدارس، مـع مراعاة ما يلي:

١- التفكير والاستدلال والحكم الأخلاقي أمور ضرورية لتوجيه النية بطريقة مناسـبة، وبالعكس فإن الفعل ضروري لجلب النية.

٢- غـرس المبـادئ الأخلاقيـة فـي الشـخصية، يتطلب القيام بأفعال متعمدة نابعة من التقرير الذاتي في بيئة مليئة بالحب.

الخاتمة

تأثـر الكثيـرون برؤيـة فتـح الله كولـن، وبذلـوا الجهد والمال لتأسـيس مدارس ممتازة. ما السـبب وراء ذلـك؟ ليس لأنه يقدم شـيئًا جديدًا أو مختلفًا، بل أتصور أن السـبب يكمـن جزئيًا في توليفة مثالية مـن الوقت والمكان والسـياق، وجزئيًـا في فتح الله كولـن نفسـه. فجميـع قصصـه وتعاليمـه والنموذج الأخلاقـي الـذي يجسـده يلهـم الآخريـن لاتخـاذ موقـف، والتضحيـة، وخدمـة البشـرية عوضًـا عـن خدمـة أنفسـهم. يقول كولـن (٢٠٠٠):

«يجـب علـى أفـراد الخدمـة أن يتحلـوا بالعزيمة والإصـرار، من أجل القضية التي وهبوا لها حياتهم، وأن يتجاوزوا بحور الدم والصديد». (ص ٨٣)

«أن يفضلوا القضية المقدسـة على كل الرغبات الدنيويـة والحيوانيـة؛ وأن يثبتوا علـى الحق بعد أن تـم اكتشـافه إلـى الحـد الـذي يجعلهـم يضحـون بـكل متعلقاتهـم الدنيويـة مـن أجلـه، وأن يتحملوا كل الصعـاب لتعيـش الأجيـال القادمة في سـعادة، وأن يبحثـوا عـن السـعادة ليس فـي المتـع المادية أو الروحانيـة بل في سـعادة ورفاهـة الآخرين، وألا يسـعوا إلى شـغل أي مناصب أو احتـلال مكانات، وأن يمنحـوا أنفسـهم الأولوية فـي أداء العمل، وأن يمنحـوا الآخريـن الأولويـة فـي تلقي الأجـر؛ هذه هـي المبـادئ الأساسـية للطريـق المقـدس لخدمة الحـق». (ص ٨٤)

مثـل هـذه التضحيـة تلهـم المربّيـن أن يسـعوا جاهديـن لتحسـين شـخصياتهم وحـب طلابهـم، وهـو مزيـج من شـأنه تغيير الطلاب ومسـاعدتهم علـى عيـش حيـاة تسـتحق أن تُعـاش.

توحـي الاكتشـافات التـي توصلـت إليهـا الأبحـاث التعليمية وتعاليم فتـح الله كولن الخاصة

nesemat.com نسيات nesemat.com

الغاية النهائية وراء رؤية كولن التعليمية هي تنشئة "الجيل الذهبي"، وهم أفراد مثاليون، متمسكون بالصدق، يجمعون بين العلم والدين، ويعملون على نفع المجتمع.

بالنية والفعل بأنه في حين يلعب المربّون المتأثرون برؤية كولن دورًا مهمًّا جدًّا في ضرب المثل في الحب والمعرفة، يمكنهم أخذ خطوة إضافية وإشراك الطلاب في الأفكار والأفعال الأخلاقية النابعة من تقرير الذات. من خلال التفاعل بين بيئة المدرسة المليئة بحب التضحية، وممارسة الطلاب الإرادية للتفكير الأخلاقي، وأداء الأفعال بإرادتهم سوف تتحقق رؤية كولن السامية في الولايات المتحدة، المتمثلة في تنشئة الجيل الذهبي.

المراجع

- بي أجاي (٢٠٠٣)، الأخلاقيات الإسلامية في التعليم بحسب حركة كولن، في إم هاكان يافوز وجون إل إسبوزيتو (محرران)، «الإسلام التركي والدولة المدنية: حركة كولن» (ص ٤٨-٦٨)، سيراكيوز، نيويورك، مطبعة جامعة سيراكيوز.
- بي بالجي (٢٠٠٣)، مدارس فتح الله الدعوية في وسط آسيا ودورها في نشر التركية والإسلام، «الدين والدولة والمجتمع ٣١»، ص ١٥١-١٧٦.
- ألبرت باندورا (١٩٧٧)، «نظرية التعلم الاجتماعي»، إنجلوود كليفس، نيويورك: دار نشر «برينتس هول».
- إم بلين وإل ريفيل (٢٠٠٢)، أنماط التعليم الديني والأخلاقي في المدارس الدينية والعامة في شيكاجو، جريدة Journal of Beliefs and Values، العدد ٢٣، ص ١٧٩-١٨٩.
- سليتوس آر بولاش (٢٠٠٢)، «تطبيق منهج تعليم بناء الشخصية وتقييم تأثيره على سلوك الطلاب»، جريدة The Clear-ing House، العدد ٧٦ (٢)، ص ٧٩-٨٦.
- إم ديفيس (٢٠٠٣)، «ما عيوب تعليم بناء الشخصية؟»، جريدة American Journal of Education، العدد ١١٠، ص ٣٢-٥٧.
- إدوارد إل ديسي وريتشارد إم ريان (٢٠٠٠)، «ماذا ولماذا عند السعي وراء الأهداف: الاحتياجات البشرية والتقرير الذاتي للسلوك»، جريدة Psychological Inquiry، العدد ١١، ص ٢٢٧-٢٦٨.
- روبرت دي ديفريز وبي زان (٢٠٠٥)، «نظرة بنائية حول دور البيئة الاجتماعية الأخلاقية في تشجيع نمو الأطفال»، في كاثرين تووم فوسنوت (محررة)، «البنائية: النظرية والمنظور والممارسة» (الطبعة الثانية) (ص ١٣٢-١٤٩)، نيويورك: مطبعة كلية المعلمين.
- أريو إنجستروم (١٩٨٧)، «التعلم بالتوسع: منهج نظري قائم على الأنشطة نحو البحث التنموي»، هلسنكي: دار نشر «أورينتا كونسولتيت».
- إجناتس جولدتسيهر (١٩٨١)، «مقدمة في أصول الدين الإسلام والقانون» (ترجمة ألف وآر هاموري)، برينستون، نيويورك: مطبعة جامعة برينستون.
- جوان إف جودمان (١٩٩٨)، «الأوصاف الأخلاقية وتقييم الأطفال»، جريدة Journal for Moral Education، العدد ٢٧، ص ٤٧٥-٤٨٧.
- فتح الله كولن (١٩٩٦أ)، «الموازيين أو أضواء الطريق»، المجلد ١، (الطبعة التاسعة)، إزمير.
- فتح الله كولن (١٩٩٦ب)، «نحو الفردوس المفقود»، لندن، دار نشر «تروستار».
- فتح الله كولن (١٩٩٨)، «نحو الفردوس المفقود» (الطبعة الثانية)، كوناك، إزمير، تركيا: دار نشر «كايناك».
- فتح الله كولن (٢٠٠٠)، «لآلئ الحكمة»، فيرفاكس، فرجينيا: «ذي فاونتن».
- فتح الله كولن (٢٠٠٢)، «مقالات وتوجهات وآراء»، راذرفورد، نيويورك: «ذي لايت».
- فتح الله كولن (٢٠٠٤)، «نحو حضارة عالمية قائمة على الحب والتسامح»، سومرست، نيويورك: دار نشر «ذي لايت».
- فتح الله كولن (٢٠٠٥)، «رسول الله: محمد» (نسخة مراجعة)، سومرست، نيويورك: دار نشر «ذي لايت».
- دوين هوبنر (١٩٩٩)، «جاذبية السمو: مجموعة مقالات لدوين إي هوبنر»، ماهواي، نيويورك: دار نشر «لورنس إرلبوم أسوشيتس».
- أليشيا خواريرو (١٩٩٩)، «الديناميكيات الفعالة: السلوك المتعمد بوصفه نظامًا معقدًا»، كامبريدج، ماساشوستس، طبعة «برادفورد بوك»، مطبعة معهد ماساشوستس للتكنولوجيا.
- لورنس كولبيرج (١٩٩٩)، «نهج التطور المعرفي نحو التعليم الأخلاقي»، في ألان سي أورنستين وليندا إس بيهار هورنستين (محررون)، «قضايا معاصرة في المنهج الدراسي» (الطبعة الثانية)، ص ١٦٣-١٧٥، بوسطن: دار نشر «ألين وبيكون».
- ألفي كون (١٩٩٩)، «فحص نقدي لتعليم بناء الشخصية»، في ألان سي أورنستين وليندا إس بيهار هورنستين (محررون)، «قضايا معاصرة في المنهج الدراسي» (الطبعة الثانية) ص ١٧٦-١٩٢، بوسطن: دار نشر «ألين وبيكون».
- كريستيان كريستيانسون (٢٠٠٢)، «دفاعًا عن تعليم بناء الشخصية غير الشامل»، جريدة Journal of Philosophy of Edu-cation، العدد ٣٦ (٢) ص ١٣٥-١٥٦.
- كريستيان كريستيانسون (٢٠٠٤)، «ما وراء العدالة الديمقراطية: شكوك إضافية حول تعليم المواطنة»، جريدة Journal of Philos-ophy of Education، العدد ٣٨ (٢) ص ٢٠٧-٢١٩.

- جين ليف وإتيان وينجر (١٩٩١)، «التعلم الموقفي: مشاركة ثانوية حقيقية»، كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج.
- جيه إس ليمنج (٢٠٠٠)، «أخبرني قصة: تقييم لبرنامج تعليم بناء الشخصية قائم على الأدب»، جريدة Journal of Moral Education، العدد ٢٩ (٤) ص ٤١٣-٤٢٧.
- ليفين إيستين (محرر) (٢٠٠٢)، «المدارس الإعدادية «تكتشف» برامج بناء الشخصية، وتحصد الثمار»، جريدة Principal Pro، العدد ١٥ (١) ص ١-٤.
- توماس ليكونا (٢٠٠٤)، «الشخصية مهمة: كيف نساعد أطفالنا على تنمية الحكم السليم والنزاهة وغيرها من الفضائل الأساسية»، نيويورك: دار نشر «سيمون وشوستر».
- توماس ميشيل (٢٠٠٣)، «فتح الله كولن المربّي»، في إم هاكان يافوز وجون إل إسبوزيتو (محرران)، «الإسلام التركي والدولة العلمانية: حركة كولن»، سيراكيوز، نيويورك: مطبعة جامعة سيراكيوز.
- إيه ميلسون وإل ميهليج (٢٠٠٢)، «إحساس الفعالية لدى معلمي المدارس الابتدائية في تعليم بناء الشخصية»، جريدة Journal of Educational Research، العدد ٩٦، ص ٤٧-٥٣.
- إم إم مورفي (٢٠٠٢)، «تعليم بناء الشخصية في مدارس بلو ريبون الأمريكية: الممارسات المثلى لمواجهة التحدي»، (الطبعة الثانية)، لانهام، ماريلاند: مطبعة «سكيركرو».
- دارسيا نارفاييز (٢٠٠١)، «فهم النص الأخلاقي: تبعات التعليم والبحث»، جريدة Journal of Moral Education، العدد ٣٠، ص ٤٣-٥٤.
- «أمة في خطر» (١٩٨٣)، «اللجنة الوطنية للتميز في التعليم»، تم الوصول عبر الإنترنت http://www.ed.gov/pubs/NatA-tRisk/index.html.
- إيرول أوزدالجا (٢٠٠٠)، «الزهد الدنيوي في الإسلام: زهد ونشاط فتح الله كولن»، جريدة Critique، العدد ١٧ ص ٨٤-١٠٤.
- إيرول أوزدالجا (٢٠٠٣أ)، «ثلاث معلمات تحكين قصتهن»، في إم هاكان يافوز وجون إل إسبوزيتو (محرران)، «الإسلام التركي والدولة المدنية: حركة كولن» (ص ٨٥-١١٤)، سيراكيوز، نيويورك، مطبعة جامعة سيراكيوز.
- إيرول أوزدالجا (٢٠٠٣ب)، «توجهات علمنة في حركة فتح الله كولن: مأزق أم فرصة لمزيد من التجديد»، جريدة Critique: Critical Middle Eastern Studies، العدد ١٢ ص ٦١-٧٣.
- جان بياجيه (١٩٨٥)، «موازنة الهياكل المعرفية» (١٩٧٥)، (ترجمة تي براون وكيه جيه ثامبي)، شيكاجو: مطبعة جامعة شيكاجو.
- نيل بوستمان (١٩٩٥)، «نهاية التعليم: إعادة تعريف قيمة المدرسة»، نيويورك: دار نشر «ألفريد نوبف».
- لين ريفيل (٢٠٠٢)، «استجابات الأطفال لتعليم بناء الشخصية»، جريدة Educational Studies، العدد ٢٨ ص ٤٢١-٤٣١.
- كيث بي ريتشبورج (٢٢ سبتمبر ١٩٨٨)، «بينيت يؤيد خطة درس التفوق الأخلاقي»، صحيفة The Washington Post، تم الوصول عبر EBSCO.
- برتراند راسل (١٩٦١)، «تعليم بناء الشخصية»، نيويورك: دار نشر «فيلوسوفيكال لايبريري».
- برتراند راسل (١٩٣٢ / ١٩٦٧)، «التعليم والنظام الاجتماعي»، لندن: دار نشر «جورج ألين وأنوين» المحدودة.
- الطلاب الذين يتركون المدرسة يفتقرون إلى مهارات القراءة والكتابة والرياضيات، (٢١ أغسطس ٢٠٠٥)، بي بي سي نيوز، تم الوصول عبر الإنترنت يوم ٢١ أغسطس ٢٠٠٥ عبر موقع بي بي سي نيوز: http://news.bbc.co.uk/go/pr/fr/-/1/hi/educa-tion/4170336.stm.
- جيف سيلينجو (٢٠٠٤)، «ثقافة الغش»، مجلة Prism Maga-zine، العدد ١٤ (١)، تم الوصول عبر الإنترنت يوم ٢٠ أغسطس ٢٠٠٥ عبر الموقع: http://www.prismmagazine.org/sept04/feature_cheating.htm.
- إي شاكر (١٩٩٨)، «معرفة المزيد حول تجارة التعليم»، مشروع تعليم المركز الكندي للسياسات البديلة، تم الوصول يوم ١ يونيو ٢٠٠٥ عبر موقع CorpWatch: http://www.watch-corp.org.
- «مختصر صحيح البخاري»، (١٩٩٤) (ترجمة محمد محسن خان، تأليف الزبيدي)، الرياض، المملكة العربية السعودية: مكتبة دار السلام.
- إم هاكان يافوز (٢٠٠٣)، «حركة كولن: الأتراك المتشددون»، في إم هاكان يافوز وجون إل إسبوزيتو (محرران)، «الإسلام التركي والدولة المدنية: حركة كولن» (ص ١٩-٤٧)، سيراكيوز، نيويورك، مطبعة جامعة سيراكيوز.
- كيه دي فينسون (١٩٩٨)، «معضلات تعليم بناء الشخصية والفضيلة المدنية: استجابة نقدية لبيان موقف المجلس الوطني للدراسات الاجتماعية»، جريدة Social Education، العدد ٦٢ (٢)، ص ١١٢-١١٥.
- إرنست فون جلاسرسفيلد (١٩٩٥)، «البنائية الثورية: طريقة للمعرفة والتعلم» (المجلد ٦)، لندن: دار نشر «فالمر».
- ليف فيجوتسكي (١٩٧٨)، «عقل المجتمع: تطور العمليات النفسية العليا»، كامبريدج، ماساشوستس: مطبعة جامعة هارفارد.
ألفريد نورث وايتهيد (١٩٢٩)، «أهداف التعليم ومقالات أخرى»، نيويورك: دار نشر «ماكميلان».
- واي يلدريم وإس كرمزيالتن (٢٠٠٤)، «الجيل الذهبي: مصالحة الهوية الإسلامية والحداثة عبر التعليم»، ورقة بحثية مقدمة في المؤتمر السنوي الثالث والثلاثين لرابطة علماء الاجتماع المسلمين (٢٤-٢٦ سبتمبر ٢٠٠٤)، جامعة جورج ماسون، واشنطن العاصمة.

التقوى طريق التقدم

مجالس دروس النساء في حركة الخدمة

هنـاك رأي قائـل إن مواكبـة العصر هـي الطريق الأوحد للتقدم، والعلمنة هي السبيل الوحيد إليها، وإن الإسلام يدعو إلى الجمود والجهل والاسـتبداد، كغيره من الأديان. انتشر هذا الـرأي بين مؤيـدي الكمالية -أفكار مصطفى كـمال أتاتورك في تركيـا- وغيرهم من «العلمانيين الأحرار» المنتشرين في العالم الإسلامي. بدأت مجموعة متزايدة من الرجال والنساء المسلمين تشـكك في هذا الفصـل منذ ثمانينيات القـرن العشرين. فهم يـرون أن الإيمان والتقـوى مصدرا الهداية والقـوة، لهذا بدأوا في إعادة إحياء قيم إسلامية مثل المساواة والعدالة الاجتماعية والتعليم والتقدم بوصفها وسـائل للإصلاح المجتمعي. يحاول مؤيـدو حركة الخدمـة، كغيرهم من ا لإسـلاميين والصوفيين المعاصرين، استكشـاف وسـائل نـشر السـلام والتفاهم عبر التثقيف والحوار مع المسلمين وغير المسلمين. في حين يواصل «العلمانيـون الأحـرار» في تركيا جهود معارضة إسـتراتيجيات كولن، زاعمين أنها غطاء لخطة سرية تسـعى لبناء دولة إسلامية تشـيع الاضطهاد، ولا سـيما تجاه النسـاء. وفي المقابل، نجد أعدادًا متزايدة من الدراسات حول أثر تعاليم كولن على مؤيدي الخدمة من النسـاء، والتي تكشف أن بعضهن عثرن على هدف حياتهن، وصنعن مسـيرتهن في مدارس كولن (أوزدالجا، ٢٠٠٠)، كما بـادرت بعضهـن بالتحاور مـع شركاء حياتهـن والتفاوض معهـم لإدخـال تغييرات عـلى حياتهن الشـخصية وعلاقاتهن (ستيفنسـون، ٢٠٠٥). يشـارك هذا البحث في تلك الدراسـة من خـلال التحقق مـن أهمية مجالس الـدروس (sohbetler) التي تُعقد أسبوعيًّا في مدينة كانسـاس لمؤيدي الخدمة من النساء. تتقـصى الدراسـة آراء النسـاء حول دور الإيمـان والتقوى في حياتهن، وتأثير تعاليم كولن في رسـم معالم هذا الدور، وأثر مشـاركتهن في مجالس الصحبة على نموهن الشـخصي. علاوة على ذلك، تتقصى الدراسة رؤية النساء للجدل الدائر حول دور الإيمان والتقوى في المجتمع اليوم.

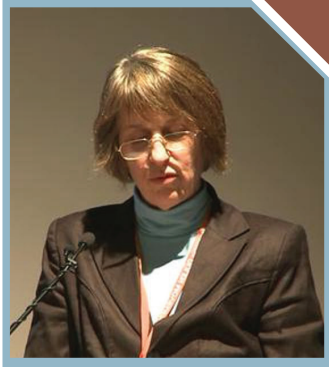

مارجريت راوش

محـاضـرة فـي الـدراسـات الإسـلامـيـة وبـاحـثـة مستقلة ومـتـخـصـصـة فـي بـرنـامـج فولبرايت. تقدم دورات في الجامعات وتقدم عروضًا في مجموعة من الأماكن بـمـا فـي ذلـك الـكـنـائـس ومـراكـز الـجـالـيـة الـيـهـودية والـمـؤتـمـرات الأكـاديـمـيـة. تشمل اهتماماتها التعليمية والبحثية الجنس، والقيادة، والسلطة، واللغة، والطقوس، والـتـأثـيـر، والـتـصـوف، والتعليم الإسلامي، والفقه الإسـلامـي، والإحـيـاء والإصـلاح الإسـلامـي، والـعـدالـة الاجـتـمـاعـيـة، والعدالة البيئية. قامت بعمل ميداني أنثروبولوجي وتاريخ شـفـوي وأبـحـاث أرشيفية في طاجيكستان والمغرب والـولايات المتحدة. تشمل منشوراتها كتبًا، ومقالات في المجلات الأكاديمية، وفصول مجلد مُحررة، ومراجعات كتب، ومدخلات موسوعية.

كثيرًا ما يفترض العلماء المسلمون وغير المسلمين المتأثرون بالاتجاهات الشائعة في الفكر الغربي أن العلمنة شرط أساسي لتحقيق التقدم والتطور في جميع جوانب المجتمع اليوم. ويُنظر إلى الدين باعتباره منبع الاضطهاد وعدم المساواة والتمييز والعداء، وبالتالي فإنه عائق في وجه التقدم والتطور في أعين أغلب العلمانيين الأحرار. وقد حاول العلمانيون الأحرار ودعاة المساواة بين الجنسين توثيق الطرق التي تلجأ إليها النساء والمجموعات المضطهدة الأخرى -بصورة مباشرة أو غير مباشرة، سواء عن قصد أو دون قصد- للتأقلم مع الكيانات والأشخاص والممارسات والهيئات المناصِرة لما يرونه أيديولوجيات استبدادية، بما فيها الإسلام، والتحايل عليها، وتحديها، ومقاومتها، بل وحتى النضال لإسقاطها. نلاحظ أن كتابات العلمانيين الأحرار ودعاة المساواة بين الجنسين التي تدور حول النساء بوجه عام، والمسلمات منهن بوجه خاص، تركز منذ وقت طويل على تقديم أدلة تؤكد مقاومتهن للكيانات والأشخاص والممارسات والهيئات القائمة على الإسلام. تُفهم كلمة الحجاب على أنها ارتداء المرأة المسلمة غطاء رأس، تختلف وتتنوع أشكاله من منطقة إلى أخرى. وكثيرًا ما ينظر العلمانيون الأحرار في جميع أنحاء العالم، ولا سيما في تركيا، إلى غطاء رأس المرأة كمظهر من مظاهر الاستبداد، ويعتبرون اتخاذ المرأة المتعلمة المتحضرة قرارًا واعيًا بارتداء الحجاب، تأييدًا فعليًا لأيديولوجية ظالمة. في حين يُنظر إلى قرار المرأة الواعي بخلع الحجاب، باعتباره دليل انتصار في الصراع ضد الاستبداد.

أدرك العلماء في الآونة الأخيرة أن التدين والتقوى وممارسة الشعائر، ليست مجرد محاولات فردية ليس لها أثر على حياة ممارسها أو أثرها بسيط، فيما عدا تحديد توجهاته السياسية في عالم اليوم الذي شهد مبالغة في تسييس الدين والانتماءات الدينية. بل بدأ الوعي يزداد بأهمية هذه الممارسات ودورها المحوري في تشكيل هوية ممارسها وطباعه وآرائه في جوانب أخرى عديدة من حياته اليومية في المنزل والمدرسة والعمل. والأهم من ذلك كله، أن هذه الممارسات لها انعكاسات وتداعيات على جوانب أخرى من حياة مجموعته ومجتمعه خارج الحدود التي تُمارس فيها. كشفت عدة دراسات حديثة بعض هذه التداعيات في حالة النساء المسلمات. توضح هذه الدراسات كيف تؤدي جهود النساء اللاتي يمارسن الدين إلى تغيير الصورة القديمة حول ممارسة النساء للشعائر الدينية، أو ابتكار صورة جديدة بغرض المشاركة في الجهود المستمرة لإعادة تقييم ومراجعة الأيديولوجيات والترتيبات الخاصة بحالة النوع الاجتماعي والأدوار والعلاقات في سياقاتها المحلية (رودفير، ٢٠٠٣؛ وتراب، ٢٠٠٧). هذا وتكشف دراسات أخرى كيف ابتكرت مجموعات مختلفة من النساء مجالات خاصة بهن، من خلال تقديم معانٍ جديدة للممارسات الحالية وإعادة المغزى إليها وتقديم ممارسات جديدة، بغرض تجديد وتعزيز شعورهن بالالتزام تجاه الإسلام، وتشجيع نساء أخريات في مجتمعاتهن على الاقتداء بهن واتباع نصائحهن وتوجيهاتهن. تؤكد هذه الدراسات على التزام تلك النساء المتزايد نحو الإسلام، وقدرتهن على إيجاد فرص وتقديم وسائل من شأنها تحسين ظروف الحياة اليومية للنساء، وتمكينهن في بعض

الحالات من تعويض الأوضاع الاستبدادية بقنوات للتمثيل والتمكين (ديب، ٢٠٠٦؛ ومحمود ٢٠٠٤). تبين مثل هذه الدراسات الحديثة وغيرها أن الكيانات والأشخاص والممارسات والهيئات التي تؤيد الاستبداد تستمد قوتها من جوانب أخرى في الثقافة المحلية، وتعتمد على تأويلات متطرفة للنصوص الشرعية في الإسلام.

وبالمثل فإن كتابات الباحثين الحالية التي تركز على نساء الخدمة، تسعى لاكتشاف أثر ممارستهن لتعاليم فتح الله كولن وسعيد النورسي على حياتهن. وتبين هذه الكتابات كيف كان لانخراطهن في الخدمة أثر في نموهن الشخصي، الأمر الذي أتاح لهن فرصًا تعليمية ومهنية كثيرة، وعمل على تحسين ظروف حياتهن اليومية من خلال صقل مهاراتهن في التواصل مع أزواجهن وأفراد أسرهن، وزاد من ثقتهن وتقديرهن لأنفسهن. أظهرت الدراسات أن التزامهن الشامل بتعاليم الإسلام قد زاد من وعيهن -دون أن ينتقص منه- بالخيارات المتاحة أمامهن في حياتهن الشخصية ومساعيهن المستقبلية، وذلك خلافًا لآراء «العلمانيين الأحرار» في تركيا.

كتبت برناديت أندريا (عام ٢٠٠٧) مقالاً حول رؤية فتح الله كولن وحقائق حول حقوق النساء في بلاط الإمبراطورية العثمانية وصفوة المجتمع. تؤكد في المقال التناقض الواضح بين القيود السابقة المفروضة على حقوق النساء، وتطوراتها اللاحقة في المناطق التي حكمتها التقاليد المسيحية اليهودية، وحقوق المرأة الأكثر تقدمًا في الإسلام، وخاصة في عصر السيدة مونتاجيو «سفيرة» إنجلترا في الإمبراطورية العثمانية في أوائل القرن الثامن عشر. علاوة على ذلك، تكرر برناديت ما توصّل إليه باحثون عديدون حول سوء الفهم المنتشر حاليًا بين الأوروبيين حول ظروف الحياة اليومية للنساء المسلمات خلال الفترة الاستعمارية وما قبلها. تصف برناديت أندريا دهشة السيدة مونتاجيو لدى رؤيتها الاختلاف الشديد بين أوضاع السيدات التركيات اللاتي قابلتهن وتعرفت بهن وما تسجله قصص السفر التي قرأتها. لم تتمتع المسلمات بالحق في امتلاك الممتلكات وغيرها من الحقوق التي لم تكن النساء الأوربيات المعاصرات تتمتعن بها فحسب، بل كرسن حياتهن للأعمال الخيرية والعبادة وليس للخلاعة والمجون، كما زعم مؤلفو قصص الرحلات. يشير المقال، دون أن يصرّح بوضوح، إلى إمكانية كامنة في القرآن -أدركها فتح الله كولن وبدأ تطبيقها في الماضي وحتى وقتنا الحاضر- لغرس السلوكيات الأخلاقية والتصرفات الصالحة وإرساء المساواة بين الجنسين، وهي إمكانية مفقودة في «القانون الكنسي المتفق عليه»، أو تم إغفالها وأُسيء فهمها ولم يطبقها القانون والممارسة اليومية في أوروبا خلال القرن السابع عشر.

وبالمثل فإن الباحثين في شؤون النساء المعاصرات من مؤيدي الخدمة في تركيا والولايات المتحدة، وخاصة مدينتي أوستن وهيوستن بولاية

تطبيق نساء الخدمة لتعاليم الحركة ومشاركتهن في أنشطة ومؤسسات أسسها أتباع آخرون للحركة أدى إلى تحسّن حياتهن الشخصية، وانخراطهن في الحياة العامة، ورغبتهن في ترك بصمة أو أثر في المجتمع الذي يعشن ويعملن فيه.

تكساس، أشاروا إلى أن التزام هؤلاء النساء الشديد بتعاليم الدين والتقوى لم يمنعهن من مواصلة تعليمهن العالي ومسيرتهن المهنية، أو من مطالبة أزواجهن بالتعاون معهن في أعمال المنزل وأهمها الاهتمام بالأطفال وتربيتهم. درست إليزابيث أوزدالجا (عام ٢٠٠٣) حياة ثلاث نساء يافعات تعملن في ثلاث مدارس مختلفة أسسها مؤيدو الخدمة في تركيا. بعد إجراء مقابلات معهن، أوضحت كيف أن اكتشافهن لتعاليم فتح الله كولن وسعيد النورسي وممارستهن الشخصية لها قد ساعدهن على تشكيل وتنظيم علاقاتهن بأزواجهن، وحياة عائلاتهن، ومسيرتهن المهنية كمدرسات بأساليب دعمت نموهن الشخصي وأهدافهن في الحياة. كذلك اعتمدت آنا جيه ستيفنسون (عام ٢٠٠٧) على المكتشفات التي خلصت إليها في دراسة الماجستير حول النساء من مؤيدي الخدمة لتقديم دراسات حالة لنساء يُقِمن في مدينة هيوستن بتكساس. تؤكد آنا أن اتباع هؤلاء النساء لتعاليم كولن والنورسي وانخراطهن في أنشطة الخدمة في الولايات المتحدة وغيرها من الدول قبل وصولهن قد عزّز قدرتهن على تحديد مختلف جوانب أهدافهن التعليمية والمهنية والزوجية. كما أجرت ماريا إف كورتس (عام ٢٠٠٥) بحثًا ميدانيًا شمل بعض النساء نساء الخدمة المقيمات في مدينة أوستن بتكساس. تابعت فيه النمو الشخصي الذي حققته هؤلاء النساء، بدءًا من تجاربهن الغامرة أثناء الإقامة مع نساء أخريات في المهاجع التي أسسها ويديرها مؤيدون للخدمة قريبًا من الجامعات التركية، وصولاً إلى مشاركتهن في مختلف جلسات الدروس النسائية التي تشبه الاجتماعات الروحانية في أوستن. تؤكد ماريا على التحوّل الذي شهدته هؤلاء النساء، خاصة تغير رؤيتهن لهويتهن الإسلامية، ولأنفسهن كأعضاء في المجتمع الصغير والكبير الذي يضم مؤيدي الحركة، وكنساء تركيات، وبالتالي علاقتهن بالدولة التركية بناء على ذلك. يوضح كل هؤلاء الباحثين أن تطبيق نساء الخدمة لتعاليم الحركة ومشاركتهن في أنشطة ومؤسسات أسسها مؤيدون آخرون للحركة أدى إلى تحسّن حياتهن الشخصية، وانخراطهن في الحياة العامة، ورغبتهن في ترك بصمة أو أثر في المجتمع الذي يعشن ويعملن فيه.

المنهجية

تقوم هذه الدراسة على بحث ميداني يتم إجراؤه أثناء عقد جلسات الدروس النسائية أسبوعيًا في منازل مؤيدي الخدمة المقيمين في مدينة كانساس. تُعقد الجلسات في مدينة كانساس والمدن القريبة منها. وتضم مجموعة من مؤيدات الخدمة اللاتي يحضرن الجلسات حاليًا خمس عشرة امرأة من تركيا وتركمانستان وأذربيجان من المقيمات في الولايات المتحدة منذ نحو عام واحد إلى خمسة أعوام، وتتراوح أعمارهن بين عشرين وخمسة وعشرين عامًا. إحدى المشاركات امرأة أمريكية

nesemat.com نسيات nesemat.com

عندما قرأتُ تعاليم كولن حول التعليم، تأثرت بها لإيماني الشديد بأن المعرفة قوة. إن تأويل كولن لأول آية نزلت على النبي محمد ﷺ مختلف وفريد تمامًا، وقدم لي رؤية جديدة.

متزوجة من رجل تركي وأم لثلاثة أطفال، عملت في السابق مُعلمة في مدرسة، لكنها تعمل حاليًا أمًا بدوامٍ كاملٍ حتى يصل طفلها الصغير إلى سن المدرسة. جميع النساء المشاركات في الدراسة متزوجات ما عدا اثنتين. ثمانية من النساء لديهن طفل أو طفلان. خمسة من النساء مسجّلات في برامج للدراسة الجامعية أو الدراسات العليا في الجامعات المحلية، وتعمل خمسة منهن مُعلمات أو باحثات في مجتمعاتهن، وخمسة منهن زوجات وأمهات بدوام كامل.

وكما تختلف أصولهن وجوانب حياتهن الحالية الأخرى، تتفاوت معرفتهن المسبقة بأفكار وتعاليم وأعمال سعيد النورسي وفتح الله كولن، وعلاقاتهن بالمجتمعات المحلية والمجتمع الكبير لمؤيدي هذين العالِمين قبل حضورهن إلى الولايات المتحدة. لم تكن السيدات الخمس اللاتي يكرسن حياتهن حاليا لأطفالهن وأزواجهن على دراية بهذه المدرسة الفكرية، ولم يكن لهن احتكاك مباشر بمؤيديها قبل زواجهن أو كان الاحتكاك بسيطًا.

قام الأزواج في حالة أربعة منهن بتعريفهن بتعاليم الخدمة وأنشطتها ومؤسساتها بعد مجيئهن إلى الولايات المتحدة. أما المرأة الأمريكية الخامسة التي اعتنقت الإسلام، فقد بدأت علاقتها بالحركة فور تعرفها على أحد أفراد الخدمة الأتراك، وزواجها منه آخر الأمر. في حين قرأت النساء العشر الباقيات بعض الأعمال، وواظبن على حضور جلسات الدروس النسائية بكثرة أو غيرها من لقاءات الحركة في بلادهن. كان والدا اثنتين من النساء على اتصال مباشر أو غير مباشر بشبكات المجتمع المحلي وأنشطتها. كل هؤلاء النساء ملتزمات حاليًا بتطبيق التعاليم في حياتهن اليومية، ويشاركن مشاركة فعالة في الأنشطة والمؤسسات بالقدر الذي تسمح به ظروف حياتهن اليومية.

يتضمن البحث الميداني حضور مناقشات غير رسمية مع النساء المشاركات ومراقبتها وإجراءها، سواء بصورة فردية أو جماعية. تقدم الدراسة تطور وجهات نظر النساء الخاضعات للدراسة، من الإجابات المبدئية إلى النتائج النهائية التي توصلت إليها المجموعة كلها أو بعض أفرادها. إجابات النساء رد على أسئلة مفتوحة حول تجاربهن طوال فترة انتمائهن لحركة كولن، منذ لحظة احتكاكهن الأولى بمؤيدي الحركة، وصولاً إلى مشاركتهن في عدة أنشطة ومؤسسات في النهاية. وتشمل الإجابات وجهات نظرهن التي تكوّنت خلال مشاوراتهن حول دور الإيمان والتقوى في مجتمع اليوم، والجدل الدائر حول وضع المسلمين الملتزمين في تركيا وغيرها من الدول، وإمكانية تحقيق التعاون والتفاهم المشترك بين المسلمين وغير المسلمين، والمسلمين الملتزمين وغير الملتزمين، وأبناء الخدمة والعلمانيين الأحرار، في سعيهم المشترك لتحقيق التقدم والتطور في المجتمع بوجه عام، وتحسين أوضاع النساء في حياتهن اليومية بوجه خاص.

لم تكن السيدات الخمس اللاتي يكرسن حياتهن حاليا لأطفالهن وأزواجهن على دراية بهذه المدرسة الفكرية، ولم يكن لهن احتكاك مباشر بمؤيديها قبل زواجهن أو كان الاحتكاك بسيطًا.

nesemat.com نسمات nesemat.com

ركزت المناقشات الفردية والجماعية الأولى حول أهمية الخدمة بالنسبة للنساء على ثلاث موضوعات رئيسية؛ هي «إرساء معايير عالية» و«الدلو المثقوب» أو «التقدم بالتقوى» و«الأخت الكبرى نموذج يُحتذى به». وتشكّل هذه الموضوعات الجزء الرئيسي من الدراسة. ويختتم الجزء الرئيسي بمناقشة أهم سمة تميز نساء الخدمة عن العلمانيات الأحرار. تلخص نتائج الدراسة منظور نساء الخدمة بشأن إعادة تقييم الجدل الدائر حول دور الإيمان والتقوى في مجتمع اليوم، وحل الصراع بين المجموعات ذات الآراء والاتجاهات المختلفة، وقد تكوّنت وجهات نظرهن هذه خلال مشاوراتهن في إطار البحث.

إرساء معايير عالية بالتعليم والحوار والخدمة

عندما سُئلت نساء الخدمة في مدينة كانساس حول أهم جوانب مشاركتهن في الخدمة، كان أول موضوع تحدثن عنه هو «إرساء معايير عالية». رأت النساء أن إرساء معايير عالية والسعي إليها والنجاح في ذلك، يمكن أن يتحقق عبر التعليم والخدمة والحوار. وأن هذه المجالات الثلاثة متداخلة ومتشابكة، وتلعب دورًا مهمًّا في السعي نحو إرساء «المعايير العالية» على عدة أصعدة.

يشمل التعليم -من جانب- برنامج تعلم العلم الدنيوي الذي تقدمه مدارس الخدمة المنتشرة في جميع أنحاء العالم. تطلب نساء الخدمة هذا العلم، وتقدمه النساء العاملات في المدارس لباقي أعضاء المجتمع. يسهم هذا التعليم في رفع مستوى المعرفة العامة لدى الدارسات، -ومن جانب آخر- تسعى هذه المدارس إلى نشر المعايير العالية المتجسدة في صورة القيم والمبادئ الأخلاقية عبر تقديم أمثلة يُحتذى بها تنعكس في سلوك المعلمات العاملات في المدرسة. نلاحظ أن كل جوانب التعلم المشار إليها هنا تطابق التوقعات التعليمية التي تستهدفها المؤسسات التعليمية بوجه عام.

يكمن الفرق في طريقة فهم نساء الخدمة لدوافع طلب العلم، وخاصة الدراسات العليا، ويرجع ذلك إلى التزامهن بتعاليم الإسلام وإيمانهن وتقواهن. بالإضافة إلى ذلك، فهن يعتبرنها فرصة لتطبيق تعاليم كولن في حياتهن، كما تقول إحدى النساء:

«عندما قرأتُ تعاليم كولن حول التعليم، تأثرت بها لإيماني الشديد بأن المعرفة قوة. إن تفسير كولن لأول آية نزلت على النبي محمد ﷺ مختلف وفريد تمامًا، وقد قدم لي رؤية جديدة. تقول أول آية: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق:١). يؤكد كولن أن هذا الأمر الإلهي بالغ الأهمية اليوم، وأنه يشدد على أهمية التعليم. لقد بدأتُ تطبيق هذه الفكرة في حياتي وعكفتُ على قراءة الكتب أكثر مما سبق، ووضعت نصب عيني أن ألتحق بكلية الطب.»[1]

نرى هنا أن اختيار مواصلة التعليم العالي مرتبط بتأويل كولن لسورة من سور القرآن. علاوة على ذلك، فإن النساء يعتبرن مواصلة التعليم العالي وسيلة لنيل مرضاة الله، واتباعًا لأوامره، واقتداء

nesemat.com نسيات nesemat.com

الخدمة تعزز التفاعل والحوار والتعلم، ليس فقط لدى أولئك المنخرطين في أدائها والمستقبلين لها، بل أيضًا لدى أولئك الذين يتشاركون العمل في أنشطة خدمية كبرى.

بالرسول ﷺ في حياتهن اليومية، تمامًا كما ينظرن إلى كل محاولة إيجابية أخرى في حياتهن اليومية. أوضحت هذه المرأة، كغيرها من النساء، أن قرار مواصلة تعليمها العالي واختيار طريقها المهني يرتبط ارتباطًا مباشرًا برغبتها في خدمة المجتمع بعد توظيفها، الأمر الذي سيزيد فرصها في نيل مرضاة الله. رأت نساء الخدمة أن التعليم ساعدهن في رفع «المعايير» في حياتهن على الصعيدين الفكري والروحاني.

تُعرف "الخدمة" (Hizmet) بمفهومها الواسع بأنها: أي عمل هدفه مساعدة الآخرين، وتُطلق على أصغر الأعمال التي تلبي حاجة أي شخص نقابله في حياتنا اليومية. وتشمل الخدمة أداء أي عمل يفيد الآخرين، سواء عبر تلبية طلباتهم اليومية، أو تقديم يد المساعدة في المؤسسات المجتمعية، كالمشاركة في الأنشطة التي ينظمها أبناء الخدمة على اختلافها، كما توضح إحدى نساء الخدمة في الفقرة التالية.

«شاركتُ في عدد من الفعاليات التي نظمها أفراد يشتركون في نفس الرؤية العامة، من بينها أنشطة التواصل المجتمعي، وتعليم الطلاب الصغار الأعمال التطوعية، وقيادة أنشطة مجموعات الشباب والمشاركة فيها، والمشاركة في أنشطة الأخت الكبرى، والمشاركة في إفطار رمضان مع عدة أعضاء من المجتمع، وأنشطة جمع التبرعات للأيتام، وما شابه. وقد اختلفت مشاركتي في هذه الأنشطة. فكنت مسؤولة في بعضها عن تنظيم النشاط وتجهيزه وإدارته، وكنت مجرد مشارِكة تحضر النشاط في البعض الآخر، وخاصة في إفطار رمضان. في حين تقاسمت المسؤولية مع آخرين في أنشطة أخرى، فكان علينا وضع خطة وتنفيذ ما يجب عمله. تعتبر المشاركة في هذه الأنشطة أمرًا مهمًا للغاية بالنسبة لي، لأنه شيء أؤمن به. فأنا أؤمن بضرورة مساعدة الآخرين بأي طريقة ممكنة، وبترك أثر إيجابي في العالم وفي مجتمعي. وأؤمن بأهمية الحوار بين الأديان وبين الثقافات.»

يعزز أداء الخدمة فرص التفاعل والحوار، ويوفر خبرات في عدة مجالات، كما يؤكد الاقتباس التالي:.

«تغيرت حياتي للأفضل بعد المشاركة في هذه الأنشطة مع أشخاص يشاركونني القيم ذاتها. فأنا أشعر بالانتماء إلى كيان كبير ومهم عوضًا عن شعوري بالوحدة والعزلة. قد يشعر الإنسان بطبيعة الحال بالوحدة والعزلة في بعض الأحيان وكأن أحدًا لا يشعر به، لكن انتمائي الحقيقي لهذا المجتمع جعلني ألاحظ أوجه الشبه الكثيرة التي تجمع بيننا، وأدرك أن الآخرين قد ينتفعون من تجاربي وطريقة تغلبي على بعض المشكلات أو التعامل معها، بنفس قدر انتفاعي من تجاربهم. ومن المزايا الأخرى للمشاركة في هذه الأنشطة أننا نشجع بعضنا بعضًا ويساعد أحدنا الآخر في التمسك بمعتقداتنا وآليات عملنا. والميزة الأخيرة التي أود الإشارة إليها أنه بالرغم من رغبتنا القوية في فعل الخير وأداء مهام معينة، هناك أوقات نحتاج فيها دائمًا إلى المساعدة

انتمائي الحقيقي لهذا المجتمع جعلني ألاحظ أوجه الشبه التي تجمع بيننا، وأدرك أن الآخرين قد ينتفعون من تجاربي وطريقة تغلبي على بعض المشكلات أو التعامل معها، بنفس قدر انتفاعي من تجاربهم.

لتحقيق أهدافنا لأنها ليست أعمالاً فردية. لهذا يكون من المفيد الاستعانة بأكثر من شخص.»

تشير هذه المرأة إلى أن الخدمة تعزز التفاعل والحوار والتعلم، ليس فقط لدى أولئك المنخرطين في أدائها والمستقبلين لها، بل أيضًا لدى أولئك الذين يتشاركون العمل في أنشطة خدمية كبرى. والأهم من ذلك -في رأي هذه المرأة- أن الخدمة عمل تطوعي بصرف النظر عن وقت أدائه والجهد المبذول فيه، يؤديه الشخص دون انتظار أي مقابل أو تعويض مادي أو غيره، ويمنحه الفرصة لإرضاء الله.

الحوار هو الوسيلة الثالثة لنشر «المعايير العالية» في حياة الشخص والمجتمع كما ترى نساء الخدمة. والحوار جزء لا يتجزأ من التعليم أو أي عملية تعلم لأنه يسهّل تبادل الأفكار. ويشمل الحوار كل مستويات التواصل، سواء أثناء أداء أحد أنشطة الحركة، أو ببساطة أثناء التواصل بين فردين، في محاولة واعية لفهم أفكار الآخر ورأيه واتجاهاته ووجهات نظره. قد يؤدي الحوار إلى التقريب بين الأفراد والجماعات التي ينتمون إليها، ويزيل سوء الفهم ويقلل التوتر الذي يولّد الصراع، ويفتح المجال للتفاعل الهادف البنّاء ويوجهه. أكدت نساء الحركة على أهمية الحوار بين الثقافات والأديان، لكنهن أشرن أيضًا إلى أهمية الحوار بين أعضاء جماعات مختلفة يقيمون في نفس البلد، ويتمتعون بنفس الخلفية الثقافية، ويعتنقون نفس الدين. يندرج الحوار تحت عنوان الخدمة العريض، لأنه يهدف إلى تحسين حياة الآخرين والمجتمع ككل. كما أن المشاركة في حوار واعٍ مدروس يستتبع تقديم مثال يُحتذى به، ويمثل وسيلة أخرى من وسائل نيل مرضاة الله.

في نهاية النقاش مع نساء الخدمة حول «إرساء معايير عالية» لأنفسهن ونشرها في المجتمع بمساعدة التعليم والخدمة والحوار، بدأن في إعادة تقييم مصطلحاتهن. أقرت النساء بعدم وجود مجموعة معايير رسمية محددة، وأوضحن أن هدفهن هو العمل على نشر القيم والمبادئ الأخلاقية في المجتمع. وتضمنت هذه الجهود في حياتهن الشخصية الالتزام بالإيمان والتقوى، كما يظهر في الاقتباس التالي:

«لا يوجد تعريف محدد لفكرة اتباع معايير عالية. نحن نؤمن أننا نعيش في صراع في هذه الحياة، ويجب أن نسعى دائمًا لنكون أفضل. على سبيل المثال، إذا كنت تتصدق، فحاول أن تتصدق بمبلغ أكبر، وأن تصلي أكثر، وأن تكون أكثر إيثارًا وتعاونًا، إلى غير ذلك. نحن لا نكتفي بعدد ركعات معين، بل يجب أن نظل نتقرب إلى الله دائمًا بزيادة الأعمال الصالحة وتجنب ارتكاب الآثام حتى ننجح في تجنبها تمامًا، وأن نسعى لإرضاء الله في كل جانب من جوانب حياتنا.»

أجمعت النساء على استخدام كلمة «عالية»، لأنها تجسد هدف سعي الشخص من أجل تحسين

الخدمة عمل تطوعي بصرف النظر عن وقت أدائه والجهد المبذول فيه، يؤديه الشخص دون انتظار أي مقابل أو تعويض مادي أو غيره، ويمنحه الفرصة لإرضاء الله.

آرائه وتوقعاته ومستوى معرفته ووعيه وتصرفاته وتشجيع الآخرين على ذلك أيضًا. في النهاية عقب مناقشة عبارة «إرساء معايير عالية» والمجالات الثلاثة المذكورة أعلاه لدعم السعي إليها والنجاح في ذلك، ظهرت فكرة أن الشخص يستطيع، بل ينبغي عليه أن يقيّم معاييره باستمرار، من خلال أخذ خطوة إلى الوراء والتدقيق في آرائه وتوقعاته ومستوى معرفته ووعيه وتصرفاته في كل جانب من جوانب حياته اليومية. وهذا أحد المقوّمات المهمة في منهج الخدمة، كما ترى هؤلاء النساء. فهذا المقوّم يستلزم التركيز على التقدم باستمرار، وتطور المعرفة، وتحسن السلوك والنمو الشخصي؛ وكلها علامات ودلائل على تحقيق التقدم.

الدلو المثقوب: التقدم بالتقوى

إحراز التقدم هو الهدف الثاني المهم بالنسبة لهؤلاء النساء. والتقدم ببساطة هو جعل كل يوم أفضل من سابقه، وتعلم شيء جديد كل يوم، وتحسين سلوكياتهن وتصرفاتهن يومًا بعد يوم. شرحت إحدى النساء الفكرة قائلة" "إن الهدف يمكن فهمه إذا تخيل الشخص نفسه مثل «الدلو المثقوب» الذي لا يمكنه الاحتفاظ بالماء لفترة طويلة"، ثم أوضحت أن المياه الراكدة تصبح ملوثة ومليئة بالقاذورات، أما المياه المتجددة أو الجارية باستمرار كمياه النهر، فإنها في تجدد دائم.

أوضحت النساء أن هذا التشبيه مأخوذ من سيدنا عليّ ابن عم النبي وصهره. فكما أشارت إحداهن «كان سيدنا عليّ يطبق معايير عالية جدًّا ويتمتع بعلم غزير. ومع ذلك قال إن علمه مثل قطرة في محيط. كيف ندّعي أننا متعلمون؟ سيظل هناك ما يمكننا تعلمه. لهذا فإن هدفنا أن نتعلم شيئًا واحدًا جديدًا على الأقل كل يوم».

تؤكد هذه الفكرة على أهمية التعلم، الذي يشمل كلاً من المعرفة التي يكتسبها الشخص من القراءة أو الالتحاق بمؤسسة تعليمية، والمعرفة المكتسبة من خبرات الحياة اليومية.

لا يقتصر تحقيق التقدم على اكتساب المعارف والخبرات فحسب، بل يجب أن يصاحبهما ويوجههما نمو روحاني. ولتحقيق النمو الروحاني يجب على الإنسان زيادة عدد الركعات التي يصليها أو ورد القرآن الذي يقرؤه. أضف إلى ذلك التأكيد على زيادة قدرة الشخص على التصرف وفقًا للقيم والمبادئ الأخلاقية وأداء العبادات أكثر من التركيز على محتوى المعارف والخبرات المكتسبة. وقد تحدثت إحدى نساء الحركة باستفاضة عن رأيها في هذا الأمر قائلة:

«الحياة اليومية كفاح مستمر. يستطيع الإنسان أن يرتقي إلى مستوى أعلى من الملائكة وفي الوقت ذاته أن ينحدر إلى مستوى أسوأ من الشياطين. منحنا الله القدرة على التمييز بين الخير والشر، وترك لنا حرية الاختيار. وهذه الحياة ما هي إلا اختبار نحاول أن نحرز فيه درجة عالية. لا توجد درجة محددة للنجاح، بل يجب علينا محاولة الإجابة عن

nesemat.com نسمات nesemat.com
لا يقتصر تحقيق التقدم على اكتساب المعارف والخبرات فحسب، بل يجب أن يصاحبهما ويوجههما نمو روحاني.

كل الأسئلة. بعبارة أخرى، لن نستطيع مطلقًا معرفة النتيجة، ولا يوجد ضمان أننا سندخل الجنة حتى إذا كنا مسلمين ملتزمين. لهذا نبذل دائماً أقصى طاقتنا حتى لا نكتفي بممارسة مجموعة ثابتة من العبادات ونظل في نفس مستوى التدين، لكن لا أحد يستطيع الوصول إلى الكمال. الإيمان مزيج من الخوف والرجاء، ونحن نرجو دائمًا عفو الله ومغفرته.

كما أننا لا نعرف السؤال الذي سيمنحنا أعلى درجة. أي أن الله قد يغفر لنا بسبب عمل صالح صغير جدًا. لا يخضع الأمر لحسابات رياضية محددة. قد تصلي كثيرًا لكنك تكسر قلب شخص، حينها ستكون في مشكلة. لكي يكون كل يوم مختلف، حاول أن تنمو روحانيًا من خلال المواظبة على الصلاة، وأداء الأعمال الصالحة وتنمية شخصيتك وتهذيب أخلاقك».

نلاحظ أن التركيز هنا على تجديد المعايير الأخلاقية والروحانية ورفع مستواها، مصحوبًا بأداء الأعمال الصالحة سواء العبادات الروحانية الخاصة أو العامة أو اليومية، مع التأكيد على فكرة أن التقدم عملية فردية. يمكن قياس التقدم على مستوى الفرد، لكن تجديد الفرد لمعاييره وتحسينها يؤتي ثماره على الفرد والمجتمع. ينطوي التقدم الفردي على زيادة قدرة الشخص على تقديم المزيد من الخدمات إلى المجتمع والتصرف بطريقة أكثر فعالية تجعله مثالاً يحتذي به الآخرون.

غير أن النساء كلهن أجمعن أنه لا توجد مجموعة معايير محددة، أو وسيلة لقياس الأداء أو مستوى تقدم الشخص، بل تعتمد عملية مراقبة التقدم على محاسبة النفس، إلى جانب وجود شبكة دعم وتقييم لتوجيه التقدم وتيسيره، كما يتضح من الاقتباس التالي:

«أعلى معيار هو إرضاء الله، لكن لا أحد يعلم إن كان سينال هذا الرضا أم لا. وأي شخص يظن أنه شخص جيد، وأنه أفضل من الآخرين، وأنه قد نال رضا الله وضمن دخول الجنة، فقد بدأ رحلة السقوط الفورية. ليست هذه المعايير من وضعنا. بل إن هدفنا هو اتباع سنة نبينا محمد ﷺ وصحابته الكرام. كما أن التشاور مع الأشخاص الذين حققوا تقدمًا روحانيًا أكبر قد يساعدنا في تطبيق معايير أعلى وتطوير أنفسنا باستمرار. إنهم يرشدوننا إلى طرق أفضل ومستويات أعلى فيما يتعلق بكل أفكارنا وأفعالنا».

تكشف هذه الإجابة أن التواضع عامل أساسي في عملية التقييم، ورغم أن طريق التقدم فردي، يمكن طلب المساعدة من الأشخاص الأكثر تقدمًا من الناحية الروحانية. ترى نساء الخدمة أن طلب المساعدة -خاصة في المراحل المبكرة من رحلة الشخص الروحانية- أمر مستحسن ومفيد جدًا. تستطيع الأخت الكبرى تقديم المساعدة في أغلب الحالات، خاصة في سياق مجالس الدروس النسائية التي يشرفن عليها.

nesemat.com نسيات nesemat.com

أعلى معيار هو إرضاء الله، لكن لا أحد يعلم إن كان سينال هذا الرضا أم لا. وأي شخص يظن أنه شخص جيد، وأنه أفضل من الآخرين، وأنه قد نال رضا الله وضمن دخول الجنة، فقد بدأ رحلة السقوط الفورية.

الأخت الكبرى نموذج يُحتذى به

شاركت عشرة من نساء الخدمة في مجالس الدروس النسائية بانتظام، وأحرزن التقدم على مدار عامين أو أكثر بفضل توجيه وإرشاد الأخت الكبرى. وقد رأين أنها تجربة ثرية ومحورية في نموهن الروحاني. كانت هذه التجربة بمثابة الأساس القوي الذي يمكنهن البناء عليه الآن. تعلمت النساء كيف يراقبن تقدمهن الشخصي، ويحافظن على التوازن بين نموهن الروحاني وقدرتهن على تطبيق القيم والمبادئ الأخلاقية التي تعلمنها في المرحلة الأولى من التدريب تحت إشراف الأخت الكبرى.

تحدثت جميع النساء عن دور الأخت الكبرى المزدوج؛ باعتبارها مُعلمة ومثالاً يُحتذى به. في إطار عملها كمُعلمة، تقوم بقراءة نصوص الدراسة في المجالس، وإدارة النقاشات حول النصوص، كما تراقب تقدم المشاركات من خلال إعداد قوائم بالأنشطة الأسبوعية. وتشمل هذه القوائم النوافل والأوراد الإضافية وأعمال الخدمة التي قدمتها كل مشاركة. يشجع ذلك المشارِكات على زيادة أنشطتهن أسبوعًا تلو الآخر، ويساعدهن على تعلم طريقة مراقبة تقدمهن الشخصي بأنفسهن آخر الأمر.

أكدت أغلب النساء على أهمية دور الأخت الكبرى كمثال يُحتذى به، كما يتضح من التالي:

«تساعد الأخت الكبرى طالباتها على التحسن. فهي تشجعهن وتعينهن على أداء واجبات المدرسة. كما تحاول تعليمهن بعض أمور الدين قدر استطاعتها. لكن أهم وأنفع طريقة للتعلم من الأخت الكبرى تكون من خلال الاقتداء بسلوكها، فسلوكها وتصرفاتها أهم بكثير مما تقول».

تحدثت بعض النساء عن إعجابهن الشديد بالأخت الكبرى، ورغبتهن في الاقتداء بها في كل تصرفاتهن. وما زال البعض منهن على صلة بأختها الكبرى. أتاحت مجالس الدروس النسائية فرصة التعلم من الأخت الكبرى عبر مراقبتها والاقتداء بها، كما غرست فيهن الإحساس بالانتماء إلى المجموعة، والحصول على دعم المجموعة في بيئة آمنة راعية. وقد ساعد كل ذلك على تعزيز قدرة النساء على النمو الشخصي والروحاني، كما يتضح من الاقتباس التالي:

«مجالس الدروس النسائية في الولايات المتحدة وتركيا متشابهة إلى حد كبير. فنحن نلتقي وتقرأ إحدى الأخوات كتابًا، قد يكون من تأليف كولن، أو أحد تفاسير القرآن، أو رسائل النور. ونتناقش فيما نقرؤه في محاولة للخروج بنتائج وآليات لتطبيق ما قرأناه في حياتنا اليومية. تتميز هذه المجالس بأنها تفاعلية، وليست مثل المحاضرات. فكل امرأة تشارك بما تعلمته، ويشيع جو من التناغم والراحة. نخرج أحيانًا للجري وتناول وجبة لذيذة بعد المجلس وقضاء وقت ممتع معًا. عندما كنت في الجامعة، كنت مشغولة دائمًا في الصباح بالمحاضرات وشؤون الحياة. لكن عندما عدت إلى الوطن وبدأت أحضر مجالس الدروس النسائية، ساعدتني الأخت الكبرى في التركيز على عالم

شاركت عشرة من نساء الخدمة في مجالس الدروس النسائية بانتظام، وأحرزن التقدم على مدار عامين أو أكثر بفضل توجيه وإرشاد الأخت الكبرى.

nesemat.com نسمات nesemat.com

آخر؛ على مسؤولياتي والسعي لأصبح شخصًا أفضل. وكأن غذاء روحيًا كان في هذه المجالس».

أكدت غالبية النساء على أهمية المجموعة الراعية الداعمة، فضلاً عن الصداقات والأنشطة الاجتماعية التي قدمتها مجالس الصحبة في المرحلة الأولى من انضمامهن إلى الحركة.

تختلف مجالس الدروس النسائية اختلافًا كبيرًا بحسب احتياجات وتوقعات أعضاء المجموعة والمجتمع الكبير الذي يعيشون فيه، كما جاء في الاقتباس التالي:

«تختلف أشكال المجموعات وتتفاوت المستويات بناء على الوضع. تكون هذه المجموعات في تركيا أكثر تمايزًا، دون أن تكون متماثلة بالضرورة. ويكون الفرق في مستوى العلم الديني والمعرفة بتاريخ الحركة. في المستوى الأول، تكون مجالس الصحبة أشبه باجتماعات لأداء بعض الأنشطة الاجتماعية الإضافية، ويتمثل الهدف من ورائها في تعلم الأساسيات. ثم ترتفع التوقعات من مجالس الصحبة في المستوى المتوسط. وتبدأ المجموعة في المشاركة أحيانًا في الأنشطة التي تنظمها الخدمة. أما في المستوى المتقدم، فتصبح المجموعة أكثر وعيًا والتزامًا بأهداف الخدمة. ويكون متوقعًا من أعضاء المجموعة البدء في تقديم المساعدة للآخرين، ولعب دور الأخت الكبرى في نهاية المطاف. هناك مستويات أخرى للمشاركة أيضًا، على سبيل المثال لم يعد والدي معلمًا في مدرسة كولن. بل أصبح رجل أعمال لكنه ما زال منتميًا للخدمة، يحضر مجالس الصحبة وينقب عن مصادر الدعم المادي للحركة. ووالدتي ربة منزل لكنها منخرطة جدًا في الأنشطة الاجتماعية للحركة؛ فتواظب على حضور مجالس الصحبة والرحلات والمؤتمرات، وتنسيق أنشطة جميع التبرعات لتمويل دراسة الطلبة الفقراء».

يكشف هذا الاقتباس مدى التفاوت الكبير في شكل مجالس الصحبة ومحتواها والغرض منها وشكل أعضائها. وبهذه الطريقة يمكنها تلبية احتياجات وتوقعات المشاركين على تنوعها واختلاف مستوياتها. وبالمثل فإن مجالس الصحبة الحالية توفر للنساء فرصة التواصل بانتظام ودعم جهود مراقبة تقدمهن ونموهن الروحاني.

القرب من الله بوصفه مبدأ توجيهيًّا

تناولتُ آخر نقطة في الدراسة الجدل الدائر حول دور الإيمان والتقوى في مجتمع اليوم، والصراع بين المسلمين الملتزمين والعلمانيين الأحرار في تركيا. تقصيت هذا الموضوع في حواراتي مع النساء المشاركات في مجالس الدروس النسائية من خلال تقصي الفرق في مستوى الفعالية بين النساء المنتميات إلى الخدمة والنساء المنتميات إلى منظمات نسائية غير حكومية في تركيا، ومدى إمكانية التعاون بين كليهما. بناء على نتائج بحثي في هذه النقطة الأخيرة، أوضحتُ أن العديد من

nesemat.com نسيات nesemat.com

تساعد الأخت الكبرى طالباتها على التحسن. فهي تشجعهن وتعينهن على أداء واجبات المدرسة. كما تحاول تعليمهن بعض أمور الدين قدر استطاعتها. لكن أهم وأنفع طريقة للتعلم من الأخت الكبرى تكون من خلال الاقتداء بسلوكها، فسلوكها وتصرفاتها أهم بكثير مما تقول.

هذه المنظمات، مثلها مثل نساء الخدمة، تحاول تحسين الظروف المعيشية للنساء في مجتمعهن. وقد ظلت هذه المنظمات تقدم المساعدة الفعلية للنساء الريفيات والنساء من أصول ريفية اللاتي يعشن في المدينة لتحسين ظروف حياتهن اليومية. وقد نجحت ناشطات كثيرات من أعضاء هذه المنظمات في إطلاق حملات ناجحة لتغيير قانون العقوبات التركي لمنع الزواج المبكر والسلوكيات الظالمة وجرائم الشرف، وكل ما يصاحب ذلك من حالات انتحار المراهقات. كما بذلت هؤلاء الناشطات جهدًا كبيرًا في تعليم الفتيات مهارات التواصل لتحسين علاقتهن بآبائهن وأزواجهن وأبنائهن، ومعرفة حقوقهن والمطالبة بها، وحقوق بناتهن في الالتحاق بالتعليم الثانوي والجامعي والبحث عن وظيفة. بالرغم من دفاعهن الجاد عن حق الفتيات في التعليم، جاءت إجابات هؤلاء الناشطات متشابهة عندما سألتهن حول موقفهن من قضية خلع الحجاب. صحيح أن قرار حظر ارتداء الحجاب كان يمنع بعض النساء التركيات من مواصلة تعليمهن العالي أو العمل في مجالات تتوافق مع شهادتهن أو يدفعهن إلى الدراسة في دول أخرى، ولم تقم أي منظمة نسائية من المنظمات التي تنتمي إليها هؤلاء الناشطات بدعم الجهود الرامية إلى إلغاء هذا القرار. وقد تعللت بعض الناشطات بأسلوب دبلوماسي بأن مواردهن محدودة، وأن الاشتراك في محاولات رفع الحظر لم تكن ضمن أولوياتهن في ذلك الوقت، وأوضحت الكثيرات أن الحظر كان يؤثر فقط على النساء اللاتي يرتدين غطاء الرأس لأسباب سياسية تسعى في النهاية إلى تأسيس دولة إسلامية وفرض الحجاب على كل النساء، كما يحدث في إيران.

عندما قدمتُ هذه النتائج وتساءلت عن السمات المميزة للنساء المشاركات في حركة كولن مقارنة بهؤلاء الناشطات اللاتي يسعين أيضًا لتحسين ظروف معيشة النساء في المجتمع التركي، وطرحتُ فكرة التعاون بين المجموعتين، كانت إجابة نساء الخدمة المقيمات في مدينة كانساس كالتالي. قالت إحداهن:

«إنه سؤال صعب. تسعى كلٌ من النساء الملتزمات وغير الملتزمات إلى تحقيق التقدم. ويمكن أن يصبحن عضوات ناجحات جدًا ومؤثرات في المجتمع ما دام لديهن الحافز. يكمن الفرق في أن المسلمات الملتزمات يواصلن التعليم العالي ويسعين ليكن عضوات فاعلات في المجتمع ليس فقط من أجل الدنيا. فمثلاً أنا أريد أن أصبح أستاذة، ليس لأثبت للآخرين مدى ذكائي وأكتسب الشهرة، بل أرغب في خدمة الله من خلال عملي بتقديم مثال يُحتذى به أمام تلاميذي، ومخاطبة العقول في مطبوعاتي. إذا أصبحت أستاذة يومًا ما أتمنى أن يظل هدفي الحقيقي الآخرة وليس الدنيا. ينبغي علينا استغلال الظروف والفرص المتاحة في الدنيا كأداة لإرساء ونشر المعايير الروحانية العالية

nesemat.com نسيمات nesemat.com
أنا أريد أن أصبح أستاذة، ليس لأثبت للآخرين مدى ذكائي وأكتسب الشهرة. بل أرغب في خدمة الله من خلال عملي بتقديم مثال يُحتذى به أمام تلاميذي، ومخاطبة العقول في مطبوعاتي.

والقرب من الله. الفكرة ببساطة هي خدمة الله من خلال خدمة المجتمع، وأداء أي عمل لوجه الله ورغبة في التقرب إليه.»

كانت إجابة امرأة أخرى كالتالي:

«أعتقد أن المجموعتين يمكنهما العمل معًا وقد تكون فكرة جيدة. المشكلة أن بعض هذه المنظمات علمانية، وترى الدين عقبة في وجه الحداثة وتقدم النساء. في حين تستمد نساء الخدمة قوتهن من الدين. ترى بعض النساء العلمانيات أن معيار الحداثة والعصرية، هو خلع غطاء الرأس وارتداء ملابس أقل سترًا، لهذا يعارضن حصول النساء المحجبات على التعليم والمكانة العالية في المجتمع. يتوقف الأمر على توجهات كل منظمة، فليست كل المنظمات متحيزات. ولا ننس أن التحيز قد يكون من الجهتين أحيانًا. فمثلاً تظن بعض النساء المتدينات أن العلمانيات يدمرن هيكل الأسرة. وأنا أرى أن الوضع بدأ يتحسن، مع انخفاض حدة التوتر وزيادة الاحترام المتبادل بين النساء العلمانيات والملتزمات. فبمجرد تعاملهن معًا يدركن النقاط المشتركة الكثيرة بينهن، ويكتشفن أنه لا طائل من معاداة بعضهن بعضًا».

وقالت امرأة أخرى في إجابتها:

«أعتقد أن الأمانة تحتم علينا النظر إلى المسألة بمنظور الفرق الذي يحدثه التمسك بالإسلام. يحاول بعض الباحثين الإشارة إلى أن المسلمين الملتزمين يواجهون التحديات ذاتها التي يواجهها غير الملتزمين، فهم أيضًا مضطرون للتعامل مع نوبات الغضب أو مشكلات المراهقة. وهم أيضًا لديهم مشكلات في حياتهم المادية والعائلية والعملية، إلى غير ذلك. لكن النقطة التي تغيب عن الأذهان هي اختلاف رد الفعل تجاه كل هذه المشكلات. صحيح أننا جميعًا بشر، ولدينا نزعات إيجابية وسلبية متشابهة. لكن رد فعل المسلم الملتزم تجاه هذه التحديات أو حتى تجاه نِعم الحياة الدنيا مختلف تمامًا، على سبيل المثال، عندما يحقق شخص غير مسلم نجاحًا كبيرًا أو يُرزق بطفل، من السهل أن يصيبه الغرور والتكبر، في حين أن المسلم في نفس الموقف يسارع بحمد الله على نعمته. وينطبق الشيء نفسه على المحن. قد يجد الشخص غير الملتزم صعوبة في مواجهة المشكلات لأنه سيبحث عن السبب وراء حدوثها ويغضب من الوقائع، لكن المسلم يجد الكثير من العزاء في أبسط المشكلات، ويمكنني كتابة عدة صفحات حول هذا الموضوع. ومن بين وسائل العزاء العديدة معرفته أن هناك مشكلات أسوأ بكثير مما يمر به، وأن لديه من النِعم ما يفوق غيره بكثير، وأن هناك عدة أسباب في عالم الغيب والقدر تبرر حدوث مشكلة معينة؛ وأنها قد تكون تذكرة له أنه قد ضل الطريق، وأن الله يحذره وهو في الدنيا ليعود إلى الطريق المستقيم ويتوب قبل فوات الأوان؛ وإن لم يكن شيئًا من ذلك، فقد تكون المحنة وسيلة لمحو بعض ذنوبه».

nesemat.com نسيات nesemat.com

بذلت هؤلاء الناشطات جهدًا كبيرًا في تعليم الفتيات مهارات التواصل لتحسين علاقتهن بآبائهن وأزواجهن وأبنائهن، ومعرفة حقوقهن والمطالبة بها، وحقوق بناتهن في الالتحاق بالتعليم الثانوي والجامعي والبحث عن وظيفة.

توضح هذه الإجابات الدور المركزي الذي يلعبه الإيمان والتقوى في تحديد مختلف جوانب نظرة النساء إلى الحياة بوجه عام، وفي حل المشكلات الكبرى في مجتمع اليوم. أدركت النساء الفرق وأقررن بوجود صعوبات لكنهن يرحبن بالفكرة، ويدركن فائدة التعاون بين الناشطات في الخدمة والناشطات العلمانيات الأحرار.

النتيجة

في سياق النقاشات التي أجريتها خلال بحثي، تفكرت نساء الخدمة في مدينة كانساس حول أهداف حركة كولن، ودورهن في تحقيق هذه الأهداف. وشملت هذه الأفكار تأمل حال العالم اليوم بوجه عام، ومكانة الحركة في هذا الإطار الواسع. وقد أدى هذا التفكر والحوار إلى توصلهن إلى استنتاجيْن مهميْن.

أولاً، خلصت النساء إلى أن عالم اليوم يفيض بمشكلات كثيرة، نتج أغلبها عن ضعف انتقال القيم والمبادئ الأخلاقية التي نحتاجها في حياتنا اليومية من جيل إلى آخر. وتقع مسؤولية انتقال هذه القيم والمبادئ على عاتق الآباء بشكل رئيسي. في حين يساعد المعلمون في المدارس وغيرهم من الشخصيات المجتمعية التي يُحتذى بها في تحسين أو تصحيح هذه المبادئ. كان الدين في الماضي مصدر كل القيم والمبادئ الأخلاقية وأساسها في المجتمع، غير أن التراجع المستمر في الانخراط الديني والإيمان والممارسة، أدى إلى تقويض الأسس القيمية والأخلاقية للمجتمع. يستطيع الآباء أصحاب التوجهات الدنيوية، مثلهم مثل الملتزمين دينيًا، غرس القيم والمبادئ الأخلاقية في أطفالهم أثناء تنشئتهم، غير أن محاولات غرس القيم والمبادئ الأخلاقية اليوم، يجب أن تكون أقوى من أي وقت مضى، نظرًا لأن العالم اليوم مليء بأشخاص من مختلف المستويات لا يحترمون القيم والمبادئ الأخلاقية في أغلب شؤون حياتهم، وإغراءات الاقتداء بهم كبيرة. يشعر الكثيرون اليوم أنهم مجبرون على المشاركة في ممارسات غير أخلاقية وفاسدة لتكون لديهم فرصة التنافس على أصعدة مختلفة، أو سيظلون في وضعهم الحالي دون تقدم.

ثانيًا، تدرك نساء الخدمة الحاجة العاجلة إلى تعاون المنظمات والجماعات وعملها معًا لمواجهة هذا الوضع. ويدركن أن التزامهن بالإسلام قد يكون عائقًا في بعض الحالات. ونظرًا لأن أغلب نساء الخدمة، وليس كلهن، يغطين رؤوسهن، تزيد احتمالات مواجهتهن للتحديات أثناء محاولاتهن التعامل والتفاعل مع الآخرين.

وهن يعرفن أن بعض الجماعات في تركيا والولايات المتحدة تعتبر تغطية رؤوسهن والتزامهن الشامل بالإيمان والتقوى مشكلة. ويدركن الرأي الشائع بين العلمانيين الأحرار في

nesemat.com نسمات nesemat.com

أعتقد أن المجموعتين يمكنهما العمل معًا وقد تكون فكرة جيدة. المشكلة أن بعض هذه المنظمات علمانية، وترى الدين عقبة في وجه الحداثة وتقدم النساء. في حين تستمد نساء الخدمة قوتهن من الدين.

تركيا القائل إن المرأة التي تختار الحجاب بوعيها عقلها محجوب، هي وزوجها، كما قالت إحدى الناشطات العلمانيات الأحرار في تركيا لتبرير رفضها للنساء المرتديات غطاء الرأس في تركيا.[٢] ومع ذلك تشعر نساء الخدمة أن التزامهن الديني لا يؤثر سلبًا على جوانب حياتهن الأخرى، وأن الحجاب لا يمنع النساء بالضرورة من عيش حياة مُرضية وسعيدة ومليئة بالإنجازات المهنية. إنهن ملتزمات بالسعي لتغيير آراء وسلوكيات الأشخاص الذين يقابلونهن في حياتهن اليومية، وبتقديم إسهاماتهن لتحقيق أهداف الخدمة من خلال العمل على نشر التفاهم والسلام بمساعدة مبادرات الخدمة المستمرة، وتشجيع الحوار بين الأديان وبين الثقافات.

حاولتُ في هذه الدراسة بيان إلى أي درجة يكون التزام نساء الخدمة بالعقيدة الإسلامية وممارستها متأصلاً في كل جوانب حياتهن وهوياتهن. إن التزامهن بالإيمان والتقوى عنصر أصيل وجزء لا يتجزأ من أنشطة حياتهن اليومية، ونموهن الشخصي المستمر، وأهدافهن التعليمية والمهنية، وتعاملاتهن وعلاقاتهن الشخصية. وهن يؤمن أن الإيمان والتقوى، ومحاولاتهن الدائمة لنيل مرضاة الله، وسعيهن المستمر لتجديد وتطوير أنفسهن تمثل كلها وسائل دعم ومصدرًا للثراء. إن تمسكهن بالإيمان والتقوى هو الأساس الراسخ لبناء علاقات شخصية صحية ومنصفة، تثري حياة الطرفين على جميع الأصعدة.

المراجع

- برناديت أندريا، ٢٠٠٧، «النساء وحقوقهن: تعليق فتح الله كولن على تعيين السيدة مونتاجيو «سفيرة» في الإمبراطورية العثمانية». في آر إيه هانت وواي إيه أصلان دوجان (محرران) Muslim Citizens of the Globalized World. Contributions of the Gülen Movement. سومرست: مؤسسة The Light Inc.، الصفحات ١٦١-١٨٢.
- ماريا إف كورتس، ٢٠٠٥، حركة كولن في أمريكا: من منظور النساء، مجتمع تركي أمريكي جديد يمد جذوره.
- لارا ديب، ٢٠٠٦، An Enchanted Modern. Gender and Public Piety in Shi'i Lebanon. برينستون: دار نشر جامعة برينستون.
- صبا محمود، ٢٠٠٥، Politics of Piety. The Islamic Revival and the Feminist Subject. برينستون: دار نشر جامعة برينستون.
- إليزابيث أوزدالجا، ٢٠٠٣، اتباع خطوات فتح الله كولن. ثلاث معلمات تسردن قصصهن. في إم إتش يافوز وجيه إل إسبوزيتو (محرران) Turkish Islam and the Secular State. نيويورك: دار نشر جامعة سيراكيوز، الصفحات ٨٥-١١٤.
- كاثرين رودفير، ٢٠٠٣، The Book and the Roses. Sufi Women, Visibility and Zikr in Contemporary Istanbul. إسطنبول: مؤسسة البحث السويدية.
- آنا جيه ستيفنسون، ٢٠٠٧، ترك أثر في هيوستن: إجابات أسئلة حول النساء وحركة كولن. في آر إيه هانت وواي إيه أصلان دوجان (محرران) Muslim Citizens of the Globalized World. Contributions of the Gülen Movement. سومرست: مؤسسة The Light Inc.، الصفحات ١٤٥-١٦٠.
- عزام تراب، ٢٠٠٦، Performing Islam: Gender and Ritual in Iran. لايدن: دار نشر إيه جيه بريل.

الهوامش

(١) هذه السيدة المنتمية لحركة كولن مسجلة حاليًا في برنامج لدراسة الطب في إحدى الجامعات المحلية.

(٢) كانت هذه الناشطة تشير إلى زوجة رئيس الوزراء التركي (آنذاك "أردوغان"). وقد أوضحت أن حجاب زوجته يعني احتجاب عقله هو أيضًا، بعبارة أخرى أن عقله موصد أمام أي احتمال للتغير والتقدم، ولا سيما فيما يتعلق بالنساء. اللافت للنظر أن هذا الربط الشديد بين النساء اللاتي يغطين رؤوسهن وأزواجهن كانت له تبعات أخرى على المجتمع التركي. عندما تعرض رجال كثيرون في مناصب مهمة لخطر فقد وظائفهم، اضطروا لإخفاء حقيقة حجاب زوجاتهن عبر عزلهن في المنازل أو نقلهن بعيدًا إلى مساكن خارج المراكز الحضرية التي يعملون بها.

نموذج كولن التعليمي
ونظريات التعلّم الحديثة

نستعرض في هذه الدراسة النموذج التعليمي (التربوي) الذي قدمه فتح الله كولن في مجموعة خطب ألقاها حول الزواج وتعليم الوالدين للأبناء، مع مقارنته ببعض أهم نظريات التعلّم. نموذج كولن التعليمي مبني على الأحاديث النبوية الشريفة في أغلبه. لكن أهم ما يميز تأويل كولن هو نقاط التركيز والتفضيلات والتركيبات الفريدة التي تميزه عن التفسيرات القديمة للأحاديث النبوية، وبالتالي فإن هذا التأويل الجديد يستحق التقدير. في حين يركز نموذج كولن على تعليم الأبناء الأخلاق والقيم والسلوكيات، يمكن تطبيق اقتراحات كثيرة على تعليم المواد ذات الطابع الدنيوي.

تؤكد دراستنا أنه يمكن النظر إلى جوانب معينة في نموذج كولن بوصفها مبادئ تربوية تشابه تلك المستمدة من ثلاث نظريات تعلّم حديثة مبنية على علم النفس المعرفي؛ وهي نظرية التعلم الاجتماعي لباندورا، والنظرية المعرفية الاجتماعية لفيجوتسكي، ونظرية الترميز المزدوج لبافيو. كما تشير الدراسة إلى مبادئ وممارسات معينة تحتاج من مجتمع البحث التعليمي إلى مزيد من البحث والتقصي.

ألب أصلان دوغان

المدير التنفيذي لتحالف القيم المشتركة بنيويورك، الذي يعبر عن البيانات الصادرة من الأستاذ فتح الله غولن وحركة الخدمة فيما يخص الشؤون العامة. شغل سابقًا منصب رئيس مجلس إدارة معهد حوار الأديان في هيوستن، مؤلف وعضو مجلس تحرير مجلة "فاونتن"، وعضو هيئة تدريس في جامعة تكساس في أرلنجتون. قام بترجمة وتأليف عدد من المقالات العلمية لمجلة علمية/ دينية في تركيا عام ١٩٨٦م. نشر أصلان دوغان مقالات وألقى محاضرات حول موضوعات مختلفة، بما في ذلك العلاقة بين العلم والدين، والروحانية، وإدارة الوقت، والروحانية الإسلامية، والتحليل المقارن لنظريات التعلم، والأحاديث النبوية، والقيم الثقافية المشتركة بين أهم الأديان في العالم.

جاء في أحد التعريفات ذات الأصول السلوكية أن التعلّم عملية معرفية لاكتساب معرفة أو مهارات تؤدي إلى تغيرات في إمكانات السلوك يمكن ملاحظتها وقياسها على المدى الطويل (دائمة) (كيمبل ١٩٦١). ويرى أغلب واضعي النظريات أن التعلّم عملية تغيّر نسبي في السلوك (هيرجنهان ٢٠٠٠). وتُعرّف موسوعة ويكيبيديا على الإنترنت التعلّم بأنه:

عملية اكتساب المعرفة أو المهارات أو التوجهات أو القيم من خلال الدراسة أو الخبرة أو التعليم، وتؤدي إلى تغيّر السلوك تغيرًا دائمًا ومحددًا ويمكن قياسه، أو تتيح للفرد تكوين بناء ذهني جديد أو مراجعة بناء ذهني سابق (المعرفة التصورية مثل التوجهات أو القيم).

تتناول نظريات التعلّم طريقة حدوث عملية التعلم، ومن أهم فئات هذه النظريات التعلم السلوكي أو الوظائفي، والمعرفي أو ما وراء المعرفي، والبنائي، والفسيولوجي العصبي، والاجتماعي. ولا يعتبر هذا التصنيف تقسيمًا حصريًّا، وغالبًا ما تتداخل نظريات التعلّم فيما بينها. كما تواصل نظريات عديدة تطورها (ماكورميك ١٩٩٦، شونك ١٩٩٩، هيرجنهان ٢٠٠٠).

من بين أبرز نظريات التعلّم نظرية المعرفة الجينية لبياجيه، المعروفة باسم "نظرية التطور المعرفي" أو "البِنَى المعرفية الشكلية" (بياجيه)، و"النظرية البنائية" (برونر/ بياجيه)، و"نظرية الاشتراط الإجرائي أو السلوكي" (سكينر)، و"نظرية الثقافة الاجتماعية" (فيجوتسكي)، و"نظرية شروط التعلم" (جانييه)، والنظريات المعرفية/ ما وراء المعرفية أو التعلم المستند إلى الدماغ أو العلوم العصبية مثل "نظرية الترابطية" (ثورندايك)، والتفكير المعتمد على نصفي الدماغ، و"نظرية الترميز المزدوج" (بافيو)، وأنماط التعلم، و"نظرية الذكاءات المتعددة" (جاردنر)، ومجتمعات الممارسة أو "نظريات التعلم الاجتماعي أو الواقعي" (فيجوتسكي، باندورا، ليف)، و"نظرية استيعاب المعلومات" (ميلر) (ماكورمك ١٩٩٦، شونك ١٩٩٩، هيرجنهان ٢٠٠٠).

تركز نظريات التعلّم على طريقة حدوث عملية التعلم ونظريات التعليم وعلم التربية، وتستكشف من جانب آخر وسائل تيسير عملية التعلم. وغالبًا ما ترتبط نظرية التعلم بنموذج تعليمي أو أكثر مترتب على النقاشات الأساسية الخاصة بالنظرية. تبدأ هذه الدراسة بتحديد بعض المبادئ الرئيسية لنموذج كولن التعليمي (التربوي)، ومن ثم تقارنها بالمبادئ التعليمية المستمدة من ثلاث نظريات تعلم.

نموذج كولن التعليمي

قبل الشروع في مناقشة نموذج كولن التعليمي، من الضروري توضيح ما تشمله أو لا تشمله هذه الدراسة. نحن نشير تحديدًا إلى مجموعة النقاشات والمبادئ والممارسات التي ينادي بها كولن في خطاباته ومقالاته وكتبه التي تدور حول تعليم الصغار، على يد الوالدين بصورة أساسية والمعلمين بصورة جزئية (كولن ٢٠٠٢). يتمثل هدف هذا التعليم في غرس القيم والتوجهات والسلوكيات لدى الأطفال، وإعدادهم لمواجهة التحديات والفرص في الحياة. لا تضع هذه الدراسة في اعتبارها الممارسات التعليمية المطبقة في المدارس الخاصة المنتشرة

حول العالم، التي أسسها رجال أعمال أو تربويون تأثروا بتركيز كولن على قيمة التعليم.

في هذا السياق، يحدد نموذج كولن التعليمي خمس مسؤوليات مهمة تقع على عاتق الوالدين عند تنشئة أطفالهم: تلبية الاحتياجات البدنية،وتعليم الانضباط والآداب الملائمة لكل مرحلة عمرية، والتهذيب الأخلاقي وتعليم الإيمان والعبادات، والعدل بين الأبناء، والحماية من الأذى والضرر الذي قد يسببه أصحاب النوايا السيئة (كولن ٢٠٠٢).

لا يقتصر كولن على مناقشة تنشئة الأطفال منذ لحظة ولادتهم، بل قبل الزواج. ويؤكد أن مؤسسة الزواج ما هي إلا إعداد لبيئة التعلم التي سينشأ فيها الطفل.

الزواج على أسس سليمة

يعتبر كولن أن هدف الزواج الأسمى هو تنشئة جيل منشود، وبالتالي فإنه يوصي باختيار شريك الحياة بعد التفكير الجيد في الأهداف التعليمية على المدى البعيد، ويؤكد أن الأم هي أول وأهم معلم وأن الأب هو ثاني أهم معلم في حياة الطفل. لهذا ينصح الأشخاص المقبلين على الزواج بالتفكير في الجانب التعليمي وسمات شريك الحياة باعتبارهما عاملين مهمين عند اتخاذ قرار الزواج.

تثقيف الوالدين بشأن تنشئة الأطفال

مثلما يُطلب من البالغين اجتياز دورة تدريبية للحصول على رخصة القيادة، يقترح كولن اجتياز دورة في تعليم الأطفال قبل الزواج. بما أن تربية الأطفال لا تقل أهمية عن سلامة الأشخاص في الطرق، يجب ألا تُترك مهمة جليلة كتعليم الأبناء في أيدي الأزواج الشباب عديمي الخبرة.

الوالدان مثالاً يُحتذى بهما

يرى كولن أنه سواء شاء الوالدان أم أبيا، فإنهما المثل الأعلى لأبنائهما. لهذا فإن أفعالهما وكلامهما وطريقة تعاملهما معًا وعلاقاتهما مع الآخرين تضرب المثل لأطفالهما. يجب أن يحاول الوالدان باستمرار أن تظل صورتهما في أعين أطفالهما جليلة، بحيث يكون لتعليماتهما واقتراحاتهما وزن عند الأطفال.

يجب أن يتصرف الوالدان بالصورة التي يريدان أن يكون عليها أطفالهما عندما يكبرون. إذا أراد الوالدان أن تكون آراء طفلهم قائمة على الثقة والحب والرحمة والكرم، فعليهما تجسيد هذه الخصال في حياتهما. لأنهما إن لم يفعلا، فعلى الأرجح سينشأ شخص يفتقر إلى الثقة، محروم من الحب والرحمة والكرم.

الأم أول وأهم معلم

يشدد كولن على دور الأم باعتبارها أول وأهم معلم في حياة الطفل. ويكرر آراء النورسي الذي يرى أن ما يتعلمه الطفل من والدته يشكّل السمات الرئيسية لشخصيته، التي تنبني عليها كل جهود التعليم اللاحقة على مر حياته.

تخصيص الوقت لتعليم الطفل

بعد وضع كل النقاط سالفة الذكر في الاعتبار، يقترح كولن أن ينظر الوالدان إلى تعليم الطفل

nesemat.com نسمات nesemat.com

يجب أن يتصرف الوالدان بالصورة التي يريدان أن يكون عليها أطفالهما عندما يكبرون. إذا أراد الوالدان أن تكون آراء طفلهم قائمة على الثقة والحب والرحمة والكرم، فعليهما تجسيد هذه الخصال في حياتهما.

بوصفه مهمة جليلة وهدفًا ساميًا من أهداف حياتهما. وكما يخصصان الوقت لأداء أنشطة أخرى بصفة منتظمة، يجب عليهما تخصيص أوقات محددة لتعليم أطفالهما.

الاهتمام بإعداد وتهيئة البيئة المناسبة

يرى كولن أنه يجب على الوالدين التفكير في كل جوانب حياة الطفل، والتخطيط بدقة لإعداد البيئة المناسبة لتنشئة الطفل وتهيئتها جيدًا. ونظرًا لأن الطفل يظل يتعلم خارج حدود المنزل والمدرسة، يجب على الوالدين الانتباه أين يقضي طفلهما الوقت، والتأكد أن المصادر الأخرى التي يحصل منها على المعلومات متوافقة مع فلسفتهما التعليمية. ويسوق كولن مصفف الشعر كمثال على مصادر المعلومات الأخرى. لا بد أن يعرف الوالدان فلسفة مصفف الشعر وأسلوب حياته قبل اصطحاب طفلهما إليه.

غرس الفضائل بضرب أمثلة حقيقية

بدلاً من الحديث عن الفضائل وكيف أنها أعمال مستحبة عند الله وفي أعين البشر، يقترح كولن شرح هذه القيم وغرسها في عقل الطفل من خلال سرد مآثر الأولياء والصالحين السابقين. ويذكر كيف غرس والداه فضائل مثل الصدق والكرم والإخلاص والرحمة في نفسه من خلال إخباره بقصص صحابة النبي ﷺ.

التركيز على الإخلاص

يوصي كولن الوالدين، وأي شخص يلعب دورًا يؤهله أن يكون قدوة للطفل أن يتصرف بإخلاص وبنية صادقة. يجب ألا يكون هناك تعارض بين نوايا وأفكار الشخص وسلوكه. لهذا يشير كولن إلى أن مراقبة الطفل لتصرفات والديه أقوى تأثيرًا من أي كلمات تُقال. على سبيل المثال، عندما يرى الطفل والديه يبكيان حزنًا على معاناة البشر، سيشب مشغولاً بهذه القضية مقارنة بطفل لم يسمع سوى كلمات والديه. يضرب كولن مثالاً لأحد أئمة المدارس الفقهية الكبرى، أحضر والدان طفلهما إلى الإمام ليحدثه عن مضار الإكثار من تناول العسل. فطلب منهما الإمام العودة إلى المنزل وإحضار الطفل بعد ٤٠ يومًا. اندهش الوالدان لكنهما نفذا الأمر وعادا بطفلهما بعد مرور ٤٠ يومًا. هذه المرة، شرح الإمام للطفل بوضوح مضار الإكثار من تناول العسل ووبخه. بعدها أخبر الوالدان الإمام بسعادة أن الطفل أقلع عن عادته. وعندما سُئل الإمام عن الأربعين يومًا قال: «اليوم الذي أحضرتما فيه ابنكما كنت قد تناولت العسل، ومع وجود العسل في جسمي لم تكن كلماتي ستحمل أي معنى أو تأثيرًا حقيقيًّا. أردت أن أنتظر حتى يزول أي أثر للعسل من جسمي لتكون كلماتي صادقة».

الصدق والأمانة

أثناء تعلم الطفل دروسه الأساسية من والديه، من المهم أن يحافظ الوالدان على مصداقيتهما أمام طفلهما، وذلك من خلال التمسك بالصدق والأمانة، وهذا أمر ضروري لغرس الثقة في نفس الطفل. يجب على الوالدين أخذ طفلهما على محمل الجد والتعامل معه كشخص بالغ إلى الحد المقبول، مع مراعاة حدوده في الوفاء بواجباته

يعتبر كولن أن هدف الزواج الأسمى هو تنشئة جيل منشود. وبالتالي فإنه يوصي باختيار شريك الحياة بعد التفكير الجيد في الأهداف التعليمية على المدى البعيد.

والقيام بمسؤولياته. ينبه كولن أن الطفل قد لا يقوم بأي رد فعل فوري عند اكتشاف عدم صدق والديه، لكنه سيظل يتذكر الموقف، وقد يظهر رد فعله في وقت لاحق في موقف مشحون بالمشاعر.

مراعاة عمر الطفل

ينصح كولن بأن تكون المواد المقدمة للطفل والطريقة التي تُقدم بها مناسبين لعمره. فبعض المواد يجب ألا يتم تدريسها إلا بعمر معين، وبعض المواد من الأفضل تعليمها للطفل بالتدريج بحيث تزداد تعقيدًا كلما تقدم في العمر.

تناسب الثواب والعقاب

ينصح كولن بأن يكون التعزيز الإيجابي أو السلبي متناسبًا مع الحدث. لا بد أن ينظر الوالدان إلى علاقة الحب والثقة التي تربطهما بطفلهما بوصفها ميزة كبيرة، وأن يساعدا طفلهما على إدراك ذلك. وبالتالي فإن الأخطاء الفادحة مثل انتهاك الثقة تستتبع استجابة على قدر الخطأ، في حين أن الأخطاء البسيطة قد لا تستوجب استجابات فورية وحادة. يساعد اتباع هذه الإستراتيجية على المدى الطويل في ترتيب الأولويات بصورة صحيحة في عقل الطفل.

نظريات التعلم ونموذج كولن التعليمي

سوف نتناول النموذج التعليمي الذي اقترحه كولن وعلاقته بالمبادئ التربوية المستمدة من ثلاث نظريات تعلّم، هي نظرية التعلم الاجتماعي لباندورا، والنظرية المعرفية الاجتماعية لفيجوتسكي، ونظرية الترميز المزدوج لبافيو.

١- نظرية التعلم الاجتماعي لباندورا ونموذج كولن التعليمي

تركز نظرية التعلم الاجتماعي أو التعلم بالملاحظة على تغير سلوك الشخص عبر ملاحظة سلوك نموذج معين. «قد يتأثر سلوك الشخص بالنتائج الإيجابية أو السلبية -وهو ما يعرف بالتعزيز أو العقاب البديل- لسلوك نموذج معين» (باندورا ١٩٦٣، باندورا ١٩٧١، باندورا ١٩٨٦، كلارك ١٩٩١، باندورا ١٩٩٣). ترى هذه النظرية أن هناك عدة عوامل تؤثر على عملية تعلّم السلوك الملاحظ وطريقة تعلمه وتطبيقه كسلوك. ينطوي التعلم بالملاحظة على أربع مراحل؛ هي الانتباه، والحفظ، والتقليد، والدافعية.

يعد الانتباه عنصرًا جوهريًا في التعلم. ويتأثر الانتباه بعوامل مثل ما يفضله أو لا يفضله المتعلم في النموذج، وتوقعات المتعلم، ومستوى الاستعداد الانفعالي، كما يعتبر الحفظ ضروريًا ليحدث التعلم المستمر. ومما يسهّل عملية الحفظ ويزيدها، قدرة المتعلم على تحويل المعلومات إلى نموذج عقلي أو شكل يسهل استرجاعه. يشير التقليد إلى قدرة المتعلم العقلية أو البدنية على تقليد السلوك المرغوب. وقد تتطلب عملية التقليد أحيانًا استخدام مهارات لم يكتسبها المتعلم بعد.

وأخيرًا، لا يقوم الشخص بالسلوك المرغوب إلا إذا كان لديه قدر من الدافعية أو حافز للقيام به. وهناك عوامل كثيرة تؤثر على الدافعية، من أهمها التعزيز أو العقاب، سواء للنموذج أو للمتعلم

يقترح كولن اجتياز دورة في تعليم الأطفال قبل الزواج. بما أن تربية الأطفال لا تقل أهمية عن سلامة الأشخاص في الطرق، يجب ألا تُترك مهمة جليلة كتعليم الأبناء في أيدي الأزواج الشباب عديمي الخبرة.

nesemat.com نسمات nesemat.com

مباشرة. ومن أهم عناصر الدافعية في نظرية باندورا الفعالية الذاتية؛ والتي تُعرف بأنها «إيمان الفرد بقدرته على السيطرة على أفكاره ومشاعره وأفعاله، وبالتالي التأثير على النتيجة» (باندورا ١٩٩٤). يرتبط تصور المتعلم لفعاليته الذاتية بأدائه الفعلي (لوك ١٩٨٤، شونك ١٩٨١) بما في ذلك أداؤه الأكاديمي (مولتن ١٩٩١)، وإنجازه (أمس ١٩٨٤، نيكولز ١٩٨٤)،وانفعالاته (باندورا ١٩٧٧)، وجهوده ومثابرته (براون ١٩٧٨).

يشير باندورا إلى أربع مصادر أساسية يحصل المتعلم على المعلومات منها لتقييم فعاليته الذاتية: (١) التجارب الفعلية، (٢) التجارب البديلة أو الملاحظة، (٣) الإقناع اللفظي، (٤) المؤشرات الفسيولوجية. في حين تعتبر تجارب الشخص الفعلية أكثر مصدر موثوق للتقييم، فإنها أيضًا أكثر مصدر يستهلك الوقت ولا يمكن الاعتماد عليه دائمًا. تساعد ملاحظة الأقران أو البالغين وهم يؤدون المهام المماثلة في تعزيز الفعالية الذاتية، غير أن هذا التأثير لا يحدث تلقائيًا. تخضع المعلومات المكتسبة من الأقران والبالغين للمعالجة المعرفية قبل إطلاق حكم بشأن الفعالية الذاتية. ومن العوامل المهمة التي تؤثر في التعلم بالملاحظة مصداقية مصدر الإقناع (شونك ١٩٩٨). فكلما زادت مصداقية النموذج زاد تأثير أفعاله على المتعلم. تتماشى الملاحظات الخاصة بالفعالية الذاتية والمصداقية مع تأكيد كولن على دور القدوة وأهمية مصداقيتها.

يؤكد كولن عند تعليم القيم والتوجهات على استخدام طريقة سرد قصص الأتقياء والصالحين بدلاً من الإقناع اللفظي (كولن ٢٠٠٢). عادة ما ينعم الأتقياء في نهاية هذه القصص إما براحة البال أو قبول المجتمع أو الثواب من الله. في نظرية التعلم الاجتماعي لباندورا، يتأثر اعتناق السلوك أو الرأي بنتائج أفعال النموذج. إذا كانت نتائج أفعال النموذج إيجابية بالنسبة له، فسوف تزيد احتمالات أن يقلد المتعلم سلوك النموذج. واستخدام طريقة سرد القصص الحقيقية وسيلة جيدة لإثارة الصور الذهنية بمحفزات لفظية سنناقشها لاحقًا.

٢- النظرية المعرفية الاجتماعية لفيجوتسكي ونموذج كولن التعليمي

يعد فيجوتسكي واحدًا من أهم العلماء الذين قدموا إسهامات جليلة لعلم التعلّم بفضل النظرية المعرفية الاجتماعية (فيجوتسكي ١٩٦٢، فيجوتسكي ١٩٧٨). تولي نظريته أهمية بالغة للثقافة التي ينشأ فيها الطفل. لا شك أن كل طفل ينشأ في إطار ثقافة معينة، وهذه الثقافة هي العامل الرئيسي المحدِّد لسمات نشأة الفرد وفقًا للنظرية المعرفية الاجتماعية. يتأثر تطور تعلم الطفل بالثقافة، بما في ذلك ثقافة البيئة المنزلية، من جانبين: أولهما نوعية أفكار الطفل، وثانيهما طريقة أو وسيلة تفكيره، وتسمى أدوات النمو الفكري.

كل وظيفة عقلية في نمو الطفل الثقافي لها مستويان: المستوى الاجتماعي أولاً، ثم يأتي المستوى الفردي لاحقًا، أولاً بين الأفراد، وثانيًا

nesemat.com نسيات nesemat.com

يقترح كولن أن ينظر الوالدان إلى تعليم الطفل بوصفه مهمة جليلة وهدفًا ساميًا من أهداف حياتهما. وكما يخصصان الوقت لأداء أنشطة أخرى بصفة منتظمة، يجب عليهما تخصيص أوقات محددة لتعليم أطفالهما.

داخل الفرد. ويتضمن ذلك وظائف الانتباه الإرادي، ثم الذاكرة المنطقية، وتكوين المفاهيم. وتنشأ كل الوظائف المعرفية العليا عن العلاقات التفاعلية بين الناس (فيجوتسكي ١٩٧٨، ص ٥٧).

إن تأكيد فيجوتسكي على دور الثقافة، بما في ذلك البيئة المنزلية، يشبه تأكيد كولن على مسؤولية الوالدين في مراقبة تجارب الطفل داخل بيئتهما. يرى كولن أن الطفل يتعلم في كل سياقات الثقافات. وحتى تكون الرسائل التي ترد إلى الطفل متسقة كلها، يجب على الوالدين مراقبة بيئة الطفل من كل جوانبها، ليس في المنزل والمدرسة فحسب. تؤكد النظرية المعرفية الاجتماعية أن التفاعلات مع الثقافة المحيطة والعوامل الاجتماعية، مثل الوالدين والأقران الكفؤ، يسهم إسهامًا كبيرًا في النمو الفكري للطفل.

من بين العوامل المهمة في نظرية فيجوتسكي فكرة «منطقة التطوير القريبة». يشير هذا المصطلح إلى مستوى التطور المحتمل الذي يستطيع المتعلم إحرازه بمساعدة قرين أو مرشد، مقارنة بمستوى التطور الفعلي للمتعلم في وقت معين. يستطيع الطفل التعلم بكفاءة وفعالية أكبر بكثير عندما يتم تصميم نشاط التعلم فوق مستوى تطوره الحالي. يستطيع البالغ المشرف على تعليم الطفل الارتقاء بمستوى تعليمه من خلال التعديل المستمر لمستوى صعوبة عملية التعلم. نلاحظ أن مفهومي منطقة التطوير القريبة والتعديل المستمر يماثلان مبدأ كولن القائل بأن التعليم يجب أن يتناسب مع مستوى التطور. يوضح كولن أن مسؤولية الوالدين والمعلمين هي تقييم مستوى التطور وعدم إغفال العلامات الدالة عليه.

٣- نظرية الترميز المزدوج لبافيو ونموذج كولن التعليمي

ينادي كولن باستخدام قصص الصالحين الذين عاشوا في الماضي، لغرس القيم في نفوس الأطفال، مقارنة بالاقتصار على الحديث عن هذه القيم. فاستخدام القصص الواقعية يثير مخيلة الطفل وذاكرته البصرية.

تنص نظرية الترميز المزدوج لبافيو على أن الإدراك البشري يقوم على آليات وعمليات معالجة متخصصة للتعامل مع اللغة والأشياء غير اللفظية مثل الصور (كلارك ١٩٩١، بافيو ١٩٧١، بافيو ١٩٨٦).

«الإدراك البشري فريد من نوعه، حيث أصبح متخصصًا في التعامل مع اللغة والأشياء والأحداث غير اللفظية في نفس الوقت. علاوة على ذلك، فإن نظام اللغة غريب، لأنه يتعامل مع المدخلات والمخرجات اللغوية (في شكل خطاب أو كتابة) مباشرة، ويؤدي في الوقت نفسه وظيفة رمزية فيما يتعلق بالأشياء والأحداث والسلوكيات غير اللفظية. يجب أن تستوعب أي نظرية تمثيلية هذه الوظيفة المزدوجة.» (بافيو ١٩٨٦، ص ٥٣)

تُطبق نظرية الترميز المزدوج على المواقف التعليمية كحل المشكلات، وتعلم المفاهيم، وتعلم اللغة. تفترض هذه النظرية وجود نظامين للإدراك؛ أحدهما متخصص في تمثيل ومعالجة المعلومات

تؤكد النظرية المعرفية الاجتماعية أن التفاعلات مع الثقافة المحيطة والعوامل الاجتماعية، مثل الوالدين والأقران الأكفاء، يسهم إسهامًا كبيرًا في النمو الفكري للطفل.

اللغوية (اللفظية) والآخر متخصص في معالجة المعلومات غير اللفظية مثل الصور. وتحدد النظرية ثلاثة أنواع من المعالجة المعرفية: (١) المعالجة التمثيلية، حيث تنشط الأوصاف غير اللفظية مباشرة، (٢) المعالجة المرجعية، حيث ينشط النظام اللفظي بواسطة النظام غير اللفظي والعكس، (٣) المعالجة الترابطية، حيث ينشط النظام اللفظي أو غير اللفظي بنفسه. وقد تحتاج أي مهمة لنوع واحد أو أكثر من هذه الأنواع.

إن المبدأ التربوي الذي تعتمد عليه نظرية الترميز المزدوج هو تمثيل المعلومات بشكلين لفظي وغير لفظي مثل الصور الفعلية أو الذهنية. ويمكن النظر إلى اقتراح كولن بغرس الفضائل عبر قصص الصالحين بوصفه شكلاً من أشكال إثارة التخيلات بواسطة محفز سمعي. تساعد هذه التخيلات المتعلم على بناء صور ذهنية وترميز المفاهيم في عقله الباطن بمساعدة الذاكرة اللفظية وغير اللفظية. وقد يساعد هذا النوع من التخيلات الطفل على التعلم بوسائل أخرى إلى جانب استخدام الذاكرة المرئية، مثل زيادة تصديق النموذج والتعلق به (برودي ١٩٨٧، كاوفمان ١٩٩٦).

تحليل مصادر المعلومات

ورد في سيرة أونال (أونال ٢٠٠٠، أونال ٢٠٠١) أن كولن لم يتلق تعليمًا رسميًّا قط لنظريات التعلّم. كما لا يوجد دليل يؤيد أنه تعلم هذه النظريات بنفسه. كثيرًا ما يشير في خطبه إلى فلاسفة وعلماء غربيين على غرار كانت وباسكال وكومت وجيمس جين وغيرهم، لكنه لم يتحدث مرة واحدة عن أصحاب نظريات التعلم. لكننا نعرف أن كولن يتمتع بمعرفة شاملة بالأحاديث النبوية. ولا شيء أدل على ذلك من قيامه بتخصيص فصل كامل في كتابه عن حياة النبي محمد ﷺ حول الجوانب التعليمية في حياته (كولن ١٩٩٦). وبالتالي فإن نموذج كولن التعليمي ليس ثمرة التعرف على نظريات التعلم الحديثة. بل إنه تفسيره الخاص -التقليدي جزئيًا والمبتكر جزئيًا- ورؤيته للأحاديث النبوية. ومن هذا المنطلق، يسعدنا الإشارة إلى أن الكثير من المبادئ والممارسات الخاصة بنموذج كولن التعليمي تدعمها نظريات تعلم حديثة والنماذج التربوية المرتبطة بها.

الخاتمة

تناولنا في هذه الدراسة بعض أهم سمات نموذج كولن التعليمي، الذي يعتمد في جزء منه على تعليم الوالدين وفي جزء على التعليم المدرسي لغرس القيم والاتجاهات والسلوكيات في نفوس الأطفال. وأشرنا كيف أن بعض الجوانب المهمة في هذا النموذج تشابه النماذج التربوية المستمدة من نظريات التعلم الحديثة؛ ولا سيما نظرية التعلم الاجتماعي لباندورا، والنظرية المعرفية الاجتماعية لفيجوتسكي، ونظرية الترميز المزدوج لبافيو. يعتبر هذا التشابه أمرًا مثيرًا للاهتمام عندما نعرف أن كولن لم يدرس نظريات التعلم الحديثة أو يعلمها لنفسه. وما زال البحث مطلوبًا بغرض تقصي الجوانب الأخرى لهذا النموذج التعليمي، وتحديد

nesemat.com نسيات nesemat.com
اليوم الذي أحضرتما فيه ابنكما، كنت قد تناولت العسل. ومع وجود العسل في جسمي لم تكن كلماتي ستحمل أي معنى أو تأثيرًا حقيقيًّا. أردت أن أنتظر حتى يزول أي أثر للعسل من جسمي لتكون كلماتي صادقة.

ما إذا كان سيحقق نتائج إيجابية عند تعليم القيم والأخلاقيات والسلوكيات في مجتمع متنوع دينيًا.

المراجع

- (أمس ١٩٨٤) سي أمس (١٩٨٤)، «هياكل الأهداف التنافسية والتعاونية والفردية: تحليل معرفي تحفيزي»، في آر إيه أمس وسي أمس (محرران)، بحث حول التحفيز في التعليم: تحفيز الطلاب (المجلد ١، ص ١٧٧-٢٠٧)، نيويورك، المطبعة الأكاديمية.
- (باندورا ١٩٦٣) ألبرت باندورا وآر والترز (١٩٦٣)، «التعلم الاجتماعي ونمو الشخصية»، نيويورك: دار نشر «هولت ورانيهارت ووينستون».
- (باندورا ١٩٧١) ألبرت باندورا (١٩٧١)، «نظرية التعلم الاجتماعي»، نيويورك: مطبعة «جنرال ليرنينج».
- (باندورا ١٩٨٦) ألبرت باندورا (١٩٨٦)، «الأسس الاجتماعية للفكر والفعل»، إنجلوود كليفس، نيوجيرسي، دار نشر «برينتس هول».
- (باندورا ١٩٩٣) ألبرت باندورا (١٩٩٣)، «الفعالية الذاتية المدركة في النمو المعرفي والأداء»، جريدة Educational Psychologist، العدد ٢٨ (٢)،.ص ١١٧-١٤٨.
- (باندورا ١٩٩٤) ألبرت باندورا (١٩٩٤)، «الفعالية الذاتية»، في في إس راماشودران (محرر)، موسوعة السلوك البشري (المجلد ٤،.ص ٧١-٨١)، نيويورك، دار النشر الأكاديمية. (أعيدت الطباعة في إتش فريدمان (محرر)، موسوعة الصحة النفسية، سان دييجو، دار النشر الأكاديمية، ١٩٩٨).
- (برودي ١٩٨٧) هاري صامويل برودي، «دور المخيلة في التعلم»، لوس أنجلوس: مركز جيتي للتعليم في مجال الفنون، ١٩٨٧.
- (براون ١٩٧٨) آي براون جونيور ودانيل كين إنوي (١٩٧٨)، «العجز المتعلم عبر النماذج: دور التشابه المدرك في الكفاءات»، جريدة Journal of Personality and Social Psychology، العدد ٣٦، ص ٩٠٠-٩٠٨.
- (كلارك ١٩٩١) جيه إم كلارك وألان بافيو (١٩٩١)، «نظرية الترميز المزدوج والتعلم»، جريدة Educational Psychology Review، العدد ٣ (٣)،.ص ١٤٩-١٧٠.
- (كولن ١٩٩٦) فتح الله كولن (١٩٩٦)، «النبي محمد: جوانب من حياته»، مؤسسة The Light Inc.
- (كولن ٢٠٠٢) فتح الله كولن (٢٠٠٢)، «من البذرة إلى الشجرة: منظور آخر للتعليم الأسري، باللغة التركية»، شركة Nil A.S.، إزمير، تركيا، ٢٠٠٢.
- (هيرجنهان ٢٠٠٠) بولدوين روس هيرجنهان وآخرون (٢٠٠٠)، «مقدمة إلى نظريات التعلم»، دار نشر «برينتس هول».
- (كاوفمان ١٩٩٦) جي كاوفمان (١٩٩٦)، «الوجوه العديدة للصور الذهنية»، أكسفورد: مطبعة جامعة أكسفورد.
- (كميبل ١٩٦١) جيه إيه كيمبل (١٩٦١)، «الشرطية والتعلم عند هيلجارد وماركيز»، مؤسسة Appleton-Century-Crofts, Inc.، نيويورك.
- (لوك ١٩٨٤) إدوين إيه لوك وجاري بي لاثام (١٩٨٤)، «وضع الأهداف: تقنية تحفيزية ناجحة»، إنجلوود كليفس، نيوجيرسي: دار نشر «برينتس هول».
- (ماكورميك ١٩٩٦) كريستين بي ماكورميك وآخرون (١٩٩٦)، «علم النفس التعليمي: التعلم والتدريس والتقييم»، دار نشر «أديسون ويزلي».
- (مولتن ١٩٩١) كارين دي مولتن، وإس دي براون، وروبرت دابليو لينت (١٩٩١)، «علاقة معتقدات الفعالية الذاتية بالمخرجات الأكاديمية: بحث ما وراء تحليلي»، جريدة Counseling Psychology، العدد ٣٨، صص ٣٠-٣٨.
- (نيكولز) جون جراهام نيكولز (١٩٨٤)، «الدافعية للإنجاز: مفاهيم القدرة والخبرة الذاتية واختيار المهمة والأداء»، جريدة Psychology Review، العدد ٩١، ص ٣٢٨-٣٤٦.
- (بافيو ١٩٧١) ألان بافيو (١٩٧١)، «عمليات معالجة الصور والمعلومات اللفظية»، نيويورك، دار نشر «هولت ورانيهارت ووينستون».
- (بافيو ١٩٨٦) ألان بافيو (١٩٨٦)، «التمثيلات العقلية»، نيويورك: مطبقة جامعة أكسفورد.
- (شونك ١٩٨٩) ديل إتش شونك (١٩٨٩)، «الفعالية الذاتية والإنجاز المعرفي: النتائج بالنسبة للطلاب ذوي مشكلات التعلم»، جريدة Learning Disabilities، العدد ٢٢، ص ١٤-٢٢.
- (شونك ١٩٨١) ديل إتش شونك (١٩٨١)، «تأثيرات النمذجة والإسناد على إنجاز الأطفال: تحليل الفعالية الذاتية»، جريدة Learning Disabilities، العدد ٧٣، .ص ٩٣-١٠٥.
- (شونك ١٩٩٩) ديل إتش شونك (١٩٩٩)، «نظريات التعلم: من منظور تعليمي»، دار نشر «برينتس هول».
- (أونال ٢٠٠٠) إيه أونال، «فتح الله كولن: مقال عن لوحة شخصية»، إسطنبول: شركة النيل، ٢٠٠٠.
- (أونال ٢٠٠١) أونال وعلي وألفونس ويليامز، ٢٠٠١، «داعم الحوار: فتح الله كولن»، فرجينيا: دار نشر «ذي فاونتن».
- (فيجوتسكي ١٩٦٢) ليف إس فيجوتسكي (١٩٦٢)، «التفكير واللغة»، كامبريدج، ماساشوستس: مطبعة MIT، (نشر العمل الأصلي عام ١٩٣٤).
- (فيجوتسكي ١٩٧٨) ليف إس فيجوتسكي (١٩٧٨)، «العقل في المجتمع: تطور العمليات النفسية العليا»، كامبريدج، ماساشوستس: مطبعة جامعة هارفارد.

نظرة كولن للتعليم

أساس أفكاره وأفعاله

يؤمــن كولن أن التعليم يلعب الدور الأســاسي في إرســاء القيم التي تجعل الشخص إنسانًا حقيقيًّا. ويرى أن التعليم هو الوســيلة الأجمل لاعتناق الحياة برمتها، وصاحب الدور الأهم في نــشر التناغم والتوازن والانضبــاط والنظام في حياة الفرد وحياة الجماعة.

كذلك يؤمن كولن أن التعليم يوفر فرصة العيش بسلام مع أشخاص من مختلف الديانات واللغات والثقافات والأمم. ذلك لأن التعليــم يجعل الأشــخاص يتعلمون كيــف يفهم أحدهم الآخر، أو على الأقل كيف يحترم أحدهم الآخر وقيمه.

كــما يؤمن كولن أن التعليم قــادر على إنقاذ حياة الفرد في الدنيــا وفي الآخــرة. ويؤكد أن أســمى خدمة يؤديهــا المرء في الدنيا هي خدمة البشرية، وأن أسمى خدمة يؤديها للبشرية هي التعليم. ولهذا السبب، كرس نفسه لخدمة البشرية والتعليم.

لقــد تحولت أفكار كولن حــول التعليــم إلى طريقة حياة بالنســبة للكثيريــن بفضل مجموعــة القيم التي ســعى طويلاً لتصبح جزءًا متأصلاً من حياته.

علي أونسال

حصل على الدكتوراه عام ٢٠٠٩ في أصول الدين الإسلامي من جامعة سلجوق في قونيا. تناول موضوع بحثه العوامل التي تؤثر على توجهات الفرد نحو الإسلام ومعرفته به أثناء الإقامة في العاصمة واشنطن. ترأس دكتور أونسال جمعية الصداقة الأمريكية التركية في فيرفاكس بولاية فرجينيا، وشغل منصب الأب الروحي في المركز الطبي لشؤون المحاربين القدماء في العاصمة واشنطن. كما تطوع لشغل منصب رئيس مجلس منتدى الرومي خلال الفترة بين عامي ٢٠٠٣ و٢٠٠٩. قام دكتور أونسال في عام ٢٠٠٧ بتأسيس معهد الدراسات الإسلامية والتركية وكان مديره التنفيذي. ويشغل حاليًا منصب مدير كرسي فتح الله كولن في جامعة شريف هداية الله الإسلامية في جاكرتا، له عدد كبير من المقالات حول علم أصول الدين الإسلامي منشورة في المجلات والمواقع الأكاديمية.

البشر والمعرفة

عندما نتناول موضوع التعليم، من المفيد أن نتحدث عن البشر بوصفهم العنصر الرئيسي في فلسفة كولن التعليمية، والعلم بوصفه ثمرة هذا التعليم الموجّه. يشير كولن إلى أن البشر يأتون إلى هذا العالم بإمكانات وقدرات هائلة، إذا تم توجيهها بطريقة صحيحة، فسيفوقون الملائكة. وعلى العكس، إن ضلوا الطريق فسيهوون إلى أحط الدرجات حتى ينتهي بهم المطاف مع الشيطان. الإنسان هو أسمى مخلوق بين جميع المخلوقات، حيث مكّنه الله في الأرض واستخلفه على باقي المخلوقات. لهذا السبب يؤمن كولن أن تعليم البشر أصحاب هذه الإمكانات العالية والموارد الفطرية ما هو إلا دِيْن يجب رده للبشرية. ذلك أن الأجيال المثالية المتعلمة ستكون كنزًا للبشرية، في حين أن الأجيال غير المتعلمة ستكون خسارة كبيرة ووبالاً على العالم.

يقول كولن عن المعرفة وأهدافها: "نظرًا لأنه لا يمكن عيش الحياة "الحقيقية" إلا بواسطة المعرفة، فإن أولئك الذين يهملون التعلّم والتدريس "أموات" حتى وإن كانوا على قيد الحياة؛ لأننا خُلقنا لنتعلم وننقل ما تعلمناه للآخرين.

يعتمد اتخاذ القرارات الصائبة على العقل السليم والتفكير السليم. وبما أن العلم والمعرفة ينيران العقل وينميانه، فإن أولئك المحرومين من العلم والمعرفة لا يمكنهم اتخاذ قرارات صائبة، وهم عرضة دائمًا للخداع والضلال." (كولن، ٢٠٠٦، ص ٥٠).

كولن مفكر يعتنق فلسفة الشاعر الصوفي الأناضولي يونس أمره الذي يقول: "نحب المخلوق من أجل الخالق". بسبب حب كولن غير المشروط لكل البشر، نجده متأثرًا بشدة لوضع الشعب الأفغاني الذي يعاني ويلات الحرب، ويبكي حال المدنيين الأبرياء الذين يُقتلون في البوسنة، ويتضرع أيامًا طويلة لرفع البلاء عن العراق، ويسجد من أجل ضحايا تسونامي في إندونيسيا. إنه رجل رقيق القلب تشغل باله المشكلات التي تواجه كل البشر، ولا يكتفي بمشاركتهم الهمّ بل يبحث عن وسيلة لتخفيف آلامهم. لقد أصبح هدف حياته رسم البسمة على وجود المنكوبين، ومهمته الوحيدة مد يد العون للمحتاجين، وتخفيف آلام المكروبين، والشد على يد اليتامى، ومساندة الضحايا. فهو يراها فرصة مثالية لنيل مرضاة الله والأجر والثواب من الخالق العظيم (كولن، ١٩٩٣).

يقول كولن إن العقل أهم ما يميز الإنسان. لكنه يرى أن عقل الإنسان في صورته البدائية بسيط ومغلق ويحتاج إلى تثقيف وتنوير. وعندما يتكامل العقل مع الإرادة البشرية، فإنه يكتسب

يؤمن كولن أن تعليم البشر أصحاب الإمكانات العالية والموارد الفطرية، ما هو إلا دَيْن يجب رده للبشرية. ذلك أن الأجيال المثالية المتعلمة ستكون كنزًا للبشرية، في حين أن الأجيال غير المتعلمة ستكون خسارة كبيرة ووبالاً على العالم.

طبيعة جديدة تؤهله لأداء مهمته الأساسية؛ ألا وهي الوصول إلى "معرفة الله". والوصول إلى هذه المرتبة أحد العوامل المهمة التي تساعد البشر على تحقيق النضج والكمال، وتبعدهم عن السلوكيات الحيوانية، وتشجعهم على فعل الخيرات. والبديل أن يصبح العقل حملاً ثقيلاً على صاحبه، وبلاء على قلبه، وفي نهاية المطاف يتحول إلى أداة تجذب البشر إلى أسفل، وتهوي بهم إلى مرتبة أدنى من مراتب الحيوانات (كولن، ٢٠٠٩، ص ٤٩-٥٣).

يستطيع التعليم الجيد إنقاذ العقل من براثن الجهل، حتى لا يتحول إلى سكين حاد يجرح الإنسان، بل أن يصبح أداة مفيدة تخدم البشرية جمعاء. ولن ينجح هذا التغيير في تشكيل العقول دون إيمان. المعرفة خطوة مهمة في طريق الإيمان، ومعيار أساسي يميز بين الهدى والضلال، المعرفة لغز إلهي (كولن، ٢٠٠٧، الجزء ٢، ص ٢٢).

ينظر كولن إلى التعليم باعتباره العامل الأساسي في رسم مستقبل أي مجتمع. فالقيم الأخلاقية والاجتماعية لا تتجسد إلا في المجتمعات. وتعليم هذه القيم لعامة الناس في المجتمع أمر ضروري ليعم التناغم والانسجام. وقد أوضح كولن هذه النقطة في إحدى مقالاته قائلاً: "أيًّا كان الدور الذي يلعبه الزواج والتناسل في استمرار الأجيال، فإن التعليم يلعب دورًا شبيهًا في استمرار المبادئ الأخلاقية والاجتماعية" (كولن، ١٩٩٨، ص ٩٨-١٠١).

التعليم

يرى كولن أن البشر أتوا إلى العالم تملؤهم حاجة قوية لتعلم أهم احتياجات حياتهم الأساسية، على عكس المخلوقات الأخرى. على سبيل المثال، في حين يحتاج الحيوان من يومين إلى سبعة أيام لتعلم المشي وإتقان أداء الوظائف الحيوية، يظل الإنسان ما يقرب من عام كامل ليتعلم المشي، ونحو عامين ليتعلم الكلام، وقرابة عشرين عامًا للتمييز بين الأمور الجيدة والسيئة، مع إنها عملية طويلة تستمر حتى وفاته (كولن، ٢٠٠٩، ص ١٦٤-١٦٨).

يؤكد كولن-كغيره من الباحثين المعاصرين- على أهمية التربية الأسرية في مرحلة الطفولة المبكرة، وخاصة في الفئة العمرية من الميلاد حتى ٦ أعوام. فهو يرى أنها فئة عمرية حرجة يجب فيها توفير التعليم المناسب للأجيال الجديدة، حتى يتعلموا مفهوم «الحلال» و«الحرام»، ويتعلموا الأمانة، ويدركوا مسؤولية تأسيس أسرة في المستقبل تحترم القيم الأخلاقية والاجتماعية. يرى كولن أن الأبوة تلعب دورًا مهمًّا في صلاح الأطفال الأخلاقي، ويحث المقبلين على الإنجاب على الاستعداد الجيد قبل الإقدام على هذه الخطوة، والحرص الشديد على اتباع نمط حياة حلال أثناء فترة الحمل. يقول كولن إن الجنين لا يتأثر بحالة الأم النفسية فحسب، بل أيضًا بالأصوات التي يسمعها في البيئة المحيطة، وهذا يتماشى مع النتائج التي توصلت إليها النظريات التربوية الحديثة. لهذا فإنه

nesemat.com نسيات nesemat.com

إن أولئك الذين يهملون التعلّم والتدريس "أموات" حتى وإن كانوا على قيد الحياة؛ لأننا خُلقنا لنتعلم ولننقل ما تعلمناه للآخرين.

يشجع جميع المقبلين على الإنجاب على تبادل كلمات لطيفة في حديثهم اليومي؛ لأنه يعتقد أن شخصية الطفل قد تتأثر سلبًا عند سماع كلمات نابية (كولن، ٢٠٠٢، ص ٦٢).

يؤمن كولن بأهمية عملية التعلم داخل الأسرة. لهذا فإن تأسيس الأسرة في بيئة تتمسك بقوة بالقيم والقواعد والنظام والانضباط أمر مهم جدًا. ولا شك أن مشاعر الحب والعطف والسلام التي يختبرها الطفل في بداية نشأته في الأسرة لها تأثير إيجابي مباشر على شخصيته وصحته البدنية. تشير الإحصاءات الحديثة إلى أن الأشخاص الذين يرتكبون الجرائم بكثرة إما يعانون من مشكلات أسرية أو ينحدرون من أسر غير مستقرة. لهذا يرى كولن أن الأسرة المتماسكة والنظام الأسري المستقر أمران ضروريان لتنشئة الأجيال الجديدة تنشئة صحية واستمرار الهيكل الاجتماعي بصورة سليمة. مهما بلغ تأثير المدرسة ومهما عظمت القيم التي تقدمها للطفل، فإنها لن تكون بنفس قوة القيم التي تغرسها فيه الأسرة (كولن، ٢٠٠٢، ص ٦٣-٦٥).

كذلك يشير كولن إلى أنه ينبغي لنا عند محاولة تربية أطفالنا أن نعطي الأولوية لغرس قيم الإيمان بالخالق العظيم، واحترام وتقدير كل من سبقونا ونقلوا لنا تعاليمه، وبر والدينا، وحب واحترام كل الناس، واستخدام اللغة بمهارة، والالتزام بالمبادئ الوطنية وحب الوطن (كولن، المرجع السابق، ص ٨٦-٨٨).

فيما يلي بعض السلوكيات والتصرفات المهمة الواجب مراعاتها عند تربية الأطفال: اتساق أقوال وأفعال الآباء، ومراعاة إقامة علاقات وثيقة مع الأطفال، ومراقبة نموهم عن كثب، والمشاركة الفعالة في ألعابهم اليومية، وتعزيز شخصيتهم من خلال تخصيص الغرف والكتب والخزانات لهم، والتعامل معهم بعطف، ومعانقتهم تعبيرًا عن الحب، ومناداتهم بالأسماء التي يحبونها، وسؤالهم باستمرار عن مشاعرهم، والوقوف معهم ومساعدتهم في الصعاب مع إبداء تفهم شديد، ومنحهم بعض الحرية لممارسة الألعاب التي يفضلونها، وتكليفهم بمهام بين الحين والآخر ومتابعتهم برقة، وإزالة أي أشياء ضارة أو غير مناسبة من منطقة لعبهم، وتوفير أغراض تعليمية وإيجابية في محيطهم (كولن، المرجع السابق، ص ١٥٠).

يؤكد فتح الله كولن على ضرورة اتباع نهج إيجابي في التعليم، بالتعاون مع الدولة، على أن تدعمه الأسرة، وأجواء الحي الآمنة الودودة، والمطبوعات المناسبة التي تخاطب عقول العامة وتتناول القيم الإنسانية العالمية. يستطرد كولن قائلاً: «إنه عندما تتعاون الأسرة والمدرسة والمجتمع معًا لغرس القيم الرفيعة في الأجيال الجديدة، وتغذية أرواحهم وحمايتها من التقلبات الاجتماعية، وتقوية عزيمتهم، حينها فقط يمكننا اعتبار أنفسنا قد أدينا واجبنا لنأمل في مستقبل أفضل» (كولن، المرجع السابق، ص ١٥١-١٥٣).

nesemat.com نسمات nesemat.com

يشير كولن إلى أنه ينبغي لنا عند محاولة تربية أطفالنا أن نعطي الأولوية لغرس قيم الإيمان بالخالق العظيم، واحترام كل من سبقونا ونقلوا لنا تعاليمه، وبر والدينا، واحترام كل الناس، واستخدام اللغة بمهارة، والالتزام بالمبادئ الوطنية وحب الوطن.

يتطلع كولن لتنشئة أجيال مثالية. إذا تعلم أطفال اليوم القيم والمُثل العليا، وركزوا على تحقيق أهداف مناسبة، فسيغدون شباب المستقبل المفعم بالإمكانات والطاقة. سيكون الجيل الذي تنتظره البشرية بأكملها. يكمل كولن قائلاً: «إن الأشخاص الآن يستغلون كل قدراتهم للحفاظ على مناصبهم وكسب رضا رؤسائهم، وهي أمور مهينة تحط من قدر الإنسان. وإذا سعوا إلى الترقي، فلن يفكروا في أي شيء آخر بخلاف الترقية حتى وإن خسروا كرامتهم وشرفهم، وقاموا بأمور تناقض ما يمليه عليهم ضميرهم وإيمانهم. سوف ينحنون أمام أي شخص ينتظرون منه منفعة، ويتصرفون بضعف شخصية للدرجة التي تجعلهم يتحدثون بالسوء عن شخص أثنوا عليه في اليوم السابق.» (كولن، ١٩٩٨، ص ٢٥-٢٧).

يرى كولن أن الشباب جيد التربية قوي الإيمان سيلعب دورًا كبيرًا في حل مشكلات البشرية. ويسرد السمات التي يجب أن يتسم بها هذا الجيل الجديد المستمدة من سمات الأنبياء. فهو يحلم بأبناء جيل «...أرواحهم نقية كنقاء قلوب الأنبياء، وأفكارهم قوية بالقدر الكافي لحل مشكلات عصرهم، وقلوبهم رقيقة كقلوب الملائكة، وإرادتهم قوية تفوق خوفهم من النار. هذا هو الجيل المنتظر، الجيل الذي سيوقف الكذب والتلاعب بالكلمات، الجيل الذي سيتكلم بما يُرضي خالق الكلمات، الذي سيقول ما يجب أن يُقال، ويفعل ما يجب أن يُفعل.» جيل يتمتع بوفاء وإخلاص آدم، وعزيمة وإصرار نوح، ورقة وتوكل إبراهيم، وشجاعة موسى، وتسامح عيسى (كولن، المرجع السابق، ص ١٠٥-١٠٨).

عند الإشارة إلى أهمية المدرسة في التعليم، يوضح كولن أن المدرسة مكان للتعلم والتعليم في آن واحد. قد يبدو أن دور المدرسة يقتصر على مرحلة معينة من حياة الإنسان، غير أن رسالتها عامة في جميع الأوقات، ومستمرة طوال حياة البشر.

عند الإشارة إلى أهمية المعلم في عملية التعليم، يوضح كولن أنه يجب على المعلم إثراء المادة بالمعنى قبل تقديمها للطفل. يجب أن يكون هدف المعلم تقديم المنفعة للطالب، وألا يستبعد التضحية بنفسه في سبيل ذلك. لا بد أن يبذل المعلم جهدًا كبيرًا ويغوص في أعماق نفسه بحثًا عن وسائل أفضل لتعليم الطفل. ويجب عليه أن يكون منظمًا ومنضبطًا وقدوة في سلوكه. الأعرابي الذي وجد أفضل معلم قد يسمو فوق مكانة الملائكة؛ وحياة نبينا محمد ﷺ خير دليل على هذا الارتقاء (كولن، المرجع السابق، ص ٩٨-١٠١).

كما يذكر كولن رأيه في نوع المعارف الواجب تقديمها في المدارس. فهو يرى، على سبيل المثال، أن أي شيء لا يساعد الإنسان على حل لغز الكون لا نفع منه، بل إنه حشو غير مفيد

يجب أن يكون هدف المعلم تقديم المنفعة للطالب، وألا يستبعد التضحية بنفسه في سبيل ذلك. لا بد أن يبذل المعلم جهدًا كبيرًا ويغوص في أعماق نفسه بحثًا عن وسائل أفضل لتعليم الطفل. ويجب عليه أن يكون منظمًا ومنضبطًا وقدوة في سلوكه.

nesemat.com نسيات nesemat.com

وعبء على الطلاب. «...إن حشو عقول الأطفال في سنوات التعليم المدرسي المبكرة بأعباء ثقيلة تتناول جغرافيا العالم أو التاريخ الإنساني أو الفلسفة خطأ ليس فقط على صعيد المنهج ولكن أيضًا خطأ في حق الأطفال. المعلم الذي يترك طلابه فريسة للتساؤلات والشكوك لصالح العلم ليس معلمًا حقيقيًا. والمبنى التعليمي بكل ما فيه من مختبرات الذي لا يوجّه المعلمين إلى الهدف الصحيح لا يمكن اعتباره مدرسة.»

«بل يجب خلال سنوات التعليم المدرسي المبكرة أن يتعلم الأطفال اللغة والمُثل والإيمان والأخلاق والشخصية. وهذه الأسس هي التي ستمنح الشخص فهمًا جديدًا لعملية بناء الهوية الاجتماعية، وإعادة إحياء المنهج الإصلاحي في عصره عند دراسة العلوم. وعند هذه المرحلة، من المستحسن إشراك الأطفال في الفن والتجارة والزراعة والعلوم والتكنولوجيا».

ويسرد كولن بعض مناهج التعليم الواجب اتباعها. ومن أهمها مبدأ التعرف على الطلاب، والتدرج، والتسامح، واستخدام كلمات رقيقة، وغرس المُثل العليا، وتقديم المواد المجردة بصورة مادية، والحفاظ على التوازن بين الحب والخوف والذنب والعقاب، ومبدأ التضاد عند شرح المفاهيم المتناقضة (كولن، ١٩٩٦، ص ١٥-١٨).

وهكذا نرى أن فلسفة كولن التعليمية لا تضم فقط أفكارًا حول طبيعة التعليم وأهميته في تنشئة أفراد يكونون خلفاء في الأرض وتربية أجيال مثالية تخدم البشرية، بل إنه يحدد أيضًا أهداف هذا التعليم والمناهج الواجب استخدامها فيه. ليس ذلك فحسب، بل إن كولن غير مهتم بوضع فلسفة ومنهجيات تعليمية في حد ذاتها. كما أنه لا يؤمن أن الكلمات وحدها قد تفيد. بل إنه شخص يعيش حياته دائمًا وفقًا لما تمليه عليه أفكاره، ويشجع الآخرين على فعل المثل. وهذا ما يميز كولن عن غيره من الفلاسفة الإسلاميين المعاصرين؛ فهو لا يدعو الآخرين لسماع أفكاره فحسب، بل يشجعهم على أخذ موقف. سوف نتناول في هذا القسم من البحث كيف ترجم كولن أفكاره إلى أفعال.

من الفكر إلى الفعل

بدأ كولن تطبيق فلسفته على أرض الواقع عندما كان يدرّس في مدرسة القرآن في كستانه بازاري بمدينة إزمير. ولاحظ على الفور ثمار هذا المنهج التعليمي. وسرعان ما بدأ يشجع الأشخاص على المشاركة في الحوارات والندوات والمؤتمرات في المساجد والمنازل. وكان هدفه الرئيسي من وراء ذلك هو زيادة الوعي وإقناع الأشخاص بأهمية هذه الخدمة. فشجعهم على المشاركة وتقديم التضحيات لتيسير توفير تعليم جيد للجيل الجديد. وقد اعتمد كولن على عدة نقاط مهمة؛ أولاً ضرورة تقديم نموذج مثالي يُحتذى به للجيل الجديد. وقد وجد في سيرة النبي محمد ﷺ أمثلة محددة تشمل كل جوانب الحياة تقريبًا، ووجده أفضل نموذج

nesemat.com نسمات nesemat.com

يذكر كولن رأيه في نوع المعارف الواجب تقديمها في المدارس. فهو يرى أن أي شيء لا يساعد الإنسان على حل لغز الكون لا نفع منه، بل إنه حشو غير مفيد وعبء على الطلاب.

للارتقاء بالأجيال الجديدة. استطاع كولن بمساعدة سيرة النبي أن يلقي الضوء على أخلاقه الرفيعة ليضرب أهم مثال على القيم الأخلاقية العامة أمام الجيل الجديد. علاوة على ذلك، أراد كولن أن تترك تعاليمه وإرشاداته وأفعاله أثرها على الآخرين، لهذا سعى جاهدًا أن يتبع نموذج الأنبياء في حياته. ومن خلال قيامه بذلك، أثبت أنه ليس أمرًا مستحيلاً، بل إنه واقع ملموس يمكن تحقيقه.

سافر كولن إلى كل المدن التركية لإلقاء الخطب والمواعظ، وطالب الأشخاص أن يكونوا قوة بنّاءة وليس قوة مدمرة، أن يكونوا دعاة التوحيد وليس التشتيت. ووصف الجيل الذي يحلم بتربيته بأنه الجيل الذهبي. وبعد أن تجلى صدقه وإخلاصه وجديته، لبى دعوته طلاب الجامعات في البداية، ثم رجال الأعمال، ولحقهم أشخاص مخلصون من جميع نواحي الحياة؛ فانضم إليه طلاب جامعيون، ومعلمون، وعمال، وحرفيون، ونساء، ورجال لشن حملة تعليمية هائلة على مستوى البلاد. بدأ هؤلاء الأشخاص ببناء مؤسسات تعليمية، وكرست الشركات الصغيرة كل جهودها لدعم القضية في المدن التي توجد فيها. بعدها تم افتتاح مدارس، ومراكز تأهيل جامعي، ومراكز قراءة. وكان جميع المعلمين العاملين في هذه المؤسسات من الخريجين الجامعيين المؤهلين والمعلمين النموذجيين المسلحين بأفكار ومُثل كولن ممن يتحملون المسؤولية.

وعندما حانت اللحظة، اتسع نطاق هذه الحملة ليتجاوز حدود تركيا. قدم كولن نصيحة مدروسة لأتباعه بالهجرة في البداية إلى وسط آسيا، ثم إلى جميع أنحاء العالم لنشر القيم والمبادئ الرفيعة إلى كل البشرية. تلقى أتباعه النصيحة وكأنها أمر، وبذلوا كل جهد إضافي ممكن، فافتتحوا مئات المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية بهدف غرس القيم الأخلاقية الرفيعة في نفوس الجيل الجديد، ليؤمنوا بالسلام والتناغم والحوار واحترام العلم والتطور الفكري. وسرعان ما حققت هذه المدارس نجاحًا هائلاً، ظهر على وجه الخصوص في سلوكيات وتصرفات الطلاب وعلاقاتهم بآبائهم. لهذا فرح الأشخاص بافتتاح هذه المدارس وأرادوا زيادة عددها في مدنهم. فمثلاً تحدث مدير التعليم في موسكو في مراسم حفل الافتتاح قائلاً: «هناك حدثان مهمان وقعا في تاريخ روسيا القريب؛ أحدهما وصول جاجارين إلى القمر، والثاني افتتاح مدرسة تركية هنا» (http://tr.fgulen.com/content/view/12486/11/). أما في أفغانستان وقيرغيزستان، فقد تم تقديم أكثر من ألف طلب للالتحاق بهذه المدارس في حين أن الأماكن المتاحة كانت قرابة المائة فقط. وهناك مدرسة أخرى في الفيلبين تعلّم الطلاب المسيحيين والمسلمين جنبًا إلى جنب في سلام وتناغم وانسجام بالرغم من الصراعات الدائرة في البلاد. جعلت هذه النتائج الملموسة الأشخاص

nesemat.com نسيمات nesemat.com

تقدم مدارس الخدمة جيدة التجهيز التعليم الذي لا تقدمه أي مدرسة أخرى في المنطقة. ويمكن رؤية ثمار هذه المبادرة في النجاح الهائل الذي حققته، ليس فقط على الصعيد المحلي، بل أيضًا على الصعيد الدولي.

يشعرون بالرضا تجاه مهمة هذه المدارس. هناك مدرسة في شمال العراق، تعلّم طلابًا من أصول سنية وشيعية وعربية وتركمانية وكردية، ولم نسمع حتى الآن عن أي مشكلات حدثت. وهكذا ساعدت هذه المدارس في إبعاد الطلاب في شمال العراق وشرق تركيا عن الانضمام إلى الجماعات الإرهابية، وبدلاً من ذلك نجحت في تنمية شخصياتهم بطريقة موجّهة ليصبحوا أعضاء فعالين في مجتمعاتهم.

وكان أول من لاحظ إنجازات هذه المدارس، الأكاديميون والعلماء في تلك البلاد. على سبيل المثال يقول بيكيم أجاي، الباحث المقدوني في شؤون التعليم: «تقدم هذه المدارس جيدة التجهيز التعليم الذي لا تقدمه أي مدرسة أخرى في المنطقة. ويمكن رؤية ثمار هذه المبادرة في النجاح الهائل الذي حققته، ليس فقط على الصعيد المحلي، بل أيضًا على الصعيد الدولي.» (كوراي، ١٩٩٧).

علّق مؤلف آخر قام بزيارة ومتابعة عدد كبير من هذه المدارس قائلاً: "ليس الهدف مجرد زيادة المعارف الدينية، وليس زيادة الوعي الديني بالشريعة الإسلامية بمساعدة مجموعة من الرموز، بل تيسير عملية التغير الأخلاقي وارتقاء شخصية أبناء الجيل الجديد. عندما راقبنا الطلاب عن كثب، لاحظنا أنهم أصبحوا يتمتعون بالانضباط الذاتي مع احترام تقاليدهم والقيم الإسلامية" (بايرام أوغلو، ١٩٩٦).

كتب خلوصي تورغوت مجموعة مقالات عن هذه المدارس، أشار فيها إلى أن أغلب الطلاب أقلعوا عن التدخين وتناول الكحوليات. وتحدث محمد ألتان عن والدتين قررتا إرسال ابنيهما إلى هذه المدارس فقط لأن الطلاب لا يدخنون، ولأن اللغة الإنجليزية هي لغة التدريس (ألتان، ١٩٩٨).

أهم ما يميز هذه المدارس أنها ليست لها أي أغراض سياسية أو عرقية أو مادية، بل إن الأشخاص الذين أسسوا هذه المدارس والمعلّمين الذين يعملون فيها يقدمون تضحيات كبيرة. فأصحاب هذه المدارس لا يحققون أي ربح مادي، ويحصل المعلّمون على أجر زهيد. أضف إلى ذلك أن هذه المدارس تقدم العلم والتكنولوجيا، وهي بعيدة كل البُعد عن كونها مدارس دينية. تركز هذه المدارس في خطابها اليومي على الأخلاق الرفيعة والقيم العامة المشتركة بين كل البشر. (بايرام أوغلو، ١٩٩٦)

نرى هؤلاء المتطوعين ومؤيدي الخدمة يسافرون إلى طاجيكستان بينما تتآكلها الحرب الأهلية، ونراهم يذهبون إلى البوسنة وهي فريسة الحرب، ونراهم يتوجهون إلى جورجيا وهي تعج بالقلاقل الاجتماعية، وكل ذلك بهدف افتتاح مدارس جديدة. بالرغم من مواجهة صعوبات خطيرة، واحتمال فقدان حياتهم، لا يستسلمون ولا يتركون البلاد التي يعملون فيها. بل إنهم أصدقاء حقيقيون ليس لهم أي هدف مادي. ولا يوجد وصف لمثابرتهم أفضل من كلمات الرئيس الجورجي ساكاشفيلي "لقد حضروا في وقت صعب، وقت لم يرغب أحد في الحضور إلى جورجيا فيه. لقد حضروا في وقت عصيب ولم يتركونا مطلقًا". (ديمير، ٢٠١٠).

أسس أفكار كولن وأفعاله

لن نجانب الصواب إذا قلنا إن أول وأهم العوامل التي أثرت في أفكار كولن هي عائلته الصغيرة والكبيرة والبيئة التي عاش فيها. وينعكس

أثرها في خطاباته وكتاباته وأفعاله. لهذا نسأل: كيف كان شكل حياته في أسرته؟ ومَن هو أكثر شخص أثّر فيه؟ يجيب كولن عن هذه الأسئلة: "كان أول شخص في أسرتنا يقيم في كوروجوك هو جدي الأكبر مولًا أحمد بن خورشيد أغا بن خليل أفندي. كان مولا أحمد رجلاً استثنائيًا اشتهر بعلمه وتقواه. لم ينم على فراش خلال آخر ٣٠ عامًا في حياته. يُقال إنه عندما يشعر بالنعاس، كان يجلس ويريح رأسه على يده اليمنى ويغفو قليلاً."

«كان جدي شامل أغا يشبه والده من عدة جوانب، فقد كان رجلاً يسبق عصره. بفضل وقاره ومكانته، احترمه جميع أهالي القرية. إلى جانب تأثيره عليّ، كان لجدتي مؤنسة هانم تأثير أكبر عليّ. كانت امرأة مميزة قليلة الكلام، حاولت أن تكون صورة للإسلام في كل جوانب حياتها. كذلك ترك والدي أثرًا كبيرًا في نفسي. عاش الحياة بيقظة، وكانت رقيق المشاعر غزير الدموع، حريصًا على اغتنام الوقت. نشأ في قرية صغيرة في ظروف من الفقر والشح والقحط، لكنه على حد وصف أحد معارفه المقربين نشأ "نشأة ملكية". تمتع هذا الرجل النبيل الكريم المحب للعلم بعقل ألمعي ظهر في المواقف، وكان متعلقًا بالإسلام بكل كيانه. أما جدتي لوالدتي خديجة هانم، فقد كانت مثالاً للنقاء بكل ما تحمل الكلمة من معنى. وكانت ابنتها والدتي رفيعة هانم رمزًا للرحمة وعمق التفكير. قامت بتعليم القرآن لكل نساء القرية، وعلمتني القرآن في وقت كانت فيه مجرد تلاوته مهمة صعبة».

«لم يخل منزلنا من الضيوف، وخاصة العلماء. وقد أولياهم عناية كبيرة. طوال سنوات طفولتي وشبابي، لم أجلس مطلقًا مع أقراني أو مَن هم في مثل سني، بل كنت أرافق دائمًا الأكبر سنًّا، وأستمع إليهم وهم يشرحون أمورًا تشبع شغف القلب والعقل».

«اعتاد والدي أن يطعّم كلامه بتعليقات فطنة كان قد سمعها أو ابتكرها، مما يؤكد على حدة عقله وتفكيره. اندهشت لأنه لم يتجاوز حدود ما هو لائق مطلقًا. فقد حافظ على الحدود في هدوئه وفي غضبه. تعلق بصحابة رسول الله تعلقًا شديدًا، وغرس محبتهم في قلبي أنا وإخوتي».

«أما خارج نطاق أسرتي، فقد ترك محمد لطفي أفندي أثرًا كبيرًا في نفسي. كانت كل كلمة تخرج من فمه بمثابة إلهام يغمرني من عالم آخر. كنا ننصت له جيدًا وهو يتحدث، وكأننا نسمع كلمات سماوية نزلت إلى الأرض».

«لا أزعم أنني تعلمت منه كل شيء، لأنه رحل قبل أن أتم عامي السادس عشر. وبالرغم من ذلك، ولأنه كان أول شخص يفتح عيني وإدراكي، فقد حاولت أن أفهم كل أفكاره بعقلي ومواهبي الفطرية، لأن صغر سني حال دون أن أفعل ذلك منه مباشرة. وأنا أعزو حدسي وحساسيتي ومشاعري اليوم لما شعرت به في حضرته». (جريدة زمان اليومية)

وهكذا بدأت عملية تعليمه في منزل والده واستمرت على يدي محمد لطفي أفندي. ومنذ ذلك الحين، لم تتوقف رحلة تعلمه ونضجه الديني والروحاني. التقى في بداية شبابه بطلاب بديع الزمان سعيد النورسي صاحب رسائل النور، الذين قدموا إسهامات كبيرة في تكوينه الفكري والروحاني أيضًا.

يمكنني القول من واقع خبرتي الشخصية إن عقله مشغول دائمًا بالقرآن والسنة. كلما واجه

مشكلة في حياته اليومية، بحث عن الحلول في هذين المصدرين. وفي نفس الوقت، لا يمر يوم واحد دون أن يضرب مثلاً من حياة أحد الصحابة رضي الله عنهم جميعًا.

عندما أطلق كولن أنشطة دعم الحوار في تركيا، سمع منه أشخاص ظنوا أنهم متدينون، معلومات يسمعونها لأول مرة حول حوار النبي محمد ﷺ مع أصحاب الديانات الأخرى. وذكّرهم كولن ببعض آيات القرآن مثل: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة: ٨). إذا قرأنا تفسير كولن للقرآن الكريم والأحاديث النبوية، فسنلاحظ أنه مليء بالأفكار الفريدة، لأنه رجل يفهم جيدًا العصر الذي نعيش فيه، ويمكنه إيجاد علاقات تربط هذه النصوص القديمة بعصرنا الحديث. لقد كرس حياته لخدمة البشرية، متخذًا من كتاب الله وسنة نبيه دليله ومرشده. كما أنه رجل منفتح العقل مستعد لأخذ العلم والمعرفة والخبرات من أي شخص دون تردد، يقول تعالى: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (النحل، ١٦: ٤٣). يشجع كولن على تطوير مهاراتهم وزيادة معارفهم بصورة يومية حتى آخر يوم في حياتهم. هذه هي الفلسفة التي يتبعها في حياته، والتي تبرر تركيزه على التعليم.

الخاتمة

يبرز كولن أهمية أول رسالة في القرآن ﴿اقْرَأْ﴾ (سورة العلق: ١) التي حملها نبينا محمد ﷺ إلى كل البشرية، ويشير إلى دورها المهم في تشكيل حياتنا وحواراتنا اليومية. يؤكد كولن على أهمية القراءة في حياته الشخصية. بالرغم من مرضه وازدحام جدوله اليومي، يحافظ على قراءة ما يقرب من مائتي صفحة يوميًا. كما أن تعليم الآخرين ما يعرفه المرء أحد وصايا النبي محمد ﷺ. لهذا بالرغم من كبر سنه، يبذل كولن جهدًا كبيرًا في القراءة وتعليم الطلاب. وهو بذلك يسعى ليثبت للبشرية كلها أن جهود التعليم يجب أن تبدأ من المهد وتستمر حتى اللحد. تعكس مسيرة حياة كولن أن القراءة والتعلم والتعليم من أهم العادات التي تجعلنا نرتقي باعتبارنا بشرًا.

المراجع

- خلوصي تورغوت، "فتح الله كولن والمدارس"، جريدة Yeni Yüzyil، ١٥ يناير ١٩٩٨.
- فتح الله كولن، "درر من الحكمة"، ٥٠-٥١، دار نشر Light Publishing، نيو جيرسي، ٢٠٠٦.
- كولن، "الشفقة"، دار نشر The Fountain، لندن، يناير-مارس ١٩٩٣
- كولن، "العصر والجيل"، ص ٤٩-٥٣، ١٦٤-١٦٨، دار نشر النيل، إزمير، ٢٠٠٩.
- كولن، "مفاهيم أساسية في الممارسة الصوفية-تلال القلب الزمردية"، "العلم"، الجزء الثاني، ص ٢٢، دار نشر Light Publishing، نيو جيرسي، ٢٠٠٧.
- كولن، "نحو الفردوس المفقود"، ص ٢٥-٢٧، ٩٨-١٠١، ١٠٥-١٠٨، الطبعة الثانية، كياناك، إزمير، ١٩٩٨.
- كولن، "من البذرة إلى الثمرة (التعليم في الأسرة من منظور مختلف)"، ص ٦٢، ٦٣-٦٥، ٨٦-٨٨، ١٥٠، ١٥١-١٥٣، دار نشر النيل، إسطنبول، ٢٠٠٢.
- كولن، "رجل في خليج الكوارث"، ص ١٥-١٨، النسخة التاسعة، دار نشر T.Ö.V. Publication، إزمير، ١٩٩٦.
- جينك كوراي، جريدة المساء، ١٦ مايو ١٩٩٧.
- علي بايرام أوغلو، صحيفة "القرن الجديد"، ٢ نوفمبر ١٩٩٦.
- محمد ألتان، جريدة الصباح، ٢٢ يناير ١٩٩٨.
- علي بايرام أوغلو، صحيفة "القرن الجديد"، ٣١ أكتوبر-٢ نوفمبر ١٩٩٦.
- فاتح ديمير، جريدة "زمان" اليومية، باتومي، ١٠ مارس ٢٠١٠ كولن، "عالمي الصغير"، لقاء مع لطيف أردوغان، جريدة زمان اليومية.

المرجعية الأخلاقية

لدى الأستاذ كولن فكرًا وسلوكًا

يمثل السلوك الخلقي الصورة العملية للإسلام، لكن واقع المسلمين اليوم لا يعكس هذه الصورة المشرقة للإسلام؛ مما كان له كبير الأثر في الصدّ عن رسالة الإسلام الخالدة. والأستاذ فتح الله كولن يعيش بهدف إحياء الأمة ونشر رسالة الإسلام الخالدة، لإنقاذ البشرية مما تعيش فيه من شقاء، لذا جعل القيم والأخلاق في صلب اهتمامه؛ فالقيم والأخلاق أحد أبرز أركان مشروعه الحضاري، إضافة إلى الاقتصاد والتعليم.

ومن هنا كانت الأخلاق هي السمة الأبرز لمشروع الخدمة، حيث تبرز هذه السمة بوضوح من خلال زيارة واحدة لأي مؤسسة من المؤسسات التي تستلهم أفكارها من الأستاذ كولن، أو من خلال أي شكل من أشكال التعامل مع أحد المتطوعين في الخدمة. فالأخلاق المنضبطة شرط أساسي عند الأستاذ فتح الله كولن، وهي الديناميكية الأساسية التي لا يمكن التنازل عنها ولا فصلها عن فكره الديني، ولهذا احتلت الأخلاق هذه القيمة في فكره ومشروعه الحضاري.

أمل عبد الله محمد النعيمات

أستاذ مساعد بقسم أصول الدين كلية الشريعة بالجامعة الأردنية، دكتوراه في الفلسفة في العقيدة، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، ٢٠١٤م، عنوان الرسالة (محمد فتح الله كولن وجهوده في العقيدة والأخلاق- دراسة تحليلية)، ماجستير عقيدة عام ٢٠٠٧م، كلية أصول الدين الجامعية، جامعة البلقاء التطبيقية عنوان رسالة الماجستير (الإلهيات في تفسير البحر المحيط للإمام أبي حيان). تدرس مساقات التلاوة والحفظ في كلية الشريعة بالأردن، وشاركت في كثير من المؤتمرات التي عقدت في الأردن وخارجه، وعضو في رابطة علماء الأردن، وتشرف على جمعية المحافظة على القرآن الكريم فرع قضاء العارضة (للنساء).

يعرف الأستاذ فتح الله كولن الخلق بقوله: «الخُلُق يأتي بمعنى رسوخ الدين، والعيش به وامتثال القرآن دون خلل»[1]. **ويستدل في تعريفه بجواب أمِّنا عائشة ﵂، عندما سُئلت عن خلق رسول الله ﷺ، فأجابت: «... كان خُلُق نبي الله ﷺ القرآن»**(رواه مسلم). **كما يستشهد بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾**(القلم:٤)، **ويشرح الأستاذ فتح الله كولن قائلاً: «الآية الكريمة تذكر بالذات الإلهية، لأنه هو المتكلم، ويشهد بالخلق العظيم لرسوله ﷺ، ثم تبين الآية مصدر هذه الأخلاق، وأنها قرآنية تجلت وظهرت على سيد الخلق ﷺ، وهي أخلاق لا تقاس بأي نظام آخر إطلاقًا.»**[2].

يعتبر تعريف الأستاذ فتح الله كولن للخُلُق؛ تعريفًا جديدًا مع أن فيه تناسبًا مع تعريف ابن مسكويه[3]، فالحال الداعية للنفس إلى أفعالها من غير روية ولا فكر تنم عن صدور هذه الأفعال عن الإنسان بشكل مستمر يشبه الطبع الذي فطر عليه الإنسان، وقد فطر الله الإنسان على ملة الإسلام، والأستاذ يهدف من تعريفه للأخلاق بأنها: الرسوخ في الدين والعيش به وامتثال القرآن دون خلل؛ أن يصبح الدين مستقرًا في القلوب والنفوس بحيث لا يصدر عن المسلم إلا ما يوافق هذا الدين، فيعيش بالقرآن ويتمثل أمر القرآن، وفي هذا التعريف يظهر مدى ارتباط العقيدة بالأخلاق وفيه دعوة للناس للارتقاء بأخلاقهم من خلال تمثل هذا الدين حتى تصبح الأخلاق ملكة عندهم»[4].

علاقة الأخلاق بالعقيدة (الدين)

لا يمكن بناء الأخلاق باعتبارها مبادئ إلا على أساس العقيدة (الدين)، ومع ذلك فالدين والأخلاق متغايران بوجه ومتداخلان بوجه آخر[5]، فالأخلاق بوصفها ممارسة عملية أو حالة من السلوك يمكن تصورها بغير دين، أما الأخلاق الثابتة بوصفها مبادئ فلا يمكن وجودها بغير دين، ذلك أن الذي يربط بينهما هو «العالم الأسمى» كما يسميه الدكتور «علي عزت بيجوفيتش» العالم الآخر. ويظهر هذا الثبات في الممارسة العملية التي تستند إلى ثبات داخلي مبني على عقيدة أو دين. ويرى«بيجوفيتش» أن الإلحاد يؤدي إلى إنكار الأخلاق، وأن أي بعث أخلاقي حقيقي لا بد أن يبدأ بيقظة دينية، لأن الأخلاق هي دين تحول إلى قواعد للسلوك؛ أي: تحول إلى مواقف إنسانية تجاه الآخرين وفقًا لحقيقة الوجود الإلهي[6]. ويتساءل «د. بابا عمي»، عن إنسان فقير وجد ظرفًا فيه نقود كثيرة وعليه عنوان صاحبه، وهو في حاجة إلى هذه النقود، وقد كان في مأمن من العقاب الدنيوي، يتساءل عن هذا الفقير إذا أعاد هذه النقود إلى صاحبها، هل يمكن أن يكون منطلقه في هذا السلوك «الخُلق» غير الدين؟![7]. نعم هذا الموقف لا يمكن تبريره إذا كان هذا العالم هو العالم الوحيد، وهذه هي النقطة التي تعتبر منطلق العلاقة بين الدين والخلق. ويرى الأستاذ «أنس أركنه» أن الخلق والدين لا ينفصلان عند «الأستاذ فتح الله» وأن الدين هو الذي يقوم بتغيير الأخلاق في المجتمع، فهو يحدث عن نفسه

nesemat.com نسمات nesemat.com
يعرف الأستاذ فتح الله كولن الخلق بقوله: "الخُلُق يأتي بمعنى رسوخ الدين، والعيش به وامتثال القرآن دون خلل"، وفي هذا التعريف يظهر مدى ارتباط العقيدة بالأخلاق.

إذا اجتمع مع الأخلاق، ولا يجوز أن يصبح الدين مجرد عادات كإطلاق اللحية مثلاً[٨]. وقد أسلفنا تعريف الأستاذ فتح الله كولن للخلق وهو: «رسوخ الدين والعيش به وامتثال القرآن دون خلل».

ويبين الأستاذ الدكتور «الشاهد البوشيخي» أن الدين في طبيعته تطبيقي وليس نظريًا أو فكريًا، بل هو أعمال وأفكار تظهر في سلوك وعمل، لذلك كان أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، فالدين الذي لابسه وخالطه الخُلُق يجعل الإنسان أكمل المؤمنين إيمانًا على الإطلاق[٩]. وقد ركز مفكرنا كولن على العلاقة بين الدين الحق -الإسلام- والخلق ومن ذلك قوله: «إننا نحتاج إلى الإسلام حاجتنا لمصدر غذائنا -حليب أمهاتنا- فهو الذي يوجه مشاعرنا وأفكارنا ويقوّمها، ويصبغ سلوكياتنا بصبغته، وهو صاحب القول الفصل في حياتنا الفردية والعائلية، كما أنه مصدر الحلول المتوازنة في مسائل الحق والعدل والمساواة وسائر القيم، حيث ربطنا به من أعماقنا، وجعل هذه القيم العالمية نقطة التقاء بين سعادة الناس ورضا الحق تعالى، فحقق إرادة الله تعالى ومطالب البشر في آن واحد»[١٠]. كما يرجع الأستاذ الإباحية -وهي من القيم السلبية- إلى الإلحاد فيقول: «قاد الإلحاد إلى الإباحية الخلقية -الثورة الجنسية- فقد تم تبني نظرية التطور كأيديولوجية -مع سقوطها علميًا- لأنها النظرية التي تؤدي إلى الإلحاد، ومن ثم الإباحية الأخلاقية، لأن الإنسان ما دام سليل حيوانات فما عليه إلا اتباع غرائزه وعدم كبتها، وما الخلق والضمير إلا قشور صنعها المجتمع لا تستحق الالتفات إليها». فحاولت هذه النظرية البرهنة على حيوانية الإنسان، ولهذا تم قبول النظرية الماركسية التي ترى أن الهم الوحيد للإنسان هو حاجاته المادية ونظرية فرويد التي أرجعت جميع نشاطات الإنسان إلى الغريزة الجنسية، فأخرجوا هذه النظرية -نظرية دارون- من كونها نظرية علمية قابلة للخطأ والصواب، إلى أيديولوجية يدافع عنها أنصارها، لا يترددون في عمليات تزوير مشينة علميًا وأخلاقيًا، على خلاف النظريات الأخرى التي تهدف إلى الوصول إلى الحقيقة.

إن السبب في إرساء مكارم الأخلاق هو الثقافة الدينية، لذا يقول الأستاذ فتح الله كولن: «الدين هو شعلة ثمرات النجاحات التي حققها المسلمون الرواد عبر التاريخ في المستوى الحضاري، والأخلاقي، وفي جميع المستويات، هذه النجاحات تبدو وكأنها خوارق، بدافع من قوى غامضة خفية، بينما يمكن إرجاعها إلى مرجعية أساسية وحيوية، ألا وهي هويتنا الذاتية، وشخصيتنا المعنوية التي نهلت من روح الدين، وتغذت بجوهره، وتشبعت بحقائقه الخالدة»[١١]. ويرى الأستاذ فتح الله : «أن الدين يرفع القيم الإنسانية إلى الأعلى، وعلى المسلم أن يتحلى بالأخلاق والقيم قبل تعليم الآخرين»[١٢]، فالإناء لا يفيض إلا إذا امتلأ. ويوجه كولن أنظار المسلمين إلى جيل السعادة، جيل الصحابة، الذين ارتقوا إلى مستوى «الإنسان الكامل»، بتمثلهم للقرآن والسنة على أرض الواقع، فحققوا القيم الإنسانية الكاملة، وصاروا قدوة لنا، فهم جذورنا

nesemat.com نسمات nesemat.com

إن الدين هو الذي يغيّر الأخلاق في المجتمع، فهو يحدث عن نفسه إذا اجتمع مع الأخلاق، ولا يجوز أن يصبح الدين مجرد عادات كإطلاق اللحية مثلاً.

المتوجهة إلى الخالق، بعبوديتهم للحق؛ انفتقوا من العبودية للهوى والقوة والشهوة، وتجردوا من الأخلاق السيئة، فعلينا اليوم أن نتمثلهم لأنهم أصولنا، وسيكون الآتون من بعدنا هم فروعنا»[١٣].

النظرية الأخلاقية في فكر كولن

لم يأت كولن بنظرية أخلاقية جديدة، فهو صاحب فكر عملي، ومشروع حضاري، إحيائي، إعماري، كوني، قرآني المنطلق والمنهج. نظريته الأخلاقية هي نظرية القرآن، وتطبيقاتها العملية: السيرة النبوية، وعمل الصحابة، ومن سار على نهجهم من التابعين وأتباعهم إلى يومنا هذا. تميزت النظرية الأخلاقية القرآنية؛ بمعالجتها لكل من جوانب العقل، والروح، والقلب، كما تميزت بالصعود نحو المثل الأعلى، لإنقاذ الفطرة، وهي في ذلك تخضع لقانون إلهي، يمنحها الحرية ضمن ضوابطه[١٤]، كما تقرر هذه النظرية المسؤولية الفردية، وتستبعد توريث العمل[١٥]، وتقر مبدأ الجزاء المتوازن الذي يسع الدنيا والآخرة[١٦]. هدفها وغايتها ودافعها ونيتها ووجهتها في كل عمل: الهدف الأسمى والغاية المثلى رضا الله ﷻ[١٧]، ولم يتناول الأستاذ فتح الله كولن هذه النظرية الأخلاقية بأسلوب تجريدي؛ وإنما كانت إشاراته إلى هذه النظرية من خلال عرضه لفكره الدعوي، فمثلاً يشير الأستاذ فتح الله إلى فطرية الأخلاق، فيقول: «إذا انبثقت الأخلاق من الروح فإنها ستكون سامية، وستتصف بالبقاء، والذين لم يمتزجوا مع أرواحهم لن يحافظوا على بقاء هذه الأخلاق[١٨]. ويقول أيضًا: «إن الإنسان يكون إنسانًا حقًا، إذا كان خاضعًا لأوامر قلبه مستمعًا إلى روحه»[١٩]. وفي كلام كولن تأكيد على أن الفطرة السليمة إذا لم تتلوث من الخارج فإنها ستدفع الإنسان إلى التمسك بالقانون الأخلاقي الرباني؛ عندها يكون الإنسان إنسانًا بحق، يظهر في علاقته مع نفسه ومع الآخرين. وعن حاجة الإنسان إلى الدين لتحصيل الرقي المادي والمعنوي يقول الأستاذ فتح الله كولن: «إن توافق الإسلام مع طبع الإنسان ودفعه له نحو الرقي المادي والمعنوي، وانفراده بمكانة لا تدرك في الموازنة بين الدنيا والعقبى، كل هذا جعلنا نتنسم عبق معاني «الحق يعلو ولا يُعلى عليه»، ونفتح أعيننا ونغمضها على حقيقة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(الأعراف:١٢٨)[٢٠]. وكذلك كل تعاليم الأنبياء تخاطب الضمائر لتقنعها، ويمثل الأنبياء المثل الأعلى في تطبيق هذه التعاليم، ولهذا تميز القانون الأخلاقي الرباني بميزتين الأولى: عدم الإرغام، والتركيز على الإقناع واحترام العقل، والثانية: تقديم المثل الأعلى»[٢١]. وإذا عدنا إلى نص الأستاذ فتح الله كولن السابق، نجده قد أشار إلى انسجام الإسلام مع طبع الإنسان وفطرته، ويرجع السبب في هذا إلى مصدر الإسلام، فهو الدين الحق من عند الخالق الذي خلق هذه الفطرة، كما أشار إلى حث الإسلام على ارتقاء المسلمين بأنفسهم ومجتمعاتهم معنويًا وعلميًا، ومن الأمثلة على ذلك فهمه للمعجزات وسبب تأييد الأنبياء بأنها وسائل إقناع لا إرغام وفيه أرضيات لإثارة العصف الذهني لهذا الإنسان للرقي والتقدم[٢٢]. أما عن دفعه نحو

الإلحاد يؤدي إلى إنكار الأخلاق، وأن أي بعث أخلاقي حقيقي لا بد أن يبدأ بيقظة دينية، لأن الأخلاق هي دين تحول إلى قواعد للسلوك.

الرقي المعنوي فهو من خلال السمو الأخلاقي، حيث أعطى الإنسان الحرية والعقل وزوده بالمثل الأعلى -الأنبياء ﷺ- فأصبح ملزمًا إلزامًا خلقيًا، بعد اختياره، فالقيم تستمد من الوحي، والعقل، والمثل الأعلى، وهي مظاهر لحقيقة مصدر الإلزام الأخلاقي، فلا «خضوع مطلق» ولا «حرية فوضوية» ومن هنا يوضع الإنسان في مكانه الصحيح بين المادة والروح، يقول الأستاذ فتح الله كولن في هذا: «الفوضى ومن خلفها اللاأخلاقية، عرفتها الأرض مع بني البشر، عندما لم يسلموا طوع عقولهم لله، ولم يكبحوا جماح إراداتهم نحو الشر، ولم يفنوا مشاعرهم نحو الخير»[٢٣].

وتحدث عن عقيدة الجزاء؛ التي تعتبر عقيدة في الديانات كلها، بما فيها الإسلام، كأثر مترتب على الإلزام والمسؤولية الفردية[٢٤] فتحدث عن نعيم القبر وعذابه وعن الجنة والنار واليوم الآخر بكل نعيمه وعذابه، أما المسؤولية التي تترتب على الإلزام الخلقي، فقد أولاها الأستاذ اهتمامًا بارزًا ووضّح مفهومها، وركز على المسؤولية الأخلاقية تجاه المجتمع والآخرين، وقد سمى الأستاذ كولن المسؤولية بـ «صدقة كينونة الإنسان وحكمة وجود الإرادة»[٢٥].

وعن أهمية المسؤولية يقول: «السكون اسم رديف للانحلال والموت، أما ارتباط الحركة بالمسؤولية فهو البعد الإنساني الأول لها، ولا يمكن ادعاء الكمال في حركة أو نهوض من غير ضبطها بالمسؤولية»[٢٦]، فهو يتحدث هنا عن المسؤولية الفردية والمسؤولية الأخلاقية بشكل عام تجاه النفس وتجاه الآخرين، ويجعل المسؤولية حكمة وجود الإرادة الإنسانية، إذ لو لم يكن الإنسان حرًا مريدًا فلا قيمة للمسؤولية، أما عن كونها صدقة الكينونة -كما يقول- فهو يشير إلى منّة الله علينا بالوجود والهداية، ثم التفضل علينا بالجزاء الأوفى مع أن الكل من عند المولى ابتداءً، والنص الثاني يشير فيه الأستاذ كولن إلى تحمل الأفراد والجماعات مسؤوليتهم لقاء حركتهم وجهدهم، لأن الله خلق الإنسان لمهمة الخلافة على الأرض، وهي التي تميزه عن باقي المخلوقات. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦). فعلى الإنسان تحمل مسؤوليته تجاه نفسه والآخرين ليستحق على ذلك الجزاء من الله، وينوه على أهمية التخطيط وعدم الفوضى والعشوائية في الوصول إلى الكمال والنهوض، ويعتبر المسلم مسؤولاً عن الفعل إذا بلغ وبلغته أحكام الدين وكان واعيًا لها أثناء سلوكه، إذا عقد النية على هذا الفعل، ومن هنا فلا توريث للعمل في الإسلام، قال سبحانه: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾(الإسراء:١٥).

وقد وفّق الأستاذ فتح الله كولن بين الإرادة الإنسانية الحرة وقضاء الله وقدره، وأكد على حرية إرادة الإنسان، وأنها سبب مسؤوليته عن أفعاله، واستحقاقه الثواب أو العقاب، وقد أفاض الأستاذ فتح الله كولن في الحديث عن هذه المسالة في كتابه: «القدر في ضوء الكتاب والسنة»[٢٧]. وقد ركز الأستاذ فتح الله كولن على أهمية حرية الإرادة

nesemat.com نسيات nesemat.com
الفوضى ومن خلفها اللاأخلاقية، عرفتها الأرض مع بني البشر، عندما لم يسلموا طوع عقولهم لله، ولم يكبحوا جماح إراداتهم نحو الشر، ولم يفنوا مشاعرهم نحو الخير.

واستشهد بآراء المفكرين والفلاسفة، كديكارت الذي يقول: «لا قيمة للفكر ما لم يتمتع بالحرية»[٢٨]، في محاولة منه لتأكيد حرية الفكر والإرادة، وأنها سبب المسؤولية بطريق العقل إضافة إلى الوحي، وأنه لا جبر على الإطلاق، كما يرتبط بالمسؤولية إضافة إلى الحرية من حيث تأثيرها في الثواب أو العقاب موضوع النية، والتي تمثل الهدف البعيد للعمل، وقد جعل القرآن الكريم رضا الله غاية أعمالنا، لهذا كانت النية بمعناها الأخلاقي تتجه إلى «التنزيه المطلق» الذي لا يوجد فوقه هدف، وهو رضا الله ﷻ.

يقول الأستاذ فتح الله كولن في معرض حديثه عن ورثة الأرض «ويعني بهم جماعة الخدمة الإيمانية» ومن سار على دربهم «أنهم يحملون المسؤولية تجاه حاضر الأمة ومستقبلها، مع التضحية، ونكران الذات، والصبر، وتحمل الأذى، كرجال الإطفاء الشجعان، يتلذذون بهذه العبودية لله، لا يبتغون سوى رضا الله تعالى والتحقق بمعاني الإخلاص المحض»[٢٩]. ويركز الأستاذ فتح الله كولن على المسؤولية الأخلاقية تجاه المجتمع، ويسخر من العبارات التي تستهزئ بشعور المسؤولية مثل قول بعضهم: «الربان الماهر هو الذي ينقذ سفينته»[٣٠]، ويقول: «ليس شيء من هذا يخطر على قلب مؤمن ثم يبين أنه لا يليق بشعورنا بالمسؤولية أن نستنكر عدم الشعور بالمسؤولية، ثم نمضي، لأن هذا جزء من الانحراف الفكري، وعلينا أن نحمل المسؤولية، ونبث الروح الجديدة في دنيانا مشبعة بالإيمان، وحب الإنسان والحرية، وتجهيز البيئة لترسيخ الجذور المعنوية[٣١]. فلا بد من إصلاح هذا الانحراف «لتظهر آثار الشعور بالمسؤولية على علاقة العامل بالعمل، والزارع بالزرع، والمعلم بالطالب.. إلخ، ويتحقق كل ما كنا ننتظره منذ عصور»[٣٢]. ويرى الأستاذ كولن أنه لا بد من ضبط كل جهد بالمسؤولية؛ فطريقنا حق، وقضيتنا حمل الحق وغايتنا تحري الحق، لذا وجبت علينا صدقة الإرادة؛ وهي تحمّل المسؤولية والجهاد المعنوي، بالعلم والأخلاق والحق والفضيلة، فلنلم شعث أمتنا لنعيش معاني «الانبعاث بعد الموت» عن طريق الاتصال بلواء الحمد[٣٣].

وإذا رفضنا تحمّل مسؤولياتنا سنقع أسرى الآخرين بل نصبح كالجمادات ويمثّل الأستاذ فتح الله كولن ببعض رموز المجتمع التركي، الذين تحمّلوا المسؤولية ولبوا النداء، فجعلوا كل ذرة في كيانهم في خدمة هذه المهمة، فجمعتهم عباءة المسؤولية، كبديع الزمان النورسي، ومصطفى صبري، ومحمد عاكف، وغيرهم، وينادي الأستاذ فتح الله كولن ورثة الأرض الحقيقيين للاقتداء بهم وتحقيق الشروط اللازمة لوراثة الأرض، وأبرزها: جعل الإسلام إحياءً للحياة بتحمّل المسؤولية تجاه النفس والآخرين، وبذل الجهد الذي تتطلبه الوراثة السماوية -الخلافة في الأرض- ليتحقق وعد الله بقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأنبياء:١٠٥) [٣٤].

الأستاذ فتح الله كولن قرآني المنهج، وقد كانت نظريته في الأخلاق هي نظرية القرآن؛ حيث يعتبر

nesemat.com نسمات nesemat.com

الدين في طبيعته تطبيقي وليس نظريًّا أو فكريًّا، بل هو أعمال وأفكار تظهر في سلوك وعمل، لذلك كان أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا.

الوحي «القرآن والسنة» والمصادر التي تدور في فلكهما مصادره في الأخلاق، ومن خلال كتاباته نجده قد ركز على قضية فطرية الأخلاق، وأن القانون الأخلاقي أساسه مركوز في الفطرة البشرية، كما ركّز على دور الدين في تحصيل الكمال والرقي الخلقي، حيث يساند الدين الفطرة ويدعمها، كما يمنح أساسًا ثابتًا للحكم على السلوكيات، ويقدم القدوة والمثل الأعلى، إضافة إلى تقديمه للرؤية المتوازنة للدنيا والآخرة؛ حيث يجعل الإنسان بين الواقعية والمثالية؛ فيرتقي نحو الكمال بقدر وسعه وجهده وطاقته في الدنيا، ويثاب بحسب ذلك في العقبى، وينادي بضرورة الاعتزاز بهذا الدين الذي يوافق الفطرة، وينسجم مع العقل والقلب، ويمنح الجزاء العادل في الدنيا والآخرة، ولا يكلف الإنسان إلا بقدر طاقته، وإن زاد على ذلك فهو كمال يستحق عليه مزيدًا من الثواب، كما يحث المسلمين على الارتقاء بمجتمعاتهم الإنسانية، معنويًا وماديًا؛ فهم ورثة الأرض، وخلفاء الله فيها، لذا يجب عليهم تحمّل مسؤولياتهم، فهم أحرار الإرادة لم يحملوا أوزارًا سابقة، وأن ليس لأحدهم إلا ما سعى، خيرًا أو شرًا، فليجعلوا رضى الله ﷻ غايتهم ونيتهم في كل عمل، وليقوموا بتحقيق مقتضيات رسالتهم العالمية، وتحمل المسؤولية، تجاه النفس والآخر؛ لأن عدم الشعور بالمسؤولية تجاه النفس والآخرين انحراف فكري يحتاج إلى تصحيح، وقد يؤدي إلى الوقوع في أسر الآخرين فليقبلوا على حب الإنسان والحرية وتحمل المسؤولية وليجهزوا البيئة لترسيخ جذورنا المعنوية، لتظهر آثار الشعور بالمسؤولية على المستوى الفردي والجماعي إتقانًا للعمل ليتحقق ما كنا ننتظره منذ عصور، تحقيقًا لقول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأنبياء:١٠٥).

الأخلاق العملية في فكر كولن

تنبثق رؤية كولن للأخلاق العملية من الرؤية القرآنية المطبقة في شخص رسولنا ﷺ بوصفه مربيًا، ومرشدًا، وقدوة، ومثلاً أعلى، ولهذا يرى الأستاذ فتح الله كولن: «أن المتدين الحق إنسانٌ صاحب خلق رفيع مخلص في عبادته، لا يتصنع فيها، بعيدٌ عن كل المساوئ كالخداع، والحقد، والنفاق»[٣٥]، وهذه الصفات قد استقاها من القرآن حيث يقول ﷻ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا.....إلخ الآية ٧٧﴾(الفرقان: ٦٣ - ٧٧)، فالأخلاق نتاج الإيمان، ورسالته، ولذلك يقول الأستاذ كولن: «الخُلُق هو أهمُ غاية للخَلْق، والبعد الحقيقي للخلق الجبليّ، وتصرّف إرادة الإنسان على حقيقة الخَلق، مستهدفًا الأخلاق الإلهية. فمن أحسن استعمال هذا التصرف وألبس الخَلْق لباس الخُلُق سهلت عليه جميع الأعمال الصالحة»[٣٦]، هذا الربط بين خَلق الإنسان، ورسالته في الحياة عبر عنه الأستاذ فتح الله كولن بقوله: «الخُلُق هو البعد الحقيقي للخَلق الفطري»، فإذا انسجم الإنسان مع فطرته، واختار بإرادته الحرة الدين الحق، فإنه سيعيش بانسجام بين سلوكه وإيمانه في عباداته، ومعاملاته، ومشاعره،

الدين هو شعلة ثمرات النجاحات التي حققها المسلمون الرواد عبر التاريخ في المستوى الحضاري، والأخلاقي، وفي جميع المستويات.

nesemat.com نسمات nesemat.com

مسترشدًا بأسماء الله الحسنى، محاولاً تمثل هذه الأسماء، لأنها تمثل الأخلاق الإلهية.

ويرى الأستاذ فتح الله كولن أن السلوك الأخلاقي نتاج الحياة الإيمانية، وهو من مقومات وجودها وبقائها، لذلك نجده يقول: «... فإن كل تصرفاتنا الإسلامية تحفز فينا شعور التحرك المسلم، وتقودنا إلى الحياة الإيمانية، وبتواتر انعكاس مكتسباتها الوجدانية، وواردانا القلبية على سلوكياتنا، يتكون نسيج أخلاقنا، ويتلون بأبهى الألوان، وبدوام تدفقها من تصرفاتنا، تتكون مرجعياتُ ثقافتنا، فنؤمن لها البقاء بذاتنا وشخصيتنا، وهكذا إذا كان التكمُل في الإنسان مستندًا إلى ما وقر في قلبه من الإيمان بالله، والاعتماد عليه والثقة به، فسيفيض ذلك على المحيط والبيئة حبًا، واهتماما، وإخلاصًا، وودًا، والفرد المسلم بفضل هذه الجاذبية القدسية التي يحوزها يخرج من الفردية ويكاد يكون أمة»[٣٧].

هذا التلازم بين الإيمان والخلق، يوضح أن كلاً منهما يغذي الآخر، فكما يؤدي الإيمان إلى حسن الخُلُق، كذلك الخُلُق السليم يقوي الإيمان، وبهذا تصبح منظومة السلوكيات ذات مرجعية ثابتة، تنعكس على المجتمع من خلال جاذبية القدوة، فتكون ثقافتنا الذاتية، وتضمن تميزها وبقاءها من خلال تجسد هذه الثقافة فينا، وقد ركّز الأستاذ كولن على أهمية الجانب العملي للأخلاق من خلال القدوة والمثل الأعلى، ودوره في الارتقاء بالأخلاق والسلوكيات، على مستوى الفرد والأمة، فعرض جانب القدوة في حياة النبي ﷺ والصحابة الكرام، وكبار علماء التصوف، كما تمثّل هذه الأخلاق في كل صغيرة وكبيرة[٣٨]، فقدم لمشروعه -الخدمة الإيمانية- زادًا ومددًا من الأخلاق العملية لا ينفذ فغدوا كما يقول الأستاذ فتح الله كولن كالحواريين في أي مكان حلو، وأصبحوا أنموذجًا حيًا لهذه القيم والأخلاق العظيمة، يتحدث كولن عنهم، وإليهم في معظم كتاباته، ويتحدث من خلالهم لغرس هذه القيم، ولنمائها ويفاخر بهم الدنيا، لأنهم أخلصوا لله، وضحّوا، وتمثلوا القيم، والأخلاق الربانية، ومما قال فيهم في مقال سمّاه «الربانيون»: «... إن هؤلاء لا يحتاجون إلى يدٍ، ولا لسان، لأن وجوههم المتلألئة كالمشاعل تذكّر بالله أينما حلوا وأينما وجدوا... لأن السحر المترشح من سيماهم الطاهرة والمعاني الناضجة من أقوالهم كان من القوة بحيث تخرس كل بيان أمامه... وكما في المثل: «لسان الحال أبين من لسان المقال... فهم ينبهون الفطر السليمة والطاهرة إلى ما وراء أستار الأشياء ويسقون السجايا السليمة القيم الإنسانية، سيتحقق في المستقبل القريب بفضل المخلصين الناذرين أنفسهم لفكرة البعث والإحياء تأسيس الصلح بين العقل والقلب، عندها لن ينتهك عرض وسيحترم الجميع، وسيصبح الأقوياء عادلين ويجد الضعفاء فرصة حياة كريمة»[٣٩].

لقد انصب جهد الأستاذ فتح الله كولن، على توجيه الخدمة بمنهج النبوة، ليكونوا أنموذجًا حيًا للإيمان والخلق، يبرهن على أن الإسلام دين عالمي، جاء ليلبي مطالب الإنسان: كل الإنسان

nesemat.com نسمات nesemat.com

الدين يرفع القيم الإنسانية إلى الأعلى، وعلى المسلم أن يتحلى بالأخلاق والقيم قبل تعليم الآخرين.

روحيًا، وعقليًا، وقلبيًا، فيحقق السعادة للإنسانية جمعاء، سواء من دخلوا في كنفه، أو كانوا تحت جناحه ويرى دكتور بابا عمي[٤٠]: أن الأستاذ فتح الله كولن قد ألف كتابه: «النور الخالد» بهذه النية؛ نية توجيه الخدمة بسيرة المصطفى ﷺ من حيث الاتباع والاحتكام فيما يقومون به قولاً وعملاً، وقد اقتبس الأستاذ فتح الله كولن هذا المنهج من كتاب الله ﷻ، من قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾(الأحزاب:٢١) يقول الأستاذ واصفًا خلق النبي ﷺ: «... كان عليه السلام يعيش ما يقوله بمعيارٍ أدقّ من شعرة شطرت أربعين مرة، ويزن تصرفاته بموازين الآخرة الدقيقة، ويحيا حياته في عمق، كأنه يرى الله، وفي عمق رؤية الله له»[٤١]. ويعجز المرء عن وصف خلق النبي ﷺ، فقد كان قلبه معلقًا بربه وعيناه في آثار أسمائه الحسنى، ينظر للدنيا وكأنها خليج للعقبى، ويراها كأنها مزرعة يزرع فيها ويحصد، فاهتم بالدنيا بقدر حجمها وفنائها، واهتم بالآخرة وما وراءها بحسب خلودها وسرمديتها[٤٢]، وعن النبي ﷺ مربيًا يقول الأستاذ فتح الله كولن: «كان في أهله ﷺ وأصحابه مربيًا ومرشدًا كاملاً، ليّن الجانب، حكيمًا، أستاذًا في استخدام العقل، متواضعًا، يتصرف بين أصحابه كفرد منهم، وهبه الله سعةً في خلقته الداخلية والخارجية، فهو مهيبٌ في تواضعه وباختصار شديد فقد بلغت أنواع الكمالات كلها فيه الذروة» [٤٣]، والحقيقة أن المقام يضيق عن وصف خلق النبي ﷺ وشمائله، ومن أراد الاستزادة فعليه الرجوع إلى كتب الشمائل[٤٤]، لكنني أردت هنا الإشارة إلى جانب القدوة في حياته ﷺ الذي ركز عليه الأستاذ فتح الله كولن كثيرًا وخصوصًا في كتابه: «النور الخالد» في مواطن عديدة، منها حديثه عن ربانية الأنبياء، وإخلاصهم في باب خصائص الأنبياء[٤٥]، وفي باب صفات الأنبياء ومكانتها من سيد الأصفياء[٤٦]، وفي الفصل الذي تحدث فيه عن الأمانة عند رسولنا ﷺ[٤٧]، وفي فصل الفطنة[٤٨]، ثم في القسم الثاني من الكتاب، حيث تحدث عن النبي ﷺ مربيًا[٤٩]، أما فيما يتعلق بنهج الصحابة والاقتداء بهم، فقد تحدث في نفس الكتاب (لنور الخالد) في الفصل الخامس من القسم الثاني، عن الجو الذي صنعه الرسول ﷺ والعباقرة[٥٠]، ثم في فصل انعكاس العصمة في حياته ﷺ[٥١]. وكان الأستاذ فتح الله كولن في كل هذه المواطن يعرض أخلاق النبي ﷺ بأسلوب دعوّي توجيهيّ؛ ومن ذلك حديثه عن الأمانة، حيث يقول : «الإيمان والأمان، متلازمان، ولا يكون الإيمان كاملاً بدونهما»[٥٢]، ويستشهد بأحاديث النبي ﷺ ومنها: «المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم» (رواه الترمذي)، ويوصي براعم الإيمان (الخدمة) والمسلمين جميعًا، من خلالهم لاستعادة مجدهم، ونشر الأمن والطمأنينة، لتنفتح لهم قلوب البشرية، ويصبح للأمة الإسلامية وزنها بين الأمم. وقد تشرب الأستاذ فتح الله كولن من أخلاق النبوة بمجاهدته لنفسه، ومن خلال تجاربه

nesemat.com نسيات nesemat.com

سيتحقق في المستقبل القريب بفضل المخلصين الناذرين أنفسهم لفكرة البعث والإحياء تأسيس الصلح بين العقل والقلب، عندها لن ينتهك عرض وسيحترم الجميع، وسيصبح الأقوياء عادلين ويجد الضعفاء فرصة حياة كريمة.

الذاتية وتجارب كبار الصوفية الذين يشير إليهم دائمًا كالإمام الغزالي، والإمام القشيري، والإمام الرباني، والإمام جلال الدين الرومي، والإمام بديع الزمان النورسي وغيرهم، ويظهر هذا الخلق في سلوكه، فيبدأ بنفسه قبل تعليم الآخرين وإرشادهم، ومن كتاباته التي عالجت موضوع الأخلاق بأسلوب عملي حضاري كتابه «ونحن نقيم صرح الروح»، من خلال مقالات مثل «دنيا في رحم الولادة»، «نحو عالمنا»، «الشعور بالمسؤولية»، كل هذا من أجل الانبعاث بعد الموت[٥٣]، وكذلك كتابه «ونحن نبني حضارتنا»، حيث يتحدث الأستاذ كولن في مقال الوعي الجمعي، عن الثقافة الدينية، وكيف كانت سبب إرساء مكارم الأخلاق، وبفضلها تناغمت مكارم الأخلاق مع الحياة الاجتماعية[٥٤]. وفي كتابه «التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح» يتابع فيه رسم منهج الاقتداء بالنبي ﷺ، فالكتاب كله يدور حول الأخلاق، والارتقاء بالإنسان على المستوى الفردي، كما يمثل دعوة للمسلمين ليفيدوا مما فيه من دراسة للقلب الإنساني في سيره إلى الله وارتقائه نحو الكمال، وما ينتج عن هذا السلوك من خلق وأدب، في رؤية قرآنية، وسنة نبوية لا يحيد عنها، كما يصفه مقدم الكتاب الأستاذ أديب الدباغ، ومن خلال هذا الكتاب يعلمنا كيف نشحن النفس بقوى الإيمان وطاقاته في مواجهة الزمان[٥٥]، فالكتاب كله في الأخلاق بأسلوب صوفي، لكنه في الوقت ذاته، طرح حضاري عملي، اشتمل كتابه، على فصل بعوان "الخلق"، وشرح في كتابه الكثير من الأخلاق وتطبيقاتها، كالتوبة، والفرار إلى الله، التقوى، الإخلاص، الاستقامة، الصدق، الأمانة، الحياء...إلخ، والمقام يضيق عن عرض هذه النماذج جميعها، وسأكتفي بالحديث عن الفرار إلى الله.

- الفرار إلى الله: «الفرار في اللغة: الهروب والابتعاد عن الشيء»[٥٦]، أما الفرار عند أهل التصوف: "فهو عنوان السير من الخلق إلى الحق، فكلما ابتعد الإنسان في سبيل إيمانه عن جو الجسمانية القاتل، تقرب إلى الله تعالى وكان موقرًا لذاته"[٥٧]. ويتفق الأستاذ كولن مع هذا التعريف، فهو يأخذ من التصوف ما يتوافق مع الكتاب والسنة، ويذر ما دون ذلك، ويتحدث الأستاذ كولن عن نموذج الأخلاق العملي «مشروع الخدمة» فيقول عنهم: «... إنهم يريدون تذوق نشاوى روحية لا متناهية، لذلك ينظمون هجرات جادة في كل حين، مما لا يريده الله إلى ما يريده، ومما نهى عنه إلى ما أمر به، ومما لا يحبه ولا يرضاه، إلى ما يحبه ويرضاه، فيعيشون في فرارٍ إليه تعالى، لا يقر لهم قرار إلا بإسناد كل شيء إليه سبحانه، وهذا هو الاعتصام الحقيقي»[٥٨].

الدعوة إلى الفضائل ونبذ الرذائل

أكّدت الشرائع السماوية على ضرورة إيجاد الإنسان الفاضل، كما تسعى المجتمعات لذلك، ولا شك أن الارتقاء بالإنسان يحتاج إلى جهد، ويتمثل هذا الجهد بإيجاد «الإنسان المجتمعي» بكل أعماقه؛ الإنسان المضحّي، الوفيّ، المجهز بالقوى المعنوية، الذي ينذر نفسه في درب الحق، فلا بدّ من

تميز القانون الأخلاقي الرباني بميزتين الأولى: عدم الإرغام، والتركيز على الإقناع واحترام العقل، والثانية: تقديم المثل الأعلى.

إنشاء جيل بهذا النمط، لذلك يبذل علماء الاجتماع ومهندسو المجتمع (الدعاة والمصلحون) جهودًا كبيرةً لإنشاء هذا النموذج الإنساني، وقد يصعب على منطق العصر الحديث فهم روح هذا النذر وهذه التضحية، ومن هنا تنبع الحاجة إلى حوار جدي بين القيم التي تنتجها الأمم والحضارات في العالم[٥٩]. وهذا النموذج الإنساني هو من أبرز أهداف الأستاذ كولن؛ ولهذا كثّف جهوده على صعيد الفكر والعمل، بإيجاد هذا النموذج وبناء هذا الجيل -حركة الخدمة الإيمانية- فأثمرت جهوده على مستوى المجتمع التركي، وامتدت إلى معظم بلدان العالم، حيث حاول اجتثاث الرذائل وبناء مجتمع الفضائل، وإيجاد الإنسان المثالي «الفاضل» تمهيدًا لوجود هذا الجيل المجهّز بالقوى المعنوية.

محاربة الرذائل والدعوة للفضائل

إن من أهم أسباب سقوط الدولة العثمانية انتشار الفكر الإلحادي، وقد كان هذا الإلحاد من أهم أسباب إعلان مشروع بديع الزمان النورسي الكبير هو: «إنقاذ الإيمان»[٦٠]. وبعد قيام الجمهورية التركية وإعلان الدولة العلمانية زاد الحال سوءًا، وقد عاصر فتح الله كولن استمرار انتشار الإلحاد الفكري، والفلسفات التي تقدم على أنها الوجه الحقيقي للإنسان، ورأى كيف كان الشباب يهرعون دون تعقّل إليها، كأنهم نوّموا، فانتشرت فلسفة فرويد تحت مصطلح «الليبيدو»، الذي جرح مفهوم الحياء لدى الناس، والفلسفة الوجودية، التي جردت الشباب من الحياء، والماركسية اللينينية[٦١]، ولهذا لم يعد هناك شباب يلتفت إلى جذور روحه ولا إلى أمته[٦٢]، رأى فتح الله بعينيه هذا الفساد الروحي والتدني الأخلاقي، فسعى جاهدًا من خلال وسائل عديدة، فعمد إلى الكلمة والقلم والتوجيه والوعظ شارحًا ومبينا هذه الفلسفات الإلحادية وخطرها وأنها لا تصلح لإحياء حياة المسلم ونهضته، وأنها غريبة عن تربة لا تحيا إلاّ بالتوحيد وبالإسلام، وقد امتاز أسلوبه بالتركيز على العقل والمنطق، وقد أرجع الأستاذ فتح الله كولن الإلحاد إلى الجهل وفقر الروح، ونقص التغذية القلبية، إضافة إلى أن رغبات الشباب لا تعرف الشبع، وانهدام الحياة القلبية للإنسان[٦٣].وقد بدأ الأستاذ كولن بالعلاج ولم يكتف بالكتابة والدروس والمواعظ؛ بل بدأ فعلاً بتطبيق منهج إصلاح في التربية منذ كان مشرفًا على مدرسة: "كستانه بازاري" بإزمير، حيث بدأت معالم بيوت الطلبة تتشكل هناك، وأصبحت محضنًا يرعى الشباب، ويربطهم بالخالق، ويحميهم من كثير من المخاطر التي تهدد الشباب في هذا العصر[٦٤]، فالتربية والتعليم احتلا مكانة كبيرة في مشروعه، وقد ركّز على دور المعلم، والمبلّغ، وعلى أهمية المدرسة، فهي عنده مختبر يمنح الإكسير، ويمنح الحياة، ويداوي أمراض الناس، في هذه المدرسة يترقى المربي روحيًّا، ويصبح قدوة. وقد استفاد الأستاذ فتح الله من أستاذه النورسي عندما تحدث عن المدارس التقليدية والمدارس الحديثة[٦٥] فاهتم

nesemat.com نسمات nesemat.com

إنهم يريدون تذوق نشاوى روحية لا متناهية، لذلك ينظمون هجرات جادة في كل حين، مما لا يريده الله إلى ما يريده، ومما نهى عنه إلى ما أمر به، ومما لا يحبه ولا يرضاه، إلى ما يحبه ويرضاه، فيعيشون في فرارٍ إليه تعالى.

الأستاذ كولن ببيوت الطلبة والمنامات والمدارس بالإضافة إلى مجالس الصحبة والأقسام الداخلية، وجعل منها وسائل لغرس قيم البذل، والعطاء، والتضحية، والتفاني؛ فالتربية تقوم عنده على أساس غرس القيم بالإضافة إلى تلقين المعارف وعلوم العصر ثم الانضباط الفردي طاعة لله تعالى[٦٦].

وقد شخص الأستاذ فتح الله كولن حال المجتمعات من حيث الفضائل والعلم والفكر، فقال: «إن الناظر في حال المجتمعات من حيث الفضائل، والعلم، والفكر، يرى أنقاضًا وأنكاثًا، وما زالت هذه المجتمعات تبحث عن نظام وفكر بديل للتربية، والفن، والأخلاق،[٦٧] لكن منهج التفكير الصحيح والموازين الثابتة والطريق الموصل للحقيقة والفضيلة موجود في إسلامنا، في رسالتنا العالمية، ومن هنا يقول كولن: «... فالإسلام دين قادر على كنس كل أنواع الظلمات من غيظ أو بغض من الأرض، فهو دين التسامح والحوار ولذا لن يجتمع في قلب المؤمن إيمانٌ وارتباط بالله تعالى مع حقد وكراهية وغيظ، فالقلب المملوء بالإسلام يفيض حبًا وتسامحًا إزاء المخلوقات كلها إجلالاً لله تعالى»[٦٨].

لذلك يرى الأستاذ كولن ضرورة السعي لإيجاد الجيل المثالي، الذي يتحلى بالفضائل المادية والمعنوية، ويبرمج حياته القلبية، والروحية، بحيث يبقى بعيدًا عن كل المساوئ المادية والمعنوية، يقظًا ضد الحسد، والحقد، والكراهية، والأنانية، والشهوات، والخلاف، والتفرق والعداوة، وتتبع الأخطاء، والنقائص، والغرور، وحب الشهرة...»[٦٩].

ولهذا تبنت الخدمة فكرًا وعملاً «البعد عن هذه الرذائل» وعن كل ما يميت القلب، حتى صارت الأخلاق من طبعهم وفطرتهم وقد حرص الأستاذ فتح الله كولن على التخلية قبل التحلية، والبعد عن الرذائل، وحث على الامتلاء بالفضائل عقلاً وقلبًا ومشاعر، فحث على التواضع، ونكران الذات، والإيثار والوقار، وحب الإيمان، والعقيدة، والتأجج شوقًا للارتقاء بالآخرين دنيويًا وأخرويًا.

ويرى الأستاذ كولن ضرورة تجديد الإيمان وصقله في كل يوم، وفي كل أسبوع، وفي كل عام، بشتى أنواع العبادات، حتى يتطهر هذا القلب ويصبح مغلقًا أمام العداوات، مفتوحًا أمام الفضائل والطاعات[٧٠]، ومن أمهات الفضائل التي حثّ عليها الأستاذ كولن: «الارتباط برضى الله ﷻ، والتسامح والحرص على صيانة المجتمع، والإخلاص، وعدم طلب الأجر إلا من الله، والابتعاد عن الخلاف، وعدم معاداة أحد، مع وجود وجهة نظر خاصة به، وعدم الاحتكاك مع أحد، وتشجيع كل صاحب عمل إيجابي، والبعد عن التعصب، والمسارعة للعمل مع كل من يمشي على صراط مستقيم لأن الرحمة في الترابط، مع الاستعداد للتضحية بكل شيء من أجل الوصول إلى الهدف، «وهو رضى الله ﷻ»، واعتبار نجاح الآخرين نجاحًا له، ما دام محققًا لنفس الهدف، بل تأخير النفس وتقديم الغير إذا كانوا أكثر قدرة على تحقيق الهدف والانشغال بعيوب النفس، وعدم تتبع عيوب

الإسلام دين قادر على كنس كل أنواع الظلمات من غيظ أو بغض من الأرض، فهو دين التسامح والحوار لذا لن يجتمع في قلب المؤمن إيمانٌ وارتباط بالله تعالى مع حقد وكراهية وغيظ.

الآخرين ونقائصهم، ودرء السيئة بالحسنة، والصبر على الأذى، وعدم الانتقام. وباختصار: البقاء في محور إطار الإيمان الكامل.»[٧١].

وبما أن الإنسان رغباته مفتوحة وفيه ميل شديد للشهوات، لذلك نرى أن الرذائل قد شاعت، وقد أرجع الأستاذ فتح الله أسباب شيوعها إلى طبيعة الإنسان نفسه، ورغباته وشهواته، ولذلك إذا لم يتلقَ هذا الإنسان تربية سليمة، فستؤدي به هذه الرغبات والشهوات إلى الهلاك، لذلك نجده يقول: «الإنسان مخلوق رغباته مفتوحة، ونزواته كثيرة، مثل الحرص والحقد والغضب والشهوة.. إلخ. وهذه النزوات فيها ميل للعبث والفوضى، ولا مفر من وقوعه في براثنها، ما لم يلق عناية ويضبطها[٧٢]». الأشياء والموجودات تسير في الكون بطريقة جبرية والإنسان هو المخلوق الذي حباه الله بالإرادة، فهو يختار ما يشاء فإذا اختار أن ينسجم مع هذا الكون، ويخاف الله تعالى، ويتبع أوامره، فإنه لن يستسلم لنزواته وشهواته، ومن هنا ربط الأستاذ فتح الله كولن بين الاستسلام لله تعالى والانسجام مع الكون والأخلاقية وبين عدم الانسجام مع الكون والانسياق وراء الشهوات واللاأخلاقية.

والأستاذ فتح الله كولن صاحب نظرة شمولية كلية، لذلك فقد نبه إلى خطر اللاأخلاقية والبعد عن القيم، على المجتمعات والأفراد، وبين أن اختيار الأفراد اللاأخلاقية يبدأ من الابتعاد عن الجذور، وتغير زاوية النظر، وانقلاب المفاهيم، ويلقي الأستاذ كولن اللوم على المسلمين جميعًا فيقول: إن كل ما نعانيه اليوم من فساد مستشرٍ وتفسخ مستمر في أجيالنا هو نتيجة لإهمالنا[٧٣]، فيحمّل المسؤولية لنفسه ولكل المسلمين الذين قصروا في توصيل صورة الإسلام الصحيحة للعالم، إضافة إلى الذين قاموا بتشويه صورة الإسلام عن طريق الجهل بالدين والتاريخ، والاغتراب والسير وراء المدنية الزائفة[٧٤]. ويقدم الأستاذ كولن الحلول بعد أن شخّص أسباب اللاأخلاقية وشيوع الرذائل، فيقول: «إذا أراد الإنسان السمو من درجة الإنسان بالقوة إلى الإنسان بالفعل، فعليه أن يستجيب لرغباته ضمن احتساب وجود الآخرين، وهذا هو السمو بالأحاسيس الإنسانية وأن يتربى تربية حسنة، ذات أفق إلهي ومحور إلهي مع تغذية هذه التربية من جذورها فينا، ومن أرواحنا، وعندها لن ترفض هذه الثقافة من قبل الوجدان الاجتماعي، والشعور التاريخي، ويسمي هذه العلاقة بين الإنسان والمجتمع بالعقد الاجتماعي»[٧٥]. ويعرف كولن العقد الاجتماعي بأنه: «تعاقد الوجدان المتيقظ إزاء القيم الإنسانية على عقد مرتبط باحترام الحق والحرية وحب الحقيقة»[٧٦]. ويقتبس الأستاذ كولن مصطلح العقد الاجتماعي -الذي ظهر عند هوبز- مع الاختلاف في مدلوله عند كل منهما؛ حيث يرى هوبز أن الناس اضطروا لهذا العقد لتنظيم حياتهم[٧٧]؛ بينما يجعله الأستاذ كولن من ضرورات الفطرة السليمة، مع ملاحظة تركيز كولن على القيم، والفضائل، وحب الحق، ويركز كولن على الارتقاء في البناء القلبي والروحي الذي يوصل إلى الإحسان أعلى مراتب الإيمان، وهو أن تعبد

nesemat.com نسمات nesemat.com

من أمهات الفضائل التي حثّ عليها الأستاذ كولن: الارتباط برضى الله ﷻ، والتسامح والحرص على صيانة المجتمع، والإخلاص، وعدم طلب الأجر إلا من الله، والابتعاد عن الخلاف، وعدم معاداة أحد.

الله كأنك تراه[٧٨]، فيصل المرء إلى درجة أن يكون المعروف ضروريًا بفطرته فيستنشق المعروف[٧٩].

وفي رسم طريق الوصول إلى الإحسان، يرسم كولن منهج الارتقاء بالقيم الإنسانية عمومًا، حيث يبدأ من الإيمان الصحيح، القائم على فكر وتصور صحيح، ومعرفة صحيحة ثم استشعار هذا الإيمان، وترسيخ حقيقته بأسس الإسلام والاستناد إلى الوجدان وروح الفطرة التي تنسجم مع هذه الأسس وتمنحها الثبات والاستقرار، وسلوك الطريق الحكيمة التي تمثلها النبي ﷺ بالقدوة قبل تعليم الآخرين إلى درجة الشعور بضرورة الإحسان إلى كل أحد وكل شيء، كطور طبيعي للقلب الذي تكامل بمراقبة الحق، ومما يؤكد ذلك قوله: "إن التخلق بالأخلاق الإلهية يتحقق بالأعمال الصالحة والأخلاق الحميدة، فتنزاح الأستار بطريق مجاهدة النفس، والخلوة والذكر والمراقبة، فيغدو الإيمان الإجمالي بالاطلاع على ما وراء الوجود معززًا بالذوق والكشف، كيقين شهودي[٨٠].

إن القيم والأخلاق موجودة في فطرة الإنسان، في وجدانه لكنها تحتاج إلى تربية، ولما كان الإنسان حرًا مختارًا فهو يتحمل المسؤولية، عن هذا الاختيار، فإذا انسجم مع فطرته، وأسلم طائعًا لله، فقد أصبح إنسانًا بالفعل، نموذجًا للأخلاقية والانسجام، وقد ركز الأستاذ كولن على تاريخنا الإسلامي وعلى نموذج الصحابة الذين كانوا قدوة في الأخلاق والقيم، ثم نراه ينتقل مباشرةً إلى الحاضر، يحدثنا عن جماعة الخدمة في كثير من مقالاته، عن أخلاقهم وقيمهم، ونشرهم الفضائل في كل مكان حلّوا فيه، ليربط الأمس باليوم ويحث المسلمين خصوصًا والبشر عمومًا ليتمثلوا بهم ويقارن بهؤلاء الذين حرموا الفضائل ويرى أنهم يستحقون نظرة إشفاق لذلك فإن بناء المجتمع المثالي يحتاج إلى بناء روحي لأفراده يرتفع بمستواهم الإنساني، الحقيقي فيكون مجتمعًا أنموذجًا، وهذا لا يكون إلا في ظل عقيدة صحيحة وموازين أخلاقية ثابتة غير خادعة ولا متلونة، باختصار شديد لن يكون إلا في رسالة الإسلام العالمية الخالدة.

الهوامش

(١) انظر: محمد أنس أركنة، فتح الله كولن، جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، دار النيل ص١١٩.
(٢) انظر: كولن: التلال الزمردية، ص١٢٠.
(٣) عرَّف ابن مسكويه الخُلُق بأنه: «حالٌ للنفس داعيةً لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية ما يكون من طبع المزاج كالغضب لأدنى شيء، ومنها ما يستفاد بالعادة والتدريب حتى يصبح ملكة. انظر: ابن مسكويه، أحمد بن محمد « ت ٤٢١هـ «تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، حققه ابن الخطيب، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، ٤١/١.
(٤) انظر: كولن: التلال الزمردية، ص١١٨-١١٩.
(٥) انظر دراز، د. محمد عبد الله، دستور الأخلاق في القرآن، تعريب وتحقيق، د. عبد الصبور شاهين، ط٤، ١٤٠٢هـ. ١٩٨٢م. مؤسسة الرسالة، دار البحوث العلمية. ص٥٦-٥٧.
(٦) انظر:علي عزت بيجوفتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة محمد يوسف عدس، مؤسسة بافاريا، ص١٩٣-١٩٤.
(٧) محمد بابا عمي، محورية الأخلاق في البناء الحضاري، بين مالك بن نبي وفتح الله كولن.
(٨) أنس أركنه، في مقابلة معه في إسطنبول.
(٩) مقال الإنسان خلق وعمل. مجلة حراء، الشاهد البوشيخي، السنة الخامسة، عدد ٢٠، سنة ٢٠١٠، ص٧.
(١٠) انظر: كولن، ونحن نبني حضارتنا، ص٩٨-٩٩.
(١١) كولن: مقال الوعي، الجمعي، حراء، عدد ٢٥، ٢٠١١. ص٢.
(١٢) كولن: طريق الإرشاد، ص٦.
(١٣) كولن: ونحن نبني حضارتنا، بتصرف، ص١٠٤.
(١٤) انظر: كولن: مقال صورة قلمية لرجل القلب، حراء، عدد ١٤، ٢٠٠٩، ص٤، وانظر دراز، دستور الأخلاق في القرآن، ص١٢٥، وما بعدها.
(١٥) انظر: كولن: مقال الوعي الجمعي، حراء، عدد ٢٥، ٢٠١١، ص١٤. وانظر دراز، دستور الأخلاق، ص٢٤١ وما بعدها.

nesemat.com نسمات nesemat.com

الأستاذ فتح الله كولن قرآني المنهج، وقد كانت نظريته في الأخلاق هي نظرية القرآن؛ حيث يعتبر الوحي "القرآن والسنة" والمصادر التي تدور في فلكهما مصادره في الأخلاق.

(١٦) انظر: كولن: مقال صورة قلمية لرجل القلب، حراء، عدد ١٤، ٢٠٠٩، ص٤. وانظر دراز، دستور الأخلاق في القرآن، ص٤٠٩.
(١٧) انظر: كولن: مقال صورة قلمية لرجل القلب، حراء، عدد ١٤، ٢٠٠٩، ص٤. وانظر دراز، دستور الأخلاق في القرآن، ص٥٧٥-٥٧٨.
(١٨) كولن: الموازين، «أضواء على الطريق، ص٨٦، بتصرف.
(١٩) كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص٨٦. أو ٦٦ بتصرف، وانظر مقال دنيا في رحم الولادة، حراء، عدد٢٧ السنة السابعة، ٢٠١١، ص٣.
(٢٠) كولن: دنيا في رحم الولادة، حراء عدد ٢٧، ص٣.
(٢١) انظر: السيد محمد بدوي، مقدمة دستور الأخلاق في القرآن.
(٢٢) انظر: أمل النعيمات، فتح الله كولن وجهوده في العقيدة والأخلاق، ص١٢٤-١٢٥.
(٢٣) كولن: مقال «من الفوضى إلى النظام» «٢». حراء، عدد ٢٧، ٢٠١٣.
(٢٤) انظر: أمل النعيمات، فتح الله كولن وجهوده في العقيدة والأخلاق، ص١٥٦-١٥٨.
(٢٥) كولن، ونحن نقيم صرح الروح، ص ٩٢، وانظر أيضًا ص٩١، ٩٤.
(٢٦) كولن، ونحن نقيم صرح الروح، ص ٩١، وانظر أيضًا ص٩٢.
(٢٧) كولن، القدر في ضوء الكتاب والسنة، ص ٢٢-٢٣.
(٢٨) كولن، ونحن نقيم صرح الروح، ص ٩٨.
(٢٩) كولن، مقال الوعي الجمعي، حراء، السنة السادسة العدد ٢٥، سنة ٢٠١١، ص٤، بتصرف.
(٣٠) كولن، ونحن نقيم صرح الروح، ص ٢٩٢.
(٣١) انظر: المرجع السابق، ص ٩٢-٩٣. وانظر الإنسان المثالي، ص ٨٤ بتصرف.
(٣٢) كولن، ونحن نقيم صرح الروح، ص ٩٣.
(٣٣) انظر: المرجع السابق، ص ٩٤ بتصرف.
(٣٤) انظر كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص ١٣-١٧. وانظر كولن: مقال دنيا في رحم الولادة، حراء السنة السابعة، عدد ٢٧، ٢٠١١، ص٣.
(٣٥) انظر، كولن، أضواء «الموازين»، ص٢٠٢.
(٣٦) كولن، التلال الزمردية، ص١١٨.
(٣٧) كولن، ونحن نبني حضارتنا، ص٥٧-٥٨.
(٣٨) يتحدث بهذا كل تلاميذ كولن، وقد أكد على هذه القضية د. مصطفى اوزجان من خلال علاقته معه كمدرس في المعهد الذي كان يدرس فيه الدكتور مصطفى.
(٣٩) كولن، مقال الربانيون، حراء، السنة الرابعة، العدد ١٣، لسنة ٢٠٠٨.
(٤٠) د. بابا عمي، بحث محورية البناء الأخلاقي بين مالك بن نبي وفتح الله كولن.
(٤١) كولن، «مقال وخاتم المنبئين عن الغيب»، حراء، السنة الثانية، عدد ٥، لسنة ٢٠٠٦، ص٤.
(٤٢) انظر: كولن، المرجع السابق، ص٥.
(٤٣) كولن، «مقال وخاتم المنبئين عن الغيب»، حراء، السنة الثانية، عدد ٥، لسنة ٢٠٠٦، ص٤.
(٤٤) مثل كتاب «شمائل النبوة والخصائص المصطفوية للحافظ الترمذي»، ت ٢٧٩هـ، وكتاب الشفا، للقاضي عياض، ت ٥٤٤ هـ، وغيرها.
(٤٥) انظر: كولن، النور الخالد، ص ٦٧-٧٤.
(٤٦) انظر: المرجع السابق، ص ٧٥-٨٨.
(٤٧) انظر: المرجع السابق، ص ١٢٤-١٣٧.
(٤٨) انظر: المرجع السابق، ص ١٧٠-٢٨٨.
(٤٩) انظر: المرجع السابق، ص ٢٨٥-٢٣٩.
(٥٠) انظر: المرجع السابق، ص ٢٣٣-٢٣٦.
(٥١) انظر: المرجع السابق، ص ٥٨٠-٦٠٣.
(٥٢) انظر: المرجع السابق، ص١٣٥.
(٥٣) كولن، ونحن نقيم صرح الروح، ص١٠، ٩، ٩١.
(٥٤) كولن حراء، مقال الوعي الجمعي، عدد٢٥، سنة٢٠١١،ص٢، وانظر:كولن ونحن نبني حضارتنا ص٣٢-٣٣
(٥٥) انظر: أديب الدباغ، مقدمة التلال الزمردية، ص٥-١١.
(٥٦) انظر المرجع السابق، ص٤٤،
(٥٧) كولن: التلال الزمردية، ص٤٤-٤٥ بتصرف، وانظر: ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تعليق معتصم بالله بغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ٤٦٦/١.
(٥٨) انظر: المرجع السابق، ص٤٧، بتصرف.
(٥٩) انظر: أنس أركنه، فتح الله كولن جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، دار النيل، ط١، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م، ص٣١
(٦٠) ألّف بديع الزمان النورسي، رسائل النور بهدف إنقاذ إيمان الأمة التركية وهي تضم تسعة أجزاء سجل فيها كل ما استلهمه من القران الكريم من معاني الإيمان. انظر: إحسان الصالحي - مترجم الرسائل -تعريف مختصر بمضامين كليات رسائل النور، ص٢٦-٣٧، دار سوزلر للنشر - القاهرة، بلا تاريخ.
(٦١) الماركسية: تنسب إلى كارل ماركس ١٨١٨ - ١٨٨٣ م، وهو نبي الشيوعية العصرية، أعجب بفلسفة هيغل، وأنكر إعجابه بالتصور فاعتنق المادية واتجه إلى المجال الاجتماعي، وأصبحت الماركسية أكبر ممثل للاشتراكية، انظر: يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، مكتبة الدراسات الفلسفية، دار المعارف، مصر - القاهرة،ط٥، ص ٤٠.
(٦٢) انظر: كولن، أسئلة العصر، ص٢٧. وانظر محمد جكيب، أشواق النهضة، دار النيل، طبعة ٢٠١٣م ص٢٣٣.
(٦٣) كولن، أسئلة العصر، ص٣١.
(٦٤) محمد جكيب، أشواق النهضة، ص ٢٣٨، بتصرف.
(٦٥) انظر: سعيد النورسي، صقيل الأسلام، ترجمة إحسان الصالحي، ط٣، دار سوزلز، القاهرة ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م، ص٤٢٧-٤٣٠.
(٦٦) محمد جكيب، أشواق النهضة، ص ٢٤٦، بتصرف.
(٦٧) كولن، مقال من الفوضى إلى النظام ٢، حراء، عدد ٣٧، ص٢ بتصرف.
(٦٨) كولن، ونحن نبني حضارتنا، ص٥٧ بتصرف.
(٦٩) كولن، مقال صورة قلمية لرجل القلب، ص٢-٤، بتصرف.
(٧٠) كولن، ونحن نبني حضارتنا، ص٥٧ بتصرف.
(٧١) انظر كولن صورة رقيمة لرجل القلب، ص٢-٤. بتصرف.
(٧٢) كولن، من الفوضى إلى النظام ٢، حراء عدد ٣٧، ص٢ بتصرف.
(٧٣) انظر: المرجع السابق، ص١٠١. بتصرف يسير.
(٧٤) انظر: كولن، ونحن نبني حضارتنا، ص٣٢.
(٧٥) كولن، من الفوضى إلى النظام ٢، حراء عدد ٣٧، ص٢-٤، بتصرف.
(٧٦) انظر: المرجع السابق، حراء عدد ٣٧، ص٢.
(٧٧) انظر: يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف مصر ١٩٥٧م، ص ٥٠.
(٧٨) حديث جبريل عليه السلام المعروف، سبقت تخريجه.
(٧٩) كولن، التلال الزمردية، ص ١٩٤، بتصرف.
(٨٠) كولن، التلال الزمردية، ص ٢٣، بتصرف.

قراءة في كتاب

مفاتيح التجديد

عند الأستاذ فتح الله كولن

صـدَر عن "نَسـمَات للدرِّاسـات الاجتماعيـة والحَضارية" الكتَاب الثالث تحت عنوان: "مفَاتِيح التَّجدِيد عند الأسـتَاذ فَتح الله كُولَن" من تأليف الأسْتاذ الدكتور جمَال السفرتي، في طَبعته الأولى سـنة ٢٠٢٠، عن دار الانبعـاث للطّباعة والنشر والتّوزيع، في ٤٣٢ صفحة، والدّكتور جمال السـفرتي يعمل حاليا أسـتاذا للدراسَات الإسلامية في جامعة بدر بألبَانيا، ومستشَارا للمشيخة الإسلامية الألبانية.

الفِكـرة المركَزية لهـذا الكِتـاب وقضيته المِحوريـة، التّي تُصاحبك مـن المقدمَـة إلى الخَاتمة مرورا بفُصوله الخَمسـة، هي كيف اسـتطَاع الأسـتاذ فتح الله كولن بَعث رسَالة الإسلام بأبعادها الحضارية وآفاقها الإنسَـانية مـن جديد، وكيف أمكن لهـذه المدرسَـة الإصلاحِية وهـذه الحَركة التغييريـة أن تأخذ بمفاتيح التجديـد لتقدم تجربة عالمية رائدة، تسْـتلهم رؤاها ونمَاذجها من أفكَار الأستَاذ فتح الله كولن، وفي السطور القليلة من هذه الدراسة يستعرض الكاتب أهم أفكار هذا الكتاب.

عبد العزيز الإدريسي

من مواليد مكناس بالمغرب أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي تخصص التربية الإسلامية. وعضو المكتب الوطني للجمعية المغربية لأساتذة التربية الإسلامية سابقا. حاصل على الدكتوراه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمدينة الجديدة في موضوع "المنظور السنني في مشاريع الإصلاح المعاصرة". وفي رسالته فصل عن الأستاذ فتح الله كولن باعتباره أحد رواد هذا العصر في الإصلاح والتجديد شارك في العديد من ندوات محلية ووطنية ودولية، وله مؤلفات ومقالات متنوعة في الفكر الإصلاحي والتربوي.

إن هـذا الكِتاب الذي نحاول تقريبَه للقراء -والتّقريـب لا يُغني عـن القـراءَة، بـل هو دعـوة وتَحفيز على القِراءة- يعرض تَجربة الأسـتَاذ فتـح الله كُولَـن، ومـن خلالـه حركـة الخِدمـة، التـي تُعتبـر التَّجلي العمرانـي والتَّمظهر الحضَاري لأفكار الأسـتاذ كُولـن، فـي سِياقات مختلفـة ومُنجـزات متنَوعة، الغاية من عَرضها هي حَاجة الأمة والبشرية إلـى الأنمـوذج الحقيقي للإسْـلام الحضَـاري، الذي يقدم البَديل الإسلامي الإنساني المعاصر.

لقـد توَسـل مُؤلِّف هـذا الكِتاب بمنهجيـة عِلمية رَصينة في تتبـع سِيرة ومَسيرة الدَّاعية فتح الله كولن، والإحاطَة بكل المتغيـرات والعوامل التي أسْـهمت في صِياغة شـخصيته وبلوَرة رؤيته للعالَم، بالإضَافة إلـى رَصـد أسـس ومُقومـات المشـرُوع الإصلاحِـي التَّجديـدي الـذي تضطلـع بـه مؤسسـات الخِدمـة وفعالياتها ومنَاشطها.

ولذلك يُعتبر هذا الكِتاب محَاولة جَادة ومستَوعبة فـي إبراز الـدَّور المِحوري في النَّهضـة الفِكرية للأمة الإسْـلامية، وتِبيـان الجُهـود التربوية التـي أبدعها من خلال الجَمـع بين الفِكر والفعل، بين العِلم والعمل، بيـن القِيـم والسُّـلوك، والتَّأكيـد على تميـز الأطروحة الإصلَاحيـة والرُّؤيـة النَّهضويـة للأسـتَاذ كولـن، التي اختصرهـا فـي قولـه : «الإنسَـان مصـدر المشَـاكل والإنسَان مصدر الحُلول»، ولذلك كان الرِّهان بالنسبة للأسـتاذ كولـن هـو الاسـتثمَار فـي الإنسَـان، بمعنـى أن كل المشَـاريـع التَّربويـة والاجتماعيـة والإعلَاميـة والثّقافيـة والفنيـة والتكوينيـة والتّرفيهيـة والتّواصليـة يجـب أن تسـتهدف الإنسَـان تربيـة وتَأهيـلا، تزكيَّـة وتكوينـا، تَخليـة وتحليـة، بما يضْمن تخريـج الجِيل الذّهبـي الـذي سـيلحَق الرَّحمـة بالعَالميـن، كما فعل جيل عَصْر السَّعادة بقيادة سَيّد المُرسلين ﷺ.

وإشـكَالية هـذا الكِتـاب تتَأسـس علـى نُقطتيـن اثنتَيـن: الأولـى: كيف عَاش الأسـتاذ فتـح الله كولن حالته التعبدية التَّنسكية، وهو صاحِب مدرسة فِكرية إصلاحيـة تَربويـة تجديديـة تحتاج إلـى جُهد وعمَل وتفرغ واهتمَام؟

الثَّانيـة: المنهـج الدَّعـوي الإصلَاحـي للأسـتَاذ كولـن، في ظلّ تفَاعل المؤسسَـات والتَّيارات داخِل الدَّولة والمجتمـع.

فـي التَّمهيـد حَـاول د.جمَـال السَّـفرتي التّوقـف عنـد الحَالـة الاجتمَاعيـة والحضَاريـة التّـي كان يعيشـها العَالم الإسْـلامي عَشـية ولادة الأسـتَاذ فتْح الله كولـن. والمَشـهد العَـام الـذي كان مسـيطرا، هـو التَّخلـف والانحِطـاط والهَزيمـة المعنويـة، وانتِصـار النِّظـام الاسـتعمَاري، ممـا أدَّى إلـى تَغييرات جذرية فـي تاريـخ البَشـرية، حيث انهَارت الدَّولـة العُثمانية، وبرز الغرب كقوة عَسكرية واقتصَادية وسياسية. في هذا السِّـياق ظهرت دَعوة الأسـتَاذ كولن، التي تُعتبر امتـدادا لدَعـوة النّـور وبَاعثِها الأسـتَاذ المُجدد بديـع الزَّمـان سـعيد النُّورْسِـي ﷺ، الـذِّي لا يكَاد الأسْـتاذ كُولـن يَذكـره إلا وتَرضَّـى عَليـه واعتبَـره الأسـتَاذ العَظيم ومُنقذ الإيمان في ذلك الزّمان.

إن الوَعـي بالتَّحـولات التي عَرفها العَالم بأسـره عَقـب الحَـرب العَالميـة الأولـى وسُـقوط الدولـة العثمانيـة، وولادة الدَّولة التركية عقِب هذا الانهيار،

ثم الحَرب العَالمية الثَّانية، وما صَاحب ذلك من حركَات للتَّحرر الوطني في غالب دُول العَالم الإسلامي، ومُحاولة الدُّول المتخلفة اللّحاق بركب الدّول المتقدمة، بعد نيلها الاسْتقلال، كل ذلك انعَكس على شَخصية الأستاذ كولن، وجَعله يفكر في مفَاتيح التَّجديد وسُبل الانْبعاث.

وُلد فتح كولن سنة ١٩٣٨ وهي السَّنة التي توفي فيها مُصطفى كمَال أتاتورك، وقد عرفت هذه الحِقبة من تاريخ تركيا تضييقاً كبيراً على الأنشِطة الدينية، مع تبني الدَّولة التُّركية لمبدأ العَلمانية ووضعها في الدُّستور، الأمر الذِي أثر على حياة الأتْراك وثقافتهم، خُصوصا في المُدن والحَواضر الكُبرى.

غير أن نشْأة فتح الله في مرحلة الطفولة لم تتأثر بهَذه الحملة العلمَانية، لأنه نشأ في بيئة مُحافِظة ومتدينة في قرية "كوروجك" بمُحافَظة "أرضروم" التي تقع في أقصى شمال شرق الأنَاضول، فهي بعيدة شيئا ما عن هذه التأثيرات العَلمانية، وفي الوقت نفسه كانت أسرة فتح الله أسرة مُتدنية حاملة للقِيم المِلّيَّة والأخلاق الإسْلامية، كانت أسرة ممتدة، للجِد والجدة الأثر البليغ في توجيه وتربية الأولاد والحفدة، في تكامل وانسجامٍ مع دور الوالدَيْن.

تَرعرع فتْح الله كولن وشبَّ على هوية دينية صُلبة، وتجربة رُوحية متِينة، شكلت الأسَاس الذي سَينطلق منه في دَعوته ومَشروعه الحضَاري الكبير، ولذلك لطَالما أكد الأستاذ كُولَن على أهمية الفِكرة الدِّينية في التَّغيير والإصْلاح، وكيف أن الدِّين ينقل الإنسان من حَال إلى حَال، غير أن الأستَاذ فتح الله كُولن وجد نفسَه أمَام تحدٍّ كبير وإشكَال مركب، يتمَثل أساسا في كيفية التَّوفيق بين القِيم الدّينية والثَّقافة الإسلامية من جِهة، ومن جهة أخرى بين قيم الثّقافة الغربية والأفكار المدنية. إنه في الظاهر صراع بين هويتين، تعارض بين مَرجعيتين، اختِلاف بين حضَارتين.

لكن الأستاذ فتح الله كُولَن استطَاع الجَمع بين الفِكرتين والتَّوفيق بين المَرجعيتين، وقد تأتَّى له ذلك من خِلال قراءاته العَميقة والموسوعية لمئَات الكُتب والمَصادر والمرَاجع في مُختلف التَّخصصات والمَجالات، ثم من خِلال استيعابه للتَّجارب التَّاريخية، وفقهه للوَاقع وتفَاعله معَه، والإجابة عن قضَاياه الرَّاهنة، فكَان بحق فَارسًا للأصَالة وعُنوانا للمُعاصَرة.

الأستَاذ فتح الله كُولَن كان مَهموما بفكرة الإصْلاح، مهوُوسا بقضِية النّهضة، مسكونا بغَاية الانبعَاث، مؤسسا لمَنهج الخِدمة، لأنه تأثر بأبطَال الحَقيقة الذّين أفنوا أعمَارهم في حمْل قضَايا التَّجديد والإصلَاح، والتَّغيير والإحيَاء، كلٌّ حسب موقعه وحسَب مجاله، وهم رِجال وعُلماء ومُثقفون ومُفكرون سبقوا أو عاصروا الأستاذ، ومن بَاب الوَفاء لهم، فإن الأستَاذ كُولن يَذكرهم بأسمَائهم وسِماتهم على سَبيل الاقتِداء والاهْتداء.

هذا التّهمم غذَّاه وقوّاه تدبره للقرآن المجيد، وتشربه لحقائق السنة والسيرة النبوية، وعشقه

الأستَاذ فتح الله كُولَن كان مَهموما بفكرة الإصْلاح، مهوُوسا بقضِية النّهضة، مسكونا بغَاية الانبعَاث، مؤسسا لمَنهج الخِدمة.

الجنوني لجيل الصحب الكرام، حيث شكّلت هذه الأصول مرجعيات معرفية في الدعوة والإرشاد، في التربية والتعليم، ومما قاله الأستاذ ذات مرة لطلبته وهو يحمل كتاب «حياة الصحابة»: كونوا مثل هؤلاء أو موتوا، يقول راوي الواقعة وعيناه تفيض بالدمع، وهو من تلاميذ الأستاذ الخُلَّص: فلا نحن كُنَّا ولا نحن مِتنا! لأن الأستاذ كان حريصًا على توريث هذا الهَمّ إلى طلابه، لأن هذا الهمّ إذا ما استقر في فؤاد الإنسان، فإنه يحقق نقلة نوعية في التصور والسلوك، ويسهم في تحرير طاقات الإنسان الإبداعية الكامنة، وإعادة الاعتبار لوظيفته الاستخلافية والعُمرانية.

كل ذلك جعل الأستاذ كولن ينشغل بقضايا عصره حتى النخاع، فهو المثقف المنخرط في مجريات الحَياة بكل تفاصيلها، والمربي الملهم للشباب الباحث على المنقذ من تيارات الإلحاد الفكري والانحلال الأخلاقي، فكانت محاضرات الأستاذ ومقالاته ومؤلفاته بمثابة البلسم الشافي للجراحات المادية والمعنوية التي كانت تتخبط فيها فئات عريضة من الشعب التركي، ما جرَّ عليه الكثير من المضايقات والاتهامات، بل وصل الأمر إلى المُحاكمات، والأستاذ كولن ثابت شَامخ كالجبَل الأشم.

في الفصل الثاني من هذا الكتاب، استطاع المؤلف د. جمال السفرتي أن يقدم صورة كلية مكثفة حول منهج الأستاذ كولن في بناء الذّات وتكوين الإنسان الحركي، من خلال التركيز على أربعة محاور أساسية، وهي: منهجه في البناء العلمي، ومنهجه في البناء الروحي، ومنهجه في تكوين الإنسان الحركي، ثم في نقطة رابعة فريدة، منهجه في التأليف.

المدخل المنهجي في البناء العلمي عند الأستاذ كولن اعتمد على ربط طلب العلم بالوحي، وربط طلب العلم بالنقد، والحرص على الذَّاتية في التعلم، لأن هذا المدخل هو القمين بالتخلص من الجهل، وهو المفضي إلى اقتران العلم بالعمل، وتتوحد المعرفة مع الأخلاق، فترتقي إلى المستوى الإنساني اللائق بها، ورغم أن الأستاذ كولن لم يلتحق بالمدرسة العصرية، ولم يتخرج من معهد لتكوين المعلمين أو المشرفين التربويين، إلا أنه صاحب نظرية تربوية مكتملة الأركان، أكدت نجاعتها وفعاليتها في مدارس الخدمة التي تفوقت على كل المدارس الأخرى شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً.

العالَم الرّوحي للأستاذ كولن عالم خاص جدا جدا، ولذلك فقد كان التعبد والتنسك هو السمة المهيمنة على سلوك الأستاذ كولن، فهو شديد الحساسية تجاه الصلوات والأذكار والأدعية وتلاوة القرآن، لأن الحياة الحقيقية في نظر كولن هي حياة الروح والقلب، لأنها تسمو بالحياة المعنوية نحو الأنس بالخَالق سبحانه وتعالى، في مجاهدة النفس بما سماه المؤلف حياة التّكهف أو الكهفية، وهذا لا يعني الانسحاب من الحياة، وإنما كان يهذب نفسه من خِلال الانخراط في المجتمع، وخوض

فتح الله كُولَن استطَاع الجَمع بين الفِكرتين والتَّوفيق بين المَرجعيتين، وقد تأتَّى له ذلك من خِلال قراءاته العَميقة والموسوعية لمئَات الكُتب والمَصادر والمرَاجع في مُختلف التَّخصصات والمَجالات، ثم من خِلال استيعابه للتَّجارب التَّاريخية، وفقهه للوَاقع وتفَاعله معَه، والإجابة عن قضَاياه الرَّاهنة.

غمار الحياة الاجتماعية، ومشاركة الناس همومهم وآلامهم وآمالهم، لأن العزلة الروحية المطلقة مخالفة لحَقيقة التَّزكية القرآنية.

ولذلك نجَح الأستاذ كوُلن في تكوين الإنسَان الحركي وورثَة الأرض، الذين سيحملون لواء الخِدمة، وينطلقون بها في العَالمين جامِعين بين خَاصيتي الفِكر والحَركية، لأن منهج الخدمة في رؤية الأستاذ كولن يجمع بين العِلم والعَمل، بين القَول والفِعل، بين الفكْر والحَركية.

إن البِدايات الدّعوية للأستاذ كولن كانت تُنبئ بأن هذا الشّاب يملك هِمة عالية في خدمة الدّين، وروحا متوقدة في إصلاح عالم المسلِمين، جعلته يقتحم كل الميادين، ولا يقف عاجزا أمام التحديات والمشكلات، بل كانت حافزا له، فكلما تعرض لتضييق أو منع، سلك مسلكا آخر مُتمثلا الحكمة الإيمَانية البَليغة "من عَرف سِرَّ المنْع فُتح له بَابُ العَطَاء"، مُنوعا في بلاغه الحضاري بين المحاضرة والندوة والخُطبة والموعظة والمناظرة، ثم التدريس والتأليف، وهكذا بدأت دعوة كولن تنمو وتتوسع، ويتزايد المقتنعون بمعقولية الفكرة، وصوابية المشروع، وفاعلية النَّموذج، وحاجة الأمة إليه.

لقد كان من الطبيعي أن يفكر الأستاذ كولن في المفَاتيح المناسبة لتجديد دين الأمة، مفاتيح يستطيع أن يفتح بها أبوَاب النهضة ونوافذ الإصْلاح، لأنه موقن بأن باب التَّجديد هو الذي سيبعث وظائف النبوة من جديد، ويحقق للدين الخلود وقدرته على الاستجابة لحَاجات الأمة، واستمْرارية شهودها على العَالمين، دليله في ذلك قول الحبيب عليه الصلاة والسلام" إن الله يبعَث لهذه الأُمة على رأسِ كل مئَة سنَة من يُجدد لهَا دينها" أخرجه أبو داود، والتَّجديد مَهمة إنسانية والتَّجدد سُنة كونية.

إن عملية التجديد الشّاملة التي باشرها الأستاذ فتح الله كولن لم تقتصر في مداها على فقه وفهم النّصوص الشرعية واستنبَاط الأحكَام منها، بل شملت أبعَاد التجديد في التأصيل والتنزيل والتفعيل، من خلال استثمار المخزُون التربوي والإيماني والمعرفي والسُّنني في الفكر والتّراث الإسلامي، في الدّعوة والتكوين والخدمة الإيمانية والإنسانية، في مستويات النظر والممارسة، والفكر والفعل، العقل والقلب، الفرد والمجتمع.. لأن التجديد عند كولن هو بنَاء الإنسان وعُمرانه بالإيمان من أجل ترشيد سلوكه وتصويب مسيرته وتجويد عبَادته، والاجتهاد في التَّفاعل مع القضايا المستجدة قصد المساهمة في النهوض الحضاري، وفق المرجعية القرآنية التي أسَاسُها إلحاق الرَّحمة بالعالمين.

في هذا السياق اسْتثمَر كولن فكرة الخِدمة باعتبَارها فلسفة معاصرة في الدّعوة الإسلامية، جوهرُها توظيف طاقَات الإنسان وإطلاقها في العمل التَّطوعي والمبادرة إلى فِعل الخيرات، وتحريك الهمم نحو الأعمَال الجَليلة والعظِيمة، لأن المؤمن في حَركة دائبة نشطَة إيجابية مستمِرة لاكتشاف

nesemat.com نسمات nesemat.com

هذا الهمّ إذا ما استقر في فؤاد الإنسان، فإنه يحقق نقلة نوعية في التصور والسلوك، ويسهم في تحرير طاقات الإنسان الإبداعية الكامنة، وإعادة الاعتبار لوظيفته الاستخلافية والعُمرانية.

الذات وخدمة الآخر. والخدمة بهذا المعنى تستغرق حيَاة المؤمن كلها من المهد إلى اللحد، دون كلل أو ملل، في التبليغ والهداية والإرشاد والدعوة، في تشييد المؤسسات وتنظيم الفَعاليات، التي تتغيّا بناء الإنسان وخدمته (مدراس، معاهد، صالونات القراءة، مستشفيات، مؤسسات إعلامية، جامعات، مراكز حوار، جمعيات إغاثية، ندوات، مؤتمرات، ملتقيات، مجلات، كتب، منشورات..).

ثمة مَلمح مهم أشار إليه الدكتور جمال السفرتي والمتمثل أساسا في أنَّ مشرُوع الأستاذ كولن هو عبارة عن رؤية تَجديدية إصلاحية وليس "حرَكة إصْلاح دِيني" "Reform" بمعنى "إعادة التشكيل" التي تتوجه إلى التعديل والتغيير في المصادر الأصلية والمنابع الرئيسة، كما حصَل في الغرب المسيحي، ولذلك عمل الأستاذ كولن على تأثيل مفهوم "الانبعاث الحضاري" الذي يعني الثبات على المنهج في التَّجدد، والانطلاق من الجذور المعنوية للأمة في تحقيق النهضة.

ومن القضايا المائزة في بحث د. السفرتي بيانه أن مشروع الأستاذ كولن لا ينافس أحدا ولا ينازع على جاه أو سلطة أو منفعة دنيوية، وإنما هو مَشروع لبنَاء الإنسان الصَّالح وصناعة الإنسان المصْلح داخل المجتمع المسلم أو في أي مجتمع آخر، من خلال مؤسسات التربية والتعليم، المؤسسات الإعلامية، ومراكز الحوار، والجمعيات الإغاثية التي انتشرت دَاخل تركيا أو خارجها، فحركة الخدمة تتجه نحو عالمية جديدة مؤسَّسَة على القيم النبيلة والثقافة البانية، لذلك نجد في حركة الخدمة رجالاً مخلصين متعلقين بروح الإصلاح وأشواق النهضة، لا يفكرون في ذواتهم، يضحون بكل ما يملكون من أجل الفكرة التي آمنوا بها، لا فرق بين الرِّجال والنساء بين الشَّباب والكُهول.

ثم من الأمور الأسَاسية في المشروع التّجديدي للأستاذ كُولن ومن خلاله حرَكة الخدمة، أنه اتخذ الإسلام دِينًا وليسَ أيديولوجية، وهذا المأخذ يربط هذا المشرُوع بالأصول الكُبرى والمثُل العليا للإسلام، مما يضمن لهذه الحركة التَّوجه نحو الأبدية والعَالمية، وتَعزيز النَّموذج الإنساني للبَديل الإسلامي الذي تتوق إليه البشَرية جمعَاء، في ظل ما تعيشه من أزمَات واختناقات، يقول الأستاذ كولن: «إن قيامنا -بنِيةٍ متوجهةٍ إلى الله تعالى- بخدمة الإنسَانية، والاحتفاظ بدعوتنا فوق كل رغبة وهوى، وفوق كل الشهوات والرَّغبات الدنيوية ومنافعها، وبعد معرفة الحَقيقة والوصول إليها والاستِعداد والتضحية بكل ما نحب وبكل ما تعلقت قلوبنا به، والعزم على هذا بكل ثبات وقَرار، وتحمل جميع المشَقَّات والمصاعِب التي تتجاوز تحمل الإنسان في هذا السَّبيل، وفتح الطرق المؤدية إلى سعَادة الأجيال القادمة، والتهيؤ للانسلاخ من كل المنافع المادية والمعنوية، والعيش لسعادة الآخرين، والرضا بإشغال الصفوف الأولى عند المغَانم، أي الابتعاد عن كل مُنافسة من أجل المنصِب أو الجاه ..هذه

nesemat.com نسيات nesemat.com

استطاع المؤلف د. جمال السفرتي أن يقدم صورة كلية مكثفة حول منهج الأستاذ كولن في بناء الذّات وتكوين الإنسان الحركي، من خلال التركيز على أربعة محاور أساسية.

هي غايتنا التي لا يمكننا التفريط فيها» (المَوازين أو أضوَاء على الطّريق).

أكيد أن الدكتور جمال السفرتي قد خبِر فِكر الأستاذ كولن من خلال القرَاءة العميقة لمكتوبات الأستاذ المترجمة إلى اللّغة العربية، والصُّحبة العلِمية والرُّفقة الإيمانية لأبطَال الخدمة، ومن خلال الزيارات الميدانية لمشاريع ومؤسسات الخدمة، فاستطاع أن يرسم لوحة تشكيلية للمضامين النَّظرية للحركة، أهم معالمها: اتبَاع نهج الصحابة، والابتعَاد عن السياسة، والأخُوة الإيمانية، وابتغاء رضا الله تعالى، ثم شَرعية الوسَائل، وملاءمة الفِكر لروح العصر، وأخيرا التفاني ونُكران الذات. أما المضامين العملية لحركة الخدمة فتتجلى في: الفِداء والتَّضحية، والزكاة والإنفاق، ثم الوقف والمتولي، والتعليم والمعلم، وتنْظيم قطاعات المهنيين، وأخيرا الحِوار والتَّفاؤل.

إن هذه المعالم هي التي جعَلت حركة الخدمة تنسلخ من القَالب إلى اللب، وتنفذ من المظْهر إلى الجَوهر، والتَّخلص من الكثير من المثبطات والعرَاقيل الذاتية والموضوعية، وتخريج أجيال الأمل عبر محَاضنها التربوية، الذين تنَوَّرت عُقولهم، وأشرقت أرواحهم، ورشدت عقولهم، والذين يصفهم الأستاذ كولن بقوله: «إن أجيَال الأمل باعتبار الزمن الحاضر هم مُمثلو العلم والإيمان والأخلاق والفن، وهم مهندسو الروح لمن يأتون بعدنا» (ونحن نقيم صرح الروح)، بتعبير آخر إنهم الأجيال المثالية، أصحاب الأفق الرحيب، أو الإنسان الجديد.

بعد أن استثمر الأستَاذ كولن في تأهيل الإنسان، واستمَر في ذلك مدة طويلة، باشَر عملية التجديد والإصلاح، مع كوكبة من الأجيَال المثالية، التي انطلقت في ربوع العالم مهاجرة ومناصرة تحمل ورود العلم ورحيق المحبة وأريج الرحمة إلى العالمين، مستندة إلى رؤية شمولية وتخطيط محكم وأهداف واضحة رسمها الملهم بريشة الصِّدق والعَطاء، وماء الإخْلاص والوَفاء.

يُكثِّف الدكتور جمال السفرتي، منهجية الأستاذ كولن في التجديد والإصلاح، في الفصل الرابع من هذا الكتاب، من خلال التركيز على منهجية الأستاذ الدّعوية، ومنهجيته في التربية والتعليم، وكيف يَفهم خطاب الوحي قرآنا وسنة وسيرة، وكيف تَعامل الأستاذ مع الصَّحافة والإعلام، ومنهجيته في تناول قضايا التَّصوف، ثم موقف الأستاذ من بعض المستجدات المعاصرة، ويمكن أن أجمل خلاصة هذا الفصل، في أن الأستاذ فتح الله كولن كان يسبق عصره ويسير أمام التاريخ، ولذلك كانت استشرافاته الحَضارية دليلا على تميزها المنهاجي في هذه القَضايا والإشكالات، وبرهانا على صوابية اختياراته الدعوية.

ويُمكن أن نقدم مِثالا على ذلك، كيف استطاع الأستاذ كولن أن يُرسي ثقَافة الحوار في المجتمع التُّركي؟ مجتمع كان يطبعه التناحر والصراع

نسمات nesemat.com

نجَح الأستاذ كوُلن في تكوين الإنسَان الحركي وورثَة الأرض الذين سيحملون لواء الخِدمة، وينطلقون بها في العَالمين جامِعين بين خَاصيتي الفِكر والحَركية.

والإقصاء والنزاع بين الحركات الفكرية والتيارات السياسية، فانتبه كولن إلى أن هذا الوضع يُضيع على الأتراك فرصة النهوض، فعَمد إلى إرساء ثقافة الحوار وقبول الآخر، ومقاومة التَّعصب والكراهية، فقام بزيارة الفنانين والرياضيين ومشاهير المجتمع وصُنَّاع الوعي فيه ابتداء من سنة ١٩٩٠، ومحاورتهم في كل ما يهم المجتمع التركي، ثم قام بدعوة هؤلاء إلى موائد الطعام في بيوت تلاميذه، وهُنا انطلقت عجلة الحوار بين الفرقاء، وبعد تحقيق التّراكم في هذا السياق، قام كولن في سنة ١٩٩٤ بمَأسَسَة هذا الحوار من خلال تأسيس «وقف الصحفيين والكتاب» الذي احتضن المئات من المنتديات الحوارية المتخصصة التي تهم المجتمع التركي ثم الإقليمي ثم الدولي، فأضحت هذه التجربة عنوانا لتكريس قيم التعايش والتسامح، بل وفتحت المجال للنَّسج على منوالها في كثير من البُلدان، ثم انتقلت التجربة من الحوار الداخلي إلى الحوار الخارجي بين الأديان والحضارات، فكانت زيارة الأستاذ كولن إلى بابا الفاتيكان أبرز عنوان.

تجْربة الأستاذ فتح الله كولن في الميزان، هي عنوان الفَصل الخامس والأخير، حيث أبرز المؤلف أهم عوَامل نجاح حركة الأستاذ كولن، ثم عرَّج على الإنجازات العملية، وردَّ على بعض المآخذ حول الأستاذ كولن وحركَة الخِدمة.

في البدَاية أكد بأن أهل الخِدمة لا يتحدثون عن النَّجاح، وإنما يتحدثون عن التوفيق الإلهي، ولهذا التَّوفيق أسباب على حد تعبير الأستاذ نوزاد صواش، وهذه الأسباب هي: الواقعية/ المعقولية/ المرحلية/ البعد الروحي/ الانمحاء في حساب الله/ المزج بين الخلوة والجلوة، بالإضافة إلى ما ذُكر في الفصول السابقة، وهذا النجاح أو التوفيق انعكس على الإنجَازات العَمَلية لهذه الحركة المباركة، والتي أجملها المؤلف في:

١- المدَارس: هي قُطب الرحى في مشروع الأستاذ كولن، ومدَارس الخدمة هي أنجَح المدَارس في تركيا وخارج تركيا، هذه المدارس مَبْنِية بأجمل الطرز المعمارية ومُؤَثثة بأفضل أثاث، ومجهزة بآخر التجهيزات الإلكترونية والوَسائل الدِّيداكتيكية، ولكن قبل ذلك وبعده بأطر إدارية وتربوية كفأة، تشتغل بنَفَس رسالي، وأفق إنسَاني، وهِمَّة عالية، بكلمة واحدة إنها مدارس صنَاعة التَّفوق والسعادة.

٢- الجَامعَات: هي مؤسسات للبحث العلمي والتكوين الأكاديمي، تستجيب في تخصصاتها لحاجات المجتمع، وبذلك تسهم هذه الجَامعات في تحقيق التنمية، داخل تركيا وخارجها.

٣- وَقف الصَّحفيين والكُتاب: من خلاله تَمَّ التأسيس لتجربة الحوار بين الفرقاء، ثم بين الأديان والحضارات، ففي كثير من الأحيان سيكتشف هؤلاء أن الاختلاف لا يمنع من الجلوس على مائدة الحوار، ومناقشة الأفكار بالدليل والحجة والبرهان، فأضحت هذه المؤسسة نموذجا للاقتداء.

nesemat.com نسمات nesemat.com

مشروع الأستاذ كولن لا ينافس أحدًا، ولا ينازع على جاه أو سلطة أو منفعة دنيوية، وإنما هو مَشروع لبنَاء الإنسان الصَّالح وصناعة الإنسان المصْلح داخل المجتمع المسلم أو في أي مجتمع آخر.

٤- الجَمعية الإغَاثية «هَلْ مِنْ أَحَد؟»: هذه المؤسسة ذات البُعد الاجتماعي الإغاثي بدأت أعمالها عقب الزلزال الذي ضرب تركيا سنة ١٩٩٩، والتي ستتحول بعد ذلك إلى أكبر مؤسسة إغاثية في تركيا، بل وستنقل أعمالها إلى خارج تركيا، في إغاثة المنكوبين، فكان أبطال الخدمة يستجيبون لنداء المكروب، مثلا في تسونامي أندونيسيا، وفي زلزال باكستان، وفي مجاعة دارفور، وأثناء العدوان على غزة...كان فدائيو المحبة أول المشاركين في الإغاثة. (وذلك قبل قرار الحكومة التركية إغلاقها عام ٢٠١٦)

٥- مجموعة قَيْنَق للنَّشر: وهي منظومة فكرية متكاملة بدأت بمجلة «الرَّشحة Sizintu» التي انطلقت ١٩٧٩، ثم تكَاثرتْ إلى أن أصبحت المجَلَّات الصادرة الآن بعدد إخوة يوسف عليه السلام، ومنها مجلة «حراء» التي تصدر باللغة العربية.

٦- المجموعة التلفزية «درب التبانة» Saman-yolu، ومنظومة إعلامية تمتلك ثلاث عشرة قناة تلفزيونية، وثلاث إذاعات، وأنتجت العديد من المسلسلات الدرامية...كل ذلك في انسجام مع القِيم الرِّسالية التي تُؤطر المشرُوع الإصلاحي للأستَاذ فتح الله كولن.

وفي خَاتمة هذا الفَصل أَورد المؤلف بعض المآخذ على حَركة الخِدمة، ثم بيّن تهافتها، ليختم كتابه بقوله: «الخِدمة نماذجها من الدَّاخل، وما لم يتمكن الدَّارس من الدُّخول إلى عُمقها لا يمكن أن يستوعب حَقيقتها، إنه الخَوض، في الإنسان قَبْل الخوض في الزمان والمكان والمؤسسات والبنيان» (مفَاتِيح التَّجدِيد عند الأستَاذ فَتح الله كُولَن، ص: ٤٣٠).

إن التَّجديد هو الرُّوح السارية التي تحفظ للأمة كَينونتها، وتضمن لها القيام بوظيفة الشّهود الحَضاري، يقول الأستاذ فتح الله كولن: «لذَلك نؤمن بضرورة توجيه العالم الإسلامي جميعا إلى التجدد بكل أجزائه في فهم الإيمان، وتلقيات الإسلام، وشُعور الإنسان، والعشق والشوق، والمنطق، وطريقة التفكير، وأسلوب الإفادة من نفسه، بمؤسساته ونظمه التي تكسبه هذه الأحوال» (ونحن نقيم صرح الروح).

وفي ختام هذه القِراءة التقريبية لمضمون الكتاب، لا يسعنا إلا أن نشكر جزيل الشّكر الأستاذ الدكتور جمال السفرتي على هذا المجهود الماتع النافع الذي ضمنه في الكتاب القيم، وأنوه وأدعو إلى ضرورة قراءة الكتاب بعمق وروية، لأنه يعرف بشخصية عظيمة يندر أن يجود بها الزمان، وبنموذج إصلاحي فريد من نوعه، على حد قول الشاعر الأندلسي عمارة اليمني:

حَلف الزَّمانُ ليأتينَّ بمِثْلِه
حنثَت يمِينُك يا زمَانُ فكفّر

nesemat.com نسمات nesemat.com

الأستاذ كولن لم يلتحق بالمدرسة العصرية، ولم يتخرج من معهد لتكوين المعلمين أو المشرفين التربويين، إلا أنه صاحب نظرية تربوية مكتملة الأركان، أكدت نجاعتها وفعاليتها في مدارس الخدمة التي تفوقت على كل المدارس الأخرى شرقًا وغربًا.

العقيدة ودورها في البناء المعرفي

لدى الأستاذ كولن

محمد عطا فنير المساعيد

دكتوراه في العقيدة والفلسفة الإسلامية بجامعة العلوم الإسلامية، بتقدير ممتاز ٢٠١٩
بعنوان: دور العقيدة في البناء المعرفي للحضارة الإسلامية
ماجستير في العقيدة بجامعة آل البيت عام ٢٠١٣
بعنوان: الأخلاق الإسلامية بين الثبات والنسبية: دراسة عقدية
وحاليا: أستاذ التربية الإسلامية بوزارة التربية والتعليم بمحافظة المفرق بالأردن.

للعقيدة دور مهم في نشأة الحضارات الإنسانية في العصور المختلفة، ولا يخفى الدور المحوري الذي شكلته العقيدة الإسلامية في الحضارة الإسلامية على مدار تاريخها، ومن ثم اهتم المفكرون والمصلحون والمجددون ببعث الإيمان وإنقاذه في نفوس المسلمين لاستعادة إقلاعهم الحضاري من جديد كلما ألمت بالأمة أزمة كبيرة، فالعقيدة هي التي تشكل التصور الصحيح للإنسان عن الله تعالى وعن الكون، وعن حقيقة وجود الإنسان في هذه الحياة.

ومن هؤلاء المجددين الذين اهتموا بالعقيدة باعتبارها محركًا وفاعلاً مهمًّا في عمارة هذا الكون المفكر والمصلح التركي فتح الله كولن، وسوف تناقش هذه الدراسة العقيدة ودورها في البناء المعرفي لدى الأستاذ كولن، وأسباب محنة العالم الإسلامي من وجهة نظره، وأهمية الدين في بناء الحضارة، وكيف استطاع نقل هذا البناء المعرفي التصوري من عالم التصورات إلى واقع الحياة.

١ **العقيدة في اللغة لا تخرج معانيها المتعددة عن أربع أصول أساسية، وهي: الشدة والتأكيد والربط والتصديق.**

والعقيدة في الاصطلاح: "ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل"[١] والسلوك العملي للإنسان من صلاة وصيام وغيرها هي جزء من مفهوم العقيدة وليست ركنًا من أركانها، والعقيدة التي هي التصديق القلبي، لا تشمل العمل فتارك العمل غير جاحد به لا يخرج صاحبه من الملة، وإنما هو عاص لله تعالى مستحق الوعيد، فالعمل هو مكمل وثمرة من ثمرات الإيمان. والمعرفة: هي اعتقاد جازم مطابق للواقع ناشئ عن دليل.

وبعد هذا التقديم نقول: يؤكد الكثير من المهتمين بفلسفة قيام الحضارات أهمية العقيدة في البناء المعرفي للحضارة الإنسانية وازدهارها، ومن أشهر هؤلاء «جوستاف لوبون» -مؤرخ الحضارة المشهور- الذي أوضح أن أهم المبادئ التي تسير عليها الأمم، والتي تعتبر عماد قيام الحضارات على مر التاريخ، تتمثل في المبادئ الدينية، التي كانت أهم عنصر في حياة الأمم والشعوب لقيام الحضارات، وقد احتل الدين هذه المكانة العظمى؛ لأنه هو العامل الوحيد الذي تتوحد به منافع أي أمة ومشاعرها وأفكارها، يقول لوبون عن تأثير المعتقدات الدينية في بناء الحضارة: «إنها كانت على الدوام الركن الأكبر في حياة الأمم، وإن أكثر الحوادث التاريخية والتنظيمات السياسية والاجتماعية مستمدة من المبادئ الدينية، فإنه يتولد مع كل مبدأ ديني جديد حضارة جديدة»[٢].

وذهب هنتنجتون إلى اعتبار الدين عنصرًا أساسيًّا في أي حضارة، مؤكدًا على عنصر التمايز بين الحضارات، والمتجسد في الدين، حيث يقول: «إن الفروق بين الحضارات ليست فروقًا حقيقية فحسب، بل هي فروق أساسية، فالحضارات تتمايز الواحدة عن الأخرى بالتاريخ واللغة والثقافة والتقاليد والأهم الدين»[٣].

وهكذا كان للعقيدة أثرها البالغ في نشأة الحضارة الإنسانية في عصورها المختلفة، وفيما يتعلق بالحضارة الإسلامية خاصة، فإن النجاح الذي حققته الدولة الإسلامية كان يرجع إلى العقيدة الإسلامية وحدها، قال سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ: «إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله». (رواه الحاكم في المستدرك)

فلم يكن غريبًا إذن أن يهتم مفكرو الإسلام بتأصيل هذه الفكرة، وتطبيقها على الحضارة الإسلامية التي كان الإسلام هو أصل نشأتها وباعث نهضتها، وإليه ترجع عوامل ازدهارها وقوتها، فإذا ضعف تأثيره في عقول أصحابها ووجدانهم وأخلاقهم، كان ذلك نذير ضعفها وتقهقرها، وربما أدى ذلك إلى انهيارها وفنائها[٤].

nesemat.com نسمات nesemat.com

العقيدة في جانبها المعرفي هي التي تحدد الأهداف العامة لسلوك الإنسان في الحياة، وهي التي تحدد الأهداف لما سينجزه، وهي التي تحدد المنطلقات للقيام بهذه المنجزات وتحدد توجهها.

وقد انشغل بهذا الهم الكثير من مفكري الإسلام في أقطاره المختلفة رجال كثيرون وكان منهم على سبيل المثال رفاعة الطهطاوي، وخير الدين التونسي، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وعبد الرحمن الكواكبي، ومحمد إقبال، والشيخ عبد الحميد بن باديس، وسعيد النورسي،[٥]، وعلي عزت بيغوفتش، والمفكر التركي الكبير محمد فتح الله كولن.

وقد جاءت العقيدة الإسلامية لتشكل التصور الصحيح للإنسان عن الله تعالى، وعن الكون والوجود، وعن حقيقة الإنسان، وعن الحياة التي يعيشها الإنسان، وتجيب عن أسئلة العقل حولهما، فأزالت ما به من غموض وشكوك، ووضحت له الحقائق الغائبة عنه، بغية الوصول إلى تصور كامل وشامل للوجود.

ولما كانت العقيدة الإسلامية بهذه المكانة، وتشكل المحور الأساس في إنشاء التصور الصحيح للوجود، فإنها هي المحرك الأساس للإنسان وهي التي تدفعه للعمل وتوجه سلوكه في الحياة وفقًا لها، وإذا كانت الحضارة الإسلامية في جوهرها منجزات إنسانية فالتصور العقائدي للإنسان يمثل أداة التوجيه الكبرى له في الحياة، ذلك أن العقيدة في جانبها المعرفي هي التي تحدد الأهداف العامة لسلوك الإنسان في الحياة، وهي التي تحدد الأهداف لما سينجزه من منجزات، وهي التي تحدد المنطلقات للقيام بهذه المنجزات وتحدد توجهها، والعقيدة بعد ذلك هي التي تعطي جملة المنجزات الحضارية سماتها الخاصة بها وتصبغها بصبغتها، وكذلك فإن الأفكار والمعتقدات تشكل جزءًا من مفهوم الحضارة الإسلامية، وإن أغلب العلماء والباحثين يعتبرون العقيدة عنصرًا أساسيًّا في تكوين الحضارات، بل إن العقيدة تمثل المفاعل الذي يدمج عوامل تشكيل الحضارة.

البناء المعرفي عند محمد فتح الله كولن

محمد فتح الله كولن من العلماء المسلمين الأتراك الذين ظهروا في القرن العشرين، وهو مفكر كبير ترجمت أفكاره إلى عدة لغات عالمية، مما أسهم في انتشار أفكاره في العالم أجمع، ولد عام (١٩٣٨)، وكانت تركيا في تلك الفترة تعاني من انتشار الفكر العلماني الذي بشر به مصطفى كمال أتاتورك، وعزل الدين عن الحياة ومحا الشخصية الإسلامية، كما أن العالم الإسلامي كان خاضعًا لصراع مع الحضارة الغربية، التي جاءت إليه غازية مستعمرة تبتغي احتلال أرضه، ونهب خيراته وثرواته، وتقسيم شعوبه وبلدانه إلى شعوب وبلدان متناحرة، ليسهل عليها بعد ذلك فرض أفكارها وثقافتها وأنموذجها الحضاري عليه.

أسباب محنة العالم الإسلامي في نظر كولن

إن أسباب محنة العالم الإسلامي في نظر كولن هو تزعزع موقف المسلمين تجاه دينهم، معتقدين أن دينهم لم يعد يصلح لمواكبة التطور في هذا الزمان، ومنبهرين بما وصلت إليه الحضارة الغربية من تقدم مادي رهيب، فأدى ذلك ببعض المسلمين إلى الاستسلام لضغط الواقع، «والتضحية بالدين

nesemat.com نسمات nesemat.com

إن الفروق بين الحضارات ليست فروقاً حقيقية فحسب، بل هي فروق أساسية، فالحضارات تتمايز الواحدة عن الأخرى بالتاريخ واللغة والثقافة والتقاليد والأهم الدين.

في سبيل الدنيا طمعًا في عمارة دنيانا، وتبنينا فهمًا يرجح الدنيا على الدين ... فضاع الدين، وفرت الدنيا، وعاش العالم المجيد التعيس مرحلة التفريغ رفضًا لميراث مبارك من ألف عام»[٦].

ولكن الأستاذ كولن كان ينظر إلى عوامل القوة التي ما تزال كامنة في العالم الإسلامي رغم ما يبدو عليه من ضعف، ولهذا يقول: «وما زالت الأرض بعد الدوار الطويل والتزلزل الشديد، ورغم أنف الأشياء، قادرة على تحقيق هذا التكوين في الحاضر، ومالكة لطاقة تحقق بعثًا جديدًا بعد الموت، وإن أمتنا تمتلك تراكمًا علميًّا يجعلها قادرة على الريادة فيما حولها من التكوينات الجديدة، وزد على ذلك أن قيادتها للأمم آمادًا مديدة، تركت فرصًا مكتسبة من القبول الكامن تحت الشعور في الشعوب المنقادة لها منذ الزمن الغابر، وهي مقتدرة على استعمالها اليوم»[٧].

ولم يغب عن فكر الأستاذ كولن أن هناك محاولات للنهضة والإصلاح والبعث، تشهدها تركيا وأماكن أخرى في العالم الإسلامي كمصر والجزائر، ولكنه نظر إلى بعض هذه المحاولات نظرة نقدية اتسمت بالصراحة؛ ولذلك وصف بعض هذه المحاولات بأنها تجديد شكلي، وظهر فيما يقال إنه تجديد تلبس الفكر المِلّي الديني بلبوس الفسق وتخريب روح الملة، وما كان لمثله أن يهادن مثل هذا الفكر، وهو يرجو للأمة كلها إصلاحًا حقيقيًّا، يعيد لها مجدها العلمي والفكري والسياسي الذي كان لها من ألف عام[٨].

ويركز المفكر التركي الكبير في كتاباته على مفهوم الذات والهوية والثقافة الذاتية للأمة الإسلامية، وتصدى لدعوات التغريب التي كانت تروج للنموذج الغربي، على الرغم من سيئاته الكامنة في بنيته الأخلاقية وسلوكه العلمي واستعلائه على الشعوب، يقول كولن: «وقد اعترى الغرب في القرون الماضية نسيان لقيمه الدينية، ووصايا السيد المسيح عليه السلام، فشن أهله الحروب في القارات، وأشاعوا الرق والاستغلال أينما حلُّوا، فلطّخوا وجه العالم بالسواد»[٩]، ثم يضيف قائلًا: «إن هذا العالم يحاول أن يسلي نفسه بالمنجزات العلمية والتكنولوجيا هنا وهناك، أو يسري عن غمه بالثروة والراحة أحيانًا، لكن من البدهي أنها لن تمنح الإنسان سعادة مستمرة أبدًا، ولن تلبي رغبة البقاء والخلود المكنونة في أعماقه، ولذلك ما من شيء يتخذه دواء وعلاجًا إلا ويزيد في قتام أفق الأمل الإنساني، ويضيف بؤسًا إلى بؤسه الروحي»[١٠].

ويحدد كولن ما نأخذ من الفكر الغربي وما ندع منه، بوضعه أسسًا لذلك، فلا يجب أن نقبل كل شيء وافد إلينا، أو ندع كل ما هو غريب عن المجتمع الإسلامي، بل نأخذ ما هو موافق لثقافتنا بعد أن ننقيه من الأفكار الضارة والمنكرة، يقول كولن: «والآن جاء أوان ترويض ما ألهمته المدارس من العلوم والتجارب، بعجنها في معجنة أرواحنا نحن، وتغذيتها بأسس ثقافتنا نحن، ذلك بأننا إن كنا عازمين على المضي قدمًا نحو المستقبل، فلا مناص من أن نكون ذاتيي المنطق، والمحاكمة العقلية،

nesemat.com نسمات nesemat.com

أغلب العلماء والباحثين يعتبرون العقيدة عنصرًا أساسيًّا في تكوين الحضارات، بل إن العقيدة تمثل المفاعل الذي يدمج عوامل تشكيل الحضارة.

والأسلوب، باستثمار تراكمنا العلمي والتجريبي في مواقعه المناسبة»[11].

ويؤكد كولن أن العالم لم يعرف حتى اليوم أيديولوجية نجحت في جمع البشر في ظلها زمنًا طويلاً، وأن الدول الغربية لم تستطع رغم الادعاءات الكثيرة أن تحقق الأمان للعالم، ولا أن تحقق السعادة له، ولم يفلح في ذلك دعاة الرأسمالية في الغرب ولا دعاة الشيوعية في الشرق، وأن هذا الإخفاق زعزع أركان الثقة في هذه النظم أمام العالم، إضافة إلى عجز الحلول المطروحة وقصورها عن احتضان البشرية، ومخالفتها للطبيعة الإنسانية؛ ولهذا تقف الإنسانية اليوم مع كل نظام يعرض عليها موقف الشك والقلق، ثم بين أن من أهم عيوب هذه النظم إغفالها مجموعة من القيم الإنسانية[12]، «فذلك جميعه قوض أركان الأيديولوجيات كلها، فخلفت خرائب وأنقاضًا فكرية»[13].

أهمية الدين في بناء الحضارة عند كولن

إن الدين واكتشاف حقيقة الإيمان، هو المخرج في نظر كولن الذي نشأ وتربى في بيئة محافظة على الإسلام، وإن «اكتشاف حقيقة الإيمان من جديد، واستشعاره في وجدانه، وتغذية إرادته بالعبودية لله، حتى تبقى منفتحة ومستعدة للإقبال على الخير والصلاح[14] هو المخرج»، لأن هذا المخرج مجرب على مدى تاريخ طويل، وهو صالح لإعادة النهضة من جديد للعالم الإسلامي، الذي فقد روحه، وتخلى عن عوامل قوته.

ويبين كولن أهمية الدين وأثره في التكوين النفسي والخلقي والاجتماعي للمؤمنين به، بما يسمح بتقدم المؤمنين به على نحو لا يحققه غيره؛ لأن الدين إذا تغلغل في الضمير وفي الشعور، يؤدي إلى ما يشبه أن يكون ولادة جديدة للإنسان، فهو «ليس منحصرًا على العبادات فقط، بل يحتضن الحياة الفردية والاجتماعية معًا، ويتدخل في كل شيء لنا عقلي وقلبي وروحي ويصبغ بصبغته كل تصرف لنا»[15]، وأنه كلما تغلغل في القلوب فسيمتد «تأثيره على أنشطته الذهنية والفكرية والعلمية، وبعد مدة سيحقق حصول طبع ثانٍ فيه، هذا الطبع سيستحكم تأثيره من الأعماق رويدًا رويدًا، في كل صفحات حياة المؤمن: معتقداته وعباداته وأخلاقه وعلاقاته الاجتماعية، وارتباطه بربه وسلوكياته»[16].

وتأثير الإسلام في تكون الإنسان نفسيًا وخلقيًا واجتماعيًا أكثر قوة بسبب شمول الإسلام؛ فهو شمول يجمع بين العقيدة والعبادة والشريعة والأخلاق، وشمول يمتد تأثيره إلى الحياة الاجتماعية، فيقيم حياة الأفراد والجماعات على العدل والاستقامة والحرية، ويحرر البشر من سلطة الأقلية، وينقلهم إلى العالمية، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾(الأعراف:١٥٨) .

والإسلام يدعو إلى تحقيق مبدأ المساواة وتكافؤ الفرص بين الناس، ويقاوم الإقصاء والإبعاد لأصحاب الكفاءات لأسباب عنصرية أو سلطوية، ويراعي خصوصيات الإنسان الأساسية مراعاة تامة،

nesemat.com نسمات nesemat.com

أمتنا تمتلك تراكمًا علميًّا يجعلها قادرة على الريادة فيما حولها من التكوينات الجديدة، وزد على ذلك أن قيادتها للأمم آمادًا مديدة، تركت فرصًا مكتسبة من القبول الكامن تحت الشعور في الشعوب المنقادة لها منذ الزمن الغابر، وهي مقتدرة على استعمالها اليوم.

فلا يحصر توجهه في العقل والفكر، ولا يهمل أحاسيسه، ولا يغض الطرف عن وجدانه كما تفعل بعض المدارس الفلسفية، «بل إن الإسلام ينظر إلى الإنسان بعين الخالق تعالى، فيضعه في قالب متين بكله الذي لا يقبل التجزؤ والانقسام، ويستجيب لمطالب أحاسيسه الداخلية والخارجية، ويعده بعناصر وجوده المادية والمعنوية كلها، ليكون جاهزًا للسعادة الدنيوية والأخروية، وأهلاً لدخول الجنة"[١٧].

ويكتسب حديث كولن عن الإسلام مسحة روحية وجدانية ليزداد حديثه عن الإسلام قوة في بيان تأثيره في الفرد والمجتمع، ويتجلى هذا في بعض الأوصاف التي وصف بها هذا التأثير، يقول كولن: «الإسلام هو مصدر غذائنا الأصل كحليب أمهاتنا، وكان له الدور الأساس في توجيه مشاعرنا وأفكارنا وتقويماتنا»[١٨].

ويتحول هذا كله في النفس الإنسانية إلى نوع من العشق والاشتياق، الذي يجعل من الإنسان المؤمن إنسانًا جديدًا قائمًا على محور الوجدان، ثم يمتد التأثير إلى كل سلوكيات هذا الإنسان العاشق المشتاق، فتصير عباداته وطاعاته وحركته كلها انعكاسًا لتأثير الدين في نفسه[١٩]، «وتتمحور حركاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإدارية كلها حول قوة الجذب المركزي هذه، فتتشكل فعالياته الفنية وأنشطته الثقافية بهذه المقومات الداخلية وتتوسع بها»[٢٠]، ويصير هذا الإيمان بمثابة شجرة طوبى.

وتتكامل كل صفات الكمال للإسلام، فهو يجمع بين العقل والقلب، والدين والعلم، والفكر والعمل، والاعتقاد والسلوك، والمنطق والشعور، دون صراع أو تنافر، ثم هو يقدم للبشرية كلها نظامًا للحياة جديدًا وفريدًا، يقيم الوشائج بين الكائنات وخالقها، ويقطع دابر التناقضات في الإلهيات، ويسد كل الثغرات العقلية والمنطقية والفكرية والعاطفية في قلوب المخاطبين وعقولهم[٢١].

وهذا طبيعي للغاية «لأن مصدره الأول هو الوحي الصافي النقي، وتفسيره الأول هي السنة، فكما أن القرآن معجز، كذلك نظامه المنبثق والمكوَّن من خطاباته وتعاليمه معجز، وكما أن القرآن لا مثيل ولا شبيه له، فلا مثيل ولا نظير للإسلام الذي يعد من آثاره»[٢٢].

وإن كولن عندما يتحدث عن الإسلام، يقصد به إسلام العصر النوراني الأول في عهد النبي ﷺ وفي عهد الصحابة الأبرار، ولكنه يلفت النظر إلى أن الإسلام بسبب حفظ مصادره؛ القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، صالح لإعادة النهضة مرة أخرى والقضاء على مشكلات العالم الإسلامي، لكن هذا الأمر مرهون «في حال التمسك بالقرآن والسنة وإدراكُ مراميهما، بالدرجة التي كان عليها المخاطبون بهما في العصور الأولى»[٢٣].

إن المقصود بالإسلام إذن هو الإسلام الأول عند منابعه الأولى، وليس هو الإسلام الذي يبدو في واقع المسلمين المعاصر باهتًا ذاويًا فاقدًا لبريق جاذبيته السماوية، ولذلك فإن النموذج الذي يصلح للاقتداء به في الواقع، هو نموذج الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، أو ما يطلق عليه أصولنا الذهبية،

nesemat.com نسيمات nesemat.com

الدول الغربية لم تستطع رغم الادعاءات الكثيرة أن تحقق الأمان للعالم، ولا أن تحقق السعادة له، ولم يفلح في ذلك دعاة الرأسمالية في الغرب ولا دعاة الشيوعية في الشرق.

التي حملت الرايات في مراحل الارتقاء كافة، وفي المقدمة رجال عصر السعادة النبوية، وهؤلاء هم المهندسون العظام لتاريخ الأمة الإسلامية، وهم الذين مثلوا الإسلام حق التمثيل، وهم يقدمون مثالاً نموذجيًّا لتأثير الإسلام، إذ كان العرب قبل الإسلام مجتمعًا صلبًا للغاية، بل وحشيًّا متعصبًا لعاداته، ومعاندًا أشد العناد، متهاويًا في أخلاقه السيئة وعاداته الفاسدة، لكن الإسلام حولهم عن هذا كله[٢٤]، لأنهم «أنصتوا للقرآن، وتربّوا بغذاء القرآن، وعشقوا صاحب القرآن، فإذا بهم يجدون أنفسهم في صعيد البناء والإعمار والإحياء، بعوالمهم الشعورية والفكرية والحسية»[٢٥].

وقد حملهم الإيمان على أن ينقلوا «إلهامات إيمانهم الفوارة في قلوبهم إلى صدور الآخرين، فبجملة واحدة بدَّلوا مصير الدنيا من النحس إلى السعد، وبنفخة واحدة صاروا صوت الأمل ونفسه في ثلاث قارات»[٢٦].

وعلى هذا لن يتم الإحياء والتجديد والنهضة في العالم الإسلامي، إلا بأن يكون الإسلام في قلب الحركة التجديدية ومركزها، وإذا كان الأمر كذلك فلسنا بحاجة إلى أن نقدم «فهمًا جديدًا للإسلام، ولا إلى إعادة تعليم الإسلام للمسلمين، وإنما المطلوب هو العمل على تفهيم المسلم الأهمية الحيوية لما يعرفه عن الإسلام فعلاً، وقوة تأثيره، وديمومته الأبدية»[٢٧].

ثم ينبغي أن يكون هذا الفهم مشروطًا، بأن يتشبع المسلمون بروح الكفاح، من أجل تحقيق هذا الإسلام، ويتخلصوا من الفتور، ويتصرفوا بوعي وانتباه، ويتعالوا على الشهوات النفسية والجسمانية، وأن يعيشوا حسب أفق القلب والروح، وألا يدعوا مجالاً لظهور أي فكر سلبي في عوالمهم الداخلية[٢٨].

الانتقال من الفكر إلى العمل

إن كولن يقدر قيمة الفكر، ويرى أنه هو السبيل إلى فتح القلوب، وهو البديل عما كانت تقوم به الجيوش قديمًا، ولذلك كان من صفات إنسان الفكر، أنه «وليّ الحق اللدني الذي يعد قادة أركان الروح ومهندسي العقل وعمال الفكر، بدلاً من استخدام القوة المادية لفتح البلاد ودحر الجيوش»[٢٩].

لأن الفكر في نظر كولن يمثل الخطوة الأولى للتغيير، وهو يمثل بالتعبير الشائع هذه الأيام خريطة الطريق التي تحدد المنطلقات، وتضع البرامج، وتصور المشكلات، بناء على فهم الواقع، والمعرفة بالتحديات والصعوبات، ثم تضع الحلول والبدائل التي تؤدي إلى تحقيق الغايات المرجوة من وراء هذا الفكر.

لكن هذا الفكر لا يثمر، ولا يحدث التغير المنشود إلا إذا انتقل من عالم الأفكار إلى التطبيق العملي، أو إلى المنطق العملي الذي سبق مالك ابن نبي إلى الحديث عنه، ولذلك يتحدث الأستاذ كولن عن علاقة الفكر بالحركة، وخطر افتقاد الفكر

nesemat.com نسمات nesemat.com

الدين إذا تغلغل في الضمير وفي الشعور، يؤدي إلى ما يشبه أن يكون ولادة جديدة للإنسان، فهو ليس منحصرًا على العبادات فقط، بل يحتضن الحياة الفردية والاجتماعية معًا، ويتدخل في كل شيء لنا عقلي وقلبي وروحي ويصبغ بصبغته كل تصرف لنا.

للحركة، ثم خطر الوقوف عند الفكر وحده دون انتقال إلى العمل، لأن هذه الأفكار لا يمكن أن تلقى القبول لدى الآخرين ما لم يطبقها أصحابها، يقول كولن: «من المحال طلب استقرار فكر لم يستقر في وجدان صاحبه»[٣٠]، لذلك يحث المسلمين على تقديم الإسلام للآخرين، متمثلاً في سلوك عملي، وليس مجرد أفكار نظرية.

ويتحدث عن نوعين من البشر، يعيش أحدهما من غير ممارسة للفكر، ويتصف ثانيهما بأنه يفكر ولكنه لا يعكس فكره على واقع الحياة، فأما الذين يعيشون بلا فكر، فهم دمى تقلّد الآخرين وتردد أفكارهم، وهو يشبههم ببرك الماء العقيمة الآسنة الخامدة، وهم يتحولون بمرور الزمن إلى مجمع للفيروسات، كما يتهمهم بالضحالة والسطحية والطفولية[٣١]، ومن ثم كان من الواجب تجنب مثل هذا الموقف، يقول كولن: «أما ما ينبغي فهو أن يعيش الإنسان وهو يفكر، وأن يبتكر أنماطًا فكرية جديدة إذ يعيش، فيتفتح على آفاق مركبات فكرية مختلفة»[٣٢].

ومعنى ذلك أن هناك علاقة بين الفكر والعمل، فالفكر يتحول إلى عمل، والعمل يلهم المفكر أفكارًا جديدة، تضيف إلى الفكر أبعادًا جديدة، لم تكن ملحوظة لصاحبه قبل البدء في العمل، كما يمكن أن يؤدي العمل إلى تصويب الفكر أيضًا، ويتحدث كولن عن تداخل الفكر والحركة في وقائع التاريخ العظيمة، فيقول: «تداخل يتربى ويتبرمج فيه العمل الحركي بالفكر من جهة، وتهيئ فيه الحركة والجهد الحركي أرضية لأفكار وبرامج جديدة من جهة أخرى، فكأن الفكر بهذا المعنى سماء ومطر للعمل الحركي، أو فضاء وهواء له، وكأن الحركية أرض وسندان للفكر، أو تراب وقوة الإنبات فيه، فلا أحسب هذا الأداء المتقابل غلطًا، ذلك بأن كل جهد حركي هو تحقق فكر وبرنامج، وكل فكر هو بداية ووتيرة للعثور على أُطُره الحقيقية وبلوغ مراميه في ثنايا التحركات الملتزمة به»[٣٣].

ويضع كولن هذا الترابط بين الفكر والحركة على قمة مشروعه وجهوده الإصلاحية، يقول كولن: «يمكن تلخيص خط كفاحنا كورثة الأرض بكلمتي الحركة والفكر، وإن وجودنا بوجهه الحقيقي يمر عبر الحركية والفكر، حركية وفكر يغيران الذات والآخرين»[٣٤].

إن كولن يقدر الحركة على نحو مماثل للفكر، وذلك عندما يقول: «وإن أهم شيء وأشده ضرورة في حياتنا هو الحركية، فمن الضروري أن نتحرك على الدوام ... ونفتح صدورنا أمام معضلات الحركية المستمرة، والفكر المستمر، ومهما ضحينا في هذا السبيل»[٣٥]، ويعلل ذلك بقوله: «فإن لم نتحرك نحن، فسندخل في تأثير الدّوَّامات الفكرية والبرامجية لأمواج هجمات الآخرين وأعمالهم الحركية، ونضطر إلى تمثل فضول حركاتهم»[٣٦]، ومن ثم الذوبان في الآخرين كقطعة جليد تسقط في الماء، والتسليم لأي تكوين يناقض ذاتنا، ويضاد جوهرنا[٣٧].

الإسلام يدعو إلى تحقيق مبدأ المساواة وتكافؤ الفرص بين الناس، ويقاوم الإقصاء والإبعاد لأصحاب الكفاءات لأسباب عنصرية أو سلطوية، ويراعي خصوصيات الإنسان الأساسية مراعاة تامة.

وإن كولن لم يغفل الجانب الروحي في بناء فكره عند معتنقيه، إذ إن من خصائص منهج كولن التخلص من هذه الثنائيات المتضادة، كالقول بالتناقض بين الدين والعلم، أو بين الفكر والعمل، أو بين العقل والروح، بل إن كولن يعمل على مزج هذه الأمور ويستخلص من كل جانب منها ما يؤدي إلى التكامل مع الجانب الآخر، فالثنائيات -في فكره- تتكامل ولا تتناقض، يقول كولن: «إن حركية حياتنا الدعوية والفكرية هي حياتنا الروحية، في حال لا يمكن به فصل حياتنا الروحية عن فكرنا الديني، فقد تحقق كل صراع من أجل الوجود والحضور خاصة لدى شعبنا باللجوء إلى المعنى والروح الإسلامية، وظهر بارزًا بالأعماق التي يختزنها في ذاته كلما توجه إلى الإسلام»[٣٨].

والتكامل بين العقل والروح يؤدي إلى تكامل في الشخصية الإنسانية، وينبه كولن إلى أهمية الإيمان والعقيدة وأثرها في تحويل الفكر إلى عمل، لأن الفكر وحده ليس بإمكانه أن يتحول إلى عمل من غير دافع داخلي للإنسان، ولذلك تبقى الأفكار حبيسة الكتب أو العقول، بعيدة عن التأثير الفعلي في حركة الحياة، ولا يتحقق لها ذلك إلا إذا تحولت إلى عقيدة أو أيديولوجية تحرك الإرادة الإنسانية، وتمنحها الصلابة والقدرة على التحمل، وهذا دور الدين الذي يخاطب عقل الإنسان ووجدانه، ويؤثر في شعوره وإرادته، ويغير فكره وسلوكه.

ولذلك كان من الواجب في التربية أن يتحقق الجمع بين إشراقات العقل وإلهامات الروح، والمزج بين الفكر والذكر، وبين التأمل والعبادة، وأن يتهيأ الإنسان للانتقال من المنطق والمحاكمة (الفلسفة)، إلى تلقي الإلهام والواردات الإلهية[٣٩]، وبهذا يكون «كل تصرف للمؤمن الحقيقي عبادة، وكل فكر منه مراقبة، وكل كلام له مناجاة وملحمة معرفة»[٤٠]، أو بعبارة أخرى -كما يقول: «من العسير الارتقاء إلى هذه الذروة ما لم تمرر التجربة في مصفاة العقل، وما لم يسلم العقل نفسه للفطْنة العُظمى، وما لم يقع المنطق في الحب عينه، وما لم ينقلب الحب أيضًا إلى عشق إلهي»[٤١]، فإذا تحقق هذا كان العلم» بعدًا من أبعاد الدين وخادمًا له، العقل طيف نور يصل به الإلهام أينما يشاء، وأصبحت المكتسبات التجريبية منشورًا يعكس روح الوجود، ويصدح كل شيء بصوت أناشيد المعرفة والمحبة والذوق الروحاني»[٤٢].

ولذلك يتحدث عن مقامات التصوف وأحواله ويستخلص منها ما يؤدي إلى ترقية النفس وتهذيبها، واكتسابها لأخلاق التواضع والتضحية والفناء عن الشهوات والرغبات، كما يتحدث عن رياضة الأوراد والأذكار[٤٣]، ويتحدث عن صفات ورثة الأرض فيجعل من عناصرها الإيمان الكامل والعشق الذي يعد أهم إكسير للحياة، وأن الذي يؤمن بالله ويملأ قلبه بمعرفته، يعيش عمره كله وسط حالات المدّ والجزر للعشق والمواجد والجذبات والانجذابات والأذواق الروحية[٤٤]، ومن ثم فنحن في الحاضر وفي كل مناسبة «بحاجة إلى أن تفيض القلوب من العشق، وأن تطفح من الشوق في فهم جديد لتحقيق انبعاث عظيم»[٤٥]، ويتحدث عن ضرورة الفكر الرياضي لورثة الأرض، فيقول: «إن أصحاب الفكر الرياضي يجمعون بين الرياضيات وقوانينها فكريًّا... ويصاحبونها دائمًا من الفيزياء إلى الميتافيزيقا، ومن المادة إلى الطاقة، ومن

الجسد إلى الروح، ومن الشريعة إلى التصوف، إننا مضطرون إلى قبول الأسلوب المزدوج لفهم الوجود فهمًا شاملاً، وأعني الفكر التصوفي والبحث العلمي»[٤٦].

وكما سبق بيانه لم ينحصر مشروع هذا الأستاذ في نطاق الفكر، بل إنه خرج إلى نطاق الحركة والتأثير، وتمثل هذا في جماعة الخدمة الإيمانية التي اعتنقت أفكاره، وهي «مشروع حضاري شمولي عالمي ذو طابع أخلاقي تربوي يترك لكل منتمٍ إليه حرية الإبداع والحركة والتطبيق»[٤٧].

وقد سلكت الخدمة عدة طرق لتحقيق أهدافها، كالعمل على إغاثة المنكوبين في الحروب والكوارث، وإنشاء المدارس ذات الجودة العالية في جميع أنحاء العالم، فهي تمتلك أكثر من ألف مدرسة موزعة في دول العالم، وعدد من الجامعات، ومئات المدن الجامعية، بالإضافة إلى المؤسسات التعليمية، كالصحف والمجلات، والمحطات الإذاعية، والقنوات الفضائية التي تبث بعدة لغات، وعشرات المواقع الإلكترونية على شبكة الإنترنت تبث بـ «٢٢» لغة وتنشر مقالات كولن[٤٨].

الهوامش

(١) الجرجاني، السيد الشريف علي بن محمد، شرح المواقف، ضبطه وصححه محمود عمر الدمياطي، دار الكتب العلمية، لبنان،ط١، م١، ١٩٩٨، ص٤٣.
(٢) جوستاف لوبون، سر تطور الأمم، تعريب أحمد فتحي زغلول، المطبعة الرحمانية، ط٢، ص ١٥٥.
(٣) هنتجتون، صامويل، صدام الحضارات، ترجمة طلعت الشايب، دار سطور، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٢٠.
(٤) مدكور عبد الحميد، أثر العقيدة في بناء الحضارة لدى مالك بن نبي ومحمد فتح الله كولن، نسمات، ع ١، https://nesemat.com
(٥) انظر: المرجع نفسه.
(٦) كولن، ونحن نقيم صرح الروح، تر. عوني عمر لطفي، دار النيل للطباعة والنشر، ط٤، ٢٠٠٨، ص ١٥.
(٧) كولن، ونحن نقيم صرح الروح، مرجع سابق، ص ٢٩.
(٨) انظر: كولن، ونحن نقيم صرح الروح، مرجع سابق، ص ١١٣.
(٩) كولن، ونحن نبني حضارتنا، تر. عوني عمر لطفي أوغلو، دار النيل، ط٢،٢٠١١، ص٨.
(١٠) المرجع نفسه، ص ٨-٩.
(١١) كولن، ونحن نبني حضارتنا، مرجع سابق، ص ٢٥.
(١٢) انظر: كولن، ونحن نبني حضارتنا، مرجع سابق، ص ٣٨-٣٩.
(١٣) المرجع نفسه، ص ٣٩.
(١٤) المرجع نفسه، ص ٩.
(١٥) كولن، ونحن نقيم صرح الروح، مرجع سابق، ص ٢٤-٢٥.
(١٦) كولن، ونحن نبني حضارتنا، مرجع سابق، ص ٥٣-٥٤.
(١٧) كولن، ونحن نبني حضارتنا، مرجع سابق، ص ١١٢.
(١٨) المرجع نفسه، ص ٩٩.
(١٩) انظر: المرجع نفسه، ص ٥٢.
(٢٠) المرجع نفسه، ص ٥٢-٥٣.
(٢١) انظر: كولن، ونحن نبني حضارتنا، المرجع نفسه، ص ٥٧.
(٢٢) المرجع نفسه، ص ١٠٦-١٠٧.
(٢٣) المرجع نفسه، ص ٩٩.
(٢٤) انظر: المرجع نفسه، ص ٩٨-١٠٤.
(٢٥) المرجع نفسه، ص ١٠٤.
(٢٦) كولن، ونحن نبني حضارتنا، مرجع سابق، ص ٤٥.
(٢٧) المرجع نفسه، ص ٤٨-٤٩.
(٢٨) انظر: المرجع نفسه، ص ١١٠.
(٢٩) المرجع نفسه، ص ٦٣.
(٣٠) كولن، طرق الإرشاد في الفكر والحياة، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار النيل،ط٤، ٢٠١٠، ص ١٢٣.
(٣١) انظر: كولن، ونحن نقيم صرح الروح، مرجع سابق، ص ١٢٠.
(٣٢) المرجع نفسه، ص ١٢٠.
(٣٣) المرجع نفسه، ص ٨٠.
(٣٤) المرجع نفسه، ص ٥٧.
(٣٥) كولن، ونحن نقيم صرح الروح، مرجع سابق، ص ٥٧.
(٣٦) المرجع نفسه، ص ٥٧.
(٣٧) انظر: المرجع نفسه، ص ٥٧.
(٣٨) المرجع نفسه، ص ٥٩.
(٣٩) انظر: المرجع نفسه، ص ٥٩.
(٤٠) كولن، ونحن نقيم صرح الروح، مرجع سابق، ص ٥٩.
(٤١) المرجع نفسه، ص ٥٩.
(٤٢) المرجع نفسه، ص ٥٩.
(٤٣) انظر: كولن، التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح، تر. إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، ط٣، ٢٠٠٦، ص١٣٣.
(٤٤) انظر: كولن، ونحن نقيم صرح الروح، مرجع سابق، ص ٣٥.
(٤٥) المرجع نفسه، ص ٣٥.
(٤٦) المرجع نفسه، ص ٤٣
(٤٧) تشتين، محمد، حركة كولن خدمة مدنية بلا حدود، تر. بهاء نعمة الله، ص٨٩
(٤٨) انظر: النعيمات، أمل عبد الله محمد، محمد فتح الله كولن وجهوده في العقيدة والأخلاق، رسالة دكتوراه، جامعة العلوم الإسلامية، الأردن، ٢٠١٤، ص ٣٠.

هندسة الاجتزاء

تقرير الشؤون الدينية التركية نموذجًا

يبدأ المقال بعرض شكاية السيد محمد كورمز الرئيس السابق للشؤون الدينية مما سماه "هندسة الاجتزاء"-أي اقتطاع جزء من حديث أحد أو اجتزاء وجهة نظره، ثم الحكم عليه بناء على ذلك- وتأكيده ضرورة محاسبة من يقومون بـ"هندسة الطرح على الساحة" و"هندسة الاجتزاء" فيما يمس الحساسية الدينية للمسلمين.

ثم يتساءل الكاتب عن مدى مطابقة السيد كورمز نفسه لهذا الرأي في التقرير الذي أُعد في فترة رئاسته للشؤون الدينية في حق الأستاذ فتح الله كولن، ومن ثم يحاول المقال -من خلال أحد الأمثلة- أن يبين خطأ المنهج المتبع في التقرير الذي أعدته لجنة من رئاسة الشؤون الدينية في عهد السيد كورمز وفق "هندسة الاجتزاء" -التي شكا منها كورمز نفسه فيما بعد- حيث اقتطعت تعابير كولن المجازية من سياقها في محاولة لاتهامه بالضلال والانحراف، وغُضّ الطرف تمامًا عن العبارات الصريحة التي تنزه الله تعالى عن التشبيه والتجسيم والزمان والمكان في مواضع كثيرة من مؤلفاته، كما تم تجاهل تحذيرات علماء الكلام من حمل الأساليب المجازية على معناها الحقيقي حيث يؤدي ذلك إلى الضلال، وأوضح المقال أيضًا أن معدي التقرير لم يلتزموا بالمنهجية التي اتبعوها في مؤلفات الشؤون الدينية نفسها، ولم يأخذوا بعين الاعتبار شهادات كبار علماء العالم الإسلامي في العلوم الإسلامية فيما يتعلق بفهم كولن للعقيدة والفكر والخدمة، وكذلك الدراسات الأكاديمية التي تثبت علميًا أن عقيدة كولن تتفق تمامًا مع عقيدة أهل السنة.

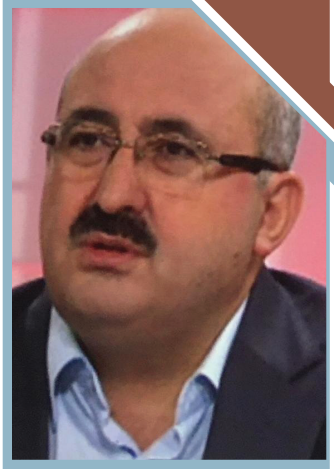

أرجون جابان

من مواليد أسكي شهر بتركيا عام ١٩٦٦، حصل على الماجستير عام ١٩٩٢ من جامعة مرمرة بإسطنبول في أطروحة بعنوان: "تفسير الآيات الدالة على بنية الأسرة الإسلامية في سورة الأحزاب". كما حصل على الدكتوراه عام ٢٠٠٠ في أطروحة بعنوان: "الصحابة في القرآن". ترأس تحرير مجلة الأمل الجديد ما بين عامي ٢٠١٠ - ٢٠١٦، وهي مجلة تعنى بالعلوم الإسلامية والمباحث الشرعية. عمل أستاذًا مساعدًا في كلية الإلهيات بجامعة الفاتح الدولية الخاصة، وما بين عامي ٢٠١٦ - ٢٠١٨ عمل عضوًا في هيئة التدريس في جامعة إيشيك بأربيل في العراق قبل أن يستقر مؤخرًا في الولايات المتحدة الأمريكية. له عديد من الكتب والمقالات المتنوعة، كما شارك ونظم عديدًا من المؤتمرات الهامة في تركيا وخارجها.

في «لقاء خاص» معه حول حديث أ.د. مصطفى أوزترك في حق القرآن الكريم الذي تداولته وسائل التواصل الاجتماعي، أدلى أ.د. محمد كورمَز الرئيس السابق للشؤون الدينية بتصريحات في غاية الأهمية، حول تكفير المسلم وتضليله نتيجة كلامه، فقد شدد السيد كورمز على ضرورة محاسبة من يقوم بما سماه «هندسة الاجتزاء»، أي اقتطاع جزء من حديث أحد أو اجتزاء وجهة نظره، ثم الحكم عليه بناء على ذلك، وأضاف بأن هذا أمر غير مقبول. ورغم أنه يخطِّئ ادعاء هذا الشخص الذي يزعم أن القرآن الكريم ليس كلام الله عز وجل، فإنه يؤكد في الوقت نفسه على ضرورة عدم تكفير هذا الشخص والتعدي عليه، وأنه ينبغي العمل على تقييم أقواله وفق منهج أهل السنة وأهل القبلة.

وانطلاقًا من وجهة النظر هذه سنحاول في هذا المقال أن نختبر مدى تطابق السيد كورمز نفسِه مع ما ينادي به في هذا الطرح، الذي يرى ضرورة تقييم رأي المسلم أو وجهة نظره من خلال مقاييس أهل السنة، وبلا ممارسة أي نوع مما أطلق عليه «هندسة الاجتزاء»، وذلك في التقرير الذي أعده خلال فترة رئاسته للشؤون الدينية في حق الأستاذ فتح الله كولن.

محاسبة من يمارس «هندسة الاجتزاء»

بداية نود أن ننقل عبارات السيد كورمز كما وردت بشأن «اجتزاء» عبارات من حوار شخص ما والحكم عليه بناء على ذلك، حتى نفهم المسألة جيدًا. بدأ كورمز كلامه قائلاً: «يجب التساؤل عن طريقة طرح هذا الأمر على الساحة، لقد اقتُطع جزء من حوارٍ نُشر قبل عام، ثم قُدّم هذا الجزء بعد عام ونصف إلى الحياة الاجتماعية، أي اقتُطعت عبارة محددة من سياقها وعرضت على الناس، ومن ثم يجب محاسبة من يقومون بـ«هندسة الطرح على الساحة» و«هندسة الاجتزاء» فيما يمس الحساسية الدينية للمسلمين.»[1]؛ «لأن هذه ليست مشكلة السيد مصطفى أوزترك فحسب، وإنما هي مسألة نالت من الجميع خلال العام الأخير؛ حيث تُجتزأ عبارات من حوارات أي إنسان يتحدث عن الدين، وتُقدّم بشكل انتقائي، بحيث تؤدي إلى مزيد من الانشقاقات في هذا المجتمع، وتعكر صفو وحدة هذه الدولة وترابطها، وتمزِّق أواصر الأخوة التي تربطنا معًا، لا أجد تفسيرًا غير هذا، أي لماذا تجتزأ هذه العبارات، ويتم انتقاؤها بالذات؟»[2]

ثم ختم حديثه بقوله: «أؤكد مرة أخرى، أنه ليس من الصواب تقديم هذا القسم الذي وقع الاختيار عليه -والذي لا أؤيده- أي الذي تم اجتزاؤه من سياقه وتقديمه إلى المجتمع، ولا يصح في الوقت نفسه ما أعقبه من حملة شعواء.»[3]

nesemat.com نسمات nesemat.com
شدد السيد كورمز على ضرورة محاسبة من يقوم بما سماه "هندسة الاجتزاء"، أي اقتطاع جزء من حديث أحد أو اجتزاء وجهة نظره، ثم الحكم عليه بناء على ذلك، وأضاف بأن هذا أمر غير مقبول.

وهنا نتساءل هل راعى السيد كورمز نفسُه هذا الرأي في التقرير الذي أعده في فترة رئاسته للشؤون الدينية في حق الأستاذ فتح الله كولن؟ وهل كان دقيقًا ومتطابقًا مع وجهة نظره تلك حينما عنونه بـ«منظمة كولن الإرهابية» منظمة تستغل الدين لمصالحها الشخصية؟

سنحاول معًا من خلال التحليل المنهجي والأخلاقي عرض مدى مراعاة السيد كورمز لهذا الإطار العام الذي خطه حول منهج تقييم أي حوار أو مقال ما، من خلال هذا التقرير.

في مقدمة هذا التقرير في حق الأستاذ فتح الله كولن يلفت السيد كورمز النظر إلى أنه قد أُعدّ بعد مطالعة ٨٠ كتابًا مطبوعًا باللغة التركية للأستاذ كولن، وبعد الاستماع إلى أحاديث صوتية ومرئية بلغت ٤٠ ألف دقيقة (٦٧٠ ساعة تقريبًا)، ثم يُصدر بعد ذلك حكمه في هذا الشأن على النحو الآتي: «إن المعطيات التي نتجت عن عملية الفحص بواسطة المجلس الأعلى للشؤون الدينية قد قُيمت في ضوء المصادر الأساسية للعلوم الإسلامية، وفي نهاية هذه التقييمات تم التوصل إلى أن هناك كمًّا هائلاً من الأخطاء والانحرافات التي لا تتفق -البتة- مع جوهر الشريعة الإسلامية في العقيدة والعبادات والأخلاق»[٤].

وفيما يلي تقييم لبعض الأحكام التي أطلقها على الأستاذ كولن بناء على هذه المنهجية التي يدعو إليها. فقد اقتبس التقرير المعدّ عن حركة الخدمة من موعظة لكولن في جامع «حصار» في ١٩٨٩/١١/٢٦ العبارات التالية: «إن المؤمن منذ اللحظة الأولى التي تطأ قدماه فيها المسجد تعتريه مهابة وتنتابه خشية. إن هذا المجلس (مجلس الوعظ) لهو مجلس قد أصبح على كرسيه من ينظر ويرى ويسمع ويراقب كل أفعالنا؛ إنه الله تعالى. وإذا كان هناك من يتحرك بين صفوفكم، وقد أخذ الإذن من الأعلى، ويتواجد في كل اجتماع يخصه، يتواجد فيه ليشرفه بحضرته، فإنه سلطان قلوبنا وسيد الإنسانية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. وفي ضوء هذه الملاحظة، ماذا يمكن أن أقول؟ وبأي لسان أعظكم أو أدعوكم؟ أنا فقط أدعوكم إلى تقدير ما تشعرون به في المسجد أمام هذا المشهد. وأعتقد أن قلوبكم تستطيع أن تقدّر هذا أكثر بكثير من مفهومي وإدراكي. لذلك سواء دخل المسجدَ الإمام، أو رئيس الدولة أو رئيس الوزراء، فإننا في معية الله هنا جل جلاله، اللهِ الذي ينظر إلى قلوبنا سبعين مرة في الثانية، وفي حضرة المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي ينظر إلى عينه تعالى ويشاهد جماله وتمام كماله. لأن الجماعة جماعته، ولأنه هو السلطان، ومن بيده أمر كل شيء»[٥].

وبعد أن أورد ذلك الاقتباس المجتزأ من خطبة كولن، بدأ يلقي الادعاءات التالية:

- «إن ادعاء كولن في حديثه أن الله تعالى على كرسي الوعظ، فيه إسناد المكان إلى الذات الإلهية، والله تعالى «منزَّهٌ عن المكان» ولذلك فإن

السيد كورمز: يجب محاسبة من يقومون بـ"هندسة الطرح على الساحة" و"هندسة الاجتزاء" فيما يمس الحساسية الدينية للمسلمين.

استخدام ألفاظٍ تنسب إليه المكان أمر مخالف قطعًا للتشريع الإسلامي. لقد استخدم هذه الألفاظ التي تمثل خطرًا على العقيدة وتهدد إيمان الناس بصورة حماسية لإثارة الناس وإلهاب مشاعرهم؛ فقد أجلَسَ الله –حاشا– على كرسي الوعظ في المسجد.»

– «لقد أسند لله تعالى العين، وادعى بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إلى عينه سبحانه، وهذا أسلوب يصور الله تعالى بأنه «مجسَّم» حيث يعتقد أن له هيئة جسمانية أو ينسب إليه خصائص جسمانية، ويُشبه الله بمخلوقاته». كما تم الادعاء في بقية التقرير أن فتح الله كولن يستغل –دون مبالاة– عبارات الفِرق الضالة من أجل النفوذ إلى الجماعة، وأن علمه ناقص في هذا الشأن، أو أنه يعاني من نقصٍ في الحساسية الدينية؛ إذ يستثمر القيم المقدسة بما فيها الأسس الإيمانية [٦] .

وهنا سوف نقيِّم معًا «هندسة الاجتزاء» التي مارسها معدو الاقتباس؛ فالسيد كورمز الذي يرى أنه ليس من الصواب «اجتزاء قسم وقع الاختيار عليه من سياقٍ ما وبناء حكم عليه» كان يتوجب عليه تقييم هذا الاقتباس ضمن سياق الحوار بأكمله والموضوع الذي ذُكر فيه.

فما سياق هذا الاجتزاء؟ وما مجمل الوعظ الذي اجتزئ منه هذه المقتطع وتمت هندسته ليتوصل من خلاله إلى هذه الادعاءات؟ دعونا نلقي نظرة سريعة على ما يسبق هذا الجزء المقتطع لتشكيل رؤية أفضل للموضوع كله. يقول كولن قبل هذا الجزء: «لقد بُنيت هذه المساجد بما فيها أول مسجد على وجه الأرض لله تعالى، بُنيت جميعها من أجل تعظيمه جل جلاله.» [٧]. وجريًا على عادة الخطباء في الأسلوب الخطابي أكّد على ضرورة استشعار المصلين الذين يأتون إلى المسجد معية الله لهم، فاستخدم هذا التعبير استخدامًا مجازيًّا، ليستشعروا هذه المعية، ويتوجهوا إلى عبادة الله وهم يشعرون برؤيته لهم ومراقبته إياهم، حتى يتغلغل هذا الشعور في رواد المساجد، وهذا المعنى يتطابق مع أداء العبادة لله تعالى بشعور الإحسان الذي نص عليه «حديث جبريل» المشهور، إذ هو هدف رئيسي يشير إليه الدين الإسلامي. فالدين يقوم في هذا الحديث على ثلاثة أركان هي الإيمان، والإسلام والإحسان، وقد عرَّف رسول الله صلى الله عليه وسلم الإحسان بقوله: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإِنَّه يَرَاكَ» [٨].

فديننا يرشدنا إلى أهمية مراعاة حال السامعين وخاصة في وعظ الجموع وإرشادهم، حيث يحرص المتحدث على استعمال أكثر الأساليب إقناعًا وتأثيرًا، شريطة أن يتناسب هذا مع المعايير الدينية. والأسلوب الخطابي الذي يهدف إلى الإقناع والتأثير يعتمد على بلاغة المجاز، ومنه الاستعارة والكناية التي تشتمل على القضية وفي طيها برهانها. وإذا كان المجاز سمة تتسم بها كثير من اللغات، فإن القرآن الكريم والسنة النبوية اللذين يضيئان العالم الإيماني والتعبدي والحركي للمسلم، قد اعتمدا بشكل كبير على إيضاح الحقائق وتقريرها عبر

هل راعى السيد كورمز نفسُه هذا الرأي في التقرير الذي أعده في فترة رئاسته للشؤون الدينية في حق الأستاذ فتح الله كولن؟ وهل كان دقيقًا ومتطابقًا مع وجهة نظره تلك حينما عنونه بـ"منظمة كولن الإرهابية" منظمة تستغل الدين لمصالحها الشخصية؟

الصور المجازية والتعبيرات البيانية. ومن ثم فمن الطبيعي جدًّا أن نقيّم هذه السمة اللغوية في عرض كولن للموضوعات العقلية المجردة بأسلوب أكثر حيوية وتأثيرًا في إطار الأسلوب الخطابي الذي يتبعه باعتباره واعظًا وخطيبًا.

فمن الأمثلة على تلك الصور المجازية في النظم القرآني نجد حديث القرآن عن حماية سيدنا موسى عليه السلام من ظلم فرعون، واشتماله بخالص لطفه وعنايته، حيث يقول الحق جل وعلا: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (طَهَ: ٣٩) فقد وظفت الآية الكريمة أحد الأساليب المجازية وهو الاستعارة التمثيلية للتعبير عن الحفظ والصون، لأن المصون يكون نصب العين، وتشتمله الرعاية والإحسان [٩]. وقد أكد المفسرون على أن قوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ تعبير مجازي، يعني «الإحاطة بالعلم والحفظ والصون»، يعبر فيها النظم القرآني عن الاهتمام والحفظ والرعاية الخاصة التي حظي بها سيدنا موسى عليه السلام [١٠].

والحال أن قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (طَهَ: ٣٩)، وقوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (الطُّورِ: ٤٨)، وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ (القَمَرِ: ١٤) لم يتناولها المفسرون جميعهم على معناها الظاهري، وإنما أقروا بمعناها المجازي وهو «العلم، والصون، والرعاية والحماية» [١١].

كذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ (الْحَدِيدِ: ٤) ﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ (التَّوْبَةِ: ٤٠) لا يعني الوجود المادي، وإنما هو أسلوب تمثيلي يفيد أن الخالق العظيم عالم بحال هؤلاء الناس أينما كانوا، وأن علمه ذلك محيط بكل شيء، وأنه لا أحد يخرج عن دائرة علمه ومقتضى حكمه [١٢].

والسؤال الآن: ما النتيجة التي سيُتوصل إليها إذا طُبِّق المنهج المتبع في التقرير على هذه التعبيرات المجازية في الآيات الكريمة؟! فلو طبقناه على المثال الأول لكانت النتيجة: «أن الله تعالى –حاشا– قد شُبه بإنسان يعيش في قصر فرعون، وقد أُسند إليه المكان»، ثم يعقب على ذلك بذكر الآيات والأحاديث التي تنزه الله جل جلاله عن الشبه وعن المكان، وتُقيَّم المسألة في النهاية على أنها «محض ضلال من ناحية الاعتقاد».

وقد ورد في الأحاديث النبوية الشريفة أيضًا عبارات مجازية عن رؤية الله ومراقبته. على سبيل المثال يقول رسولنا صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «يا غُلامُ، احفَظِ اللهَ يَحفَظْكَ، احفَظِ اللهَ تَجِدْه تُجاهَكَ» [١٣].

هذا الحديث من أبلغ الأمثلة المجازية وأوجزها، فالله تعالى منزه عن الزمان والمكان ومقدس عن الاتجاه والجهات، ومن ثم يفيد هذا الأسلوب المجازي هذا المعنى: احفظ أمر الله واتقه، واحفظ حدود الله وأوامره التي أوجبها عليك، فلا تُضيع منها شيئًا، فإذا فعلت ذلك حفظك الله في نفسك ودينك ودنياك، فتجده معَك بالحفظ والإحاطة والتأييد حيثما كنت [١٤].

nesemat.com نسيات nesemat.com

ديننا يرشدنا إلى أهمية مراعاة حال السامعين وخاصة في وعظ الجموع وإرشادهم، حيث يحرص المتحدث على استعمال أكثر الأساليب إقناعًا وتأثيرًا، شريطة أن يتناسب هذا مع المعايير الدينية.

وإذا ما طبّق المنهج المتبع في التقرير على الحديث المذكور توجب قول ذلك: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يصور المولى تعالى – حاشا- على أنه إنسان عاجز لا يقدر على حماية نفسه، ويطلب من عبد الله بن عباس أن يحميه. ثم تُستعرض بعد ذلك الآيات الدالة على أن الله تعالى قادر على كل شيء، وأنه إذا أراد شيئًا يقول له «كن» فيكون، ويُقرّ في النهاية بأن التعبير المستخدم في الحديث الشريف هو محض ضلال من ناحية الاعتقاد. وبعد ذلك سيضطرون إلى ادعاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم –حاشا- يدس في وجدان الناس من خلال أحاديثه الأفكار التي يجب عدم التفكير فيها في شأن الله تعالى.

فهم المجاز والمتشابه على ظاهره، وتفسيره وفقًا لذلك سبب في الضلال والانحراف.

إن علماء الكلام الذين يقرُّون أسس العقيدة الإسلامية، قد لفتوا الأنظار إلى أنهم مصطفون لكي يساعدوا الناس على فهم الحقائق السامية للنصوص المجازية في الكتاب والسنة فهمًا صحيحًا، وأكدوا على أن الأخذ بظاهر اللفظ هو أحد أسباب الزيغ والضلال[١٥]

الشؤون الدينية تؤكد في مؤلفاتها على أهمية التعبير المجازي وأنه ميزة أسلوبية

لقد أكَّد السيد كورمز نفسه في كتاب «الإسلام من خلال الأحاديث» (Hadislerle İslam) –الذي أعدته هيئة علمية ترأسها بنفسه في فترة رئاسته للشؤون الدينية– ضرورة معرفة بعض الأساليب اللغوية من أجل فهم الأحاديث فهمًا صحيحًا، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يستخدم الأسلوب المجازي في بعض أحاديثه. ننقل لكم وجهة نظرهم كما عبروا عنها بالضبط: «فالرسول صلى الله عليه وسلم عند دعوته الناس إلى الإسلام وظَّف جميع أساليب الخطاب في اللغة العربية، فاستخدم التعبير الصريح والأساليب المباشرة لينقل إليهم الحقائق الأساسية للإسلام، كما استخدم أيضًا التشبيه والأساليب المجازية من استعارة ومجاز وكناية، محاولاً تقريب هذه الحقائق وترسيخها في الأذهان عن طريق التصوير الحي، وأحيانًا يوظف أدوات التصوير بالقصص والحكايات التمثيلية كما هو الحال في كل لغة وعُرف. والحقيقة أن جميع اللغات تستخدم هذه الصور البيانية لتوضيح المفاهيم المجردة وتقريبها إلى الأذهان من خلال الصور المألوفة إلى الحس، فالتجسيد والتشخيص من بلاغة الأساليب الاستعارية التي تعمل على تقريب المعاني وترسيخها في النفوس من أجل تقوية المعنى، ولديها خصوصية تعبيرية عالية في نقل المشاعر والأفكار المجردة. وقد استخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأسلوب خاصة في مواطن التعبير عن الحقائق المجردة التي تقع خارج دائرة تصورنا[١٦]

والواقع أنهم قد قيموا الأحاديث التي تناولوها بهذه النظرة، ومن الأمثلة على ذلك: يقول الله تعالى في الحديث القدسي: «مَن عادى لي وليًّا فقَدْ آذَنْتُهُ

إن علماء الكلام الذين يقرُّون أسس العقيدة الإسلامية، قد لفتوا الأنظار إلى أنهم مصطفون لكي يساعدوا الناس على فهم الحقائق السامية للنصوص المجازية في الكتاب والسنة فهمًا صحيحًا، وأكدوا على أن الأخذ بظاهر اللفظ هو أحد أسباب الزيغ والضلال.

بالحَرْبِ، وما تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بشيءٍ أحَبَّ إلَيَّ ممّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حتّى أُحِبَّهُ، فإذا أحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بها، وإنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ اسْتَعاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ ...»[١٧]. فهذا الحديث يُبيّن إلى أي بُعد يمكن أن يصل الإنسان المؤمن الذي يقوي صلته بربه، وإلى أي الدرجات يمكنه أن يرتقي. فكأن الحجب التي بين العبد وربه تزول في هذه المرتبة. إن العبد الذي يلتفت الله تعالى إليه بالمحبة ويتخذه وليًّا له، يبدأ النظر بفضل رابطة المحبة هذه إلى جميع الأشياء والكائنات بتوجيه إلهي، فقوله تعالى: «فإذا أحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بها» **أسلوب تمثيلي يُعبر فيه عن مدى كرم المولى تعالى بقربه من عبده الذي حظي بحبه**[١٨]. فعند النظر في العبارة المخطوط أسفلها نجد أنهم لم يقيّموا الحديث من ظاهر اللفظ ولا المعنى، بل إنهم فسروه اتفاقًا على أنه تعبير مجازي.

إلى جانب أن الموسوعة الإسلامية للشؤون الدينية تؤكد في مادتي «مجسمة» و«مشبهة» أن فهم التعابير المجازية والمتشابهة وتفسيرها في الكتاب والسنة تفسيرًا لا يفرق بين الحقيقة والمجاز ويعتمد على ظاهر اللفظ هو سبب للوقوع في الضلالة والانحراف.

والحاصل أن هناك كثيرًا من التعابير المجازية في الكتاب والسنة، وأن جُل العلماء بما فيهم الشؤون الدينية نفسها يقرون بها حتى في مؤلفاتهم، وبما أن استخدامها هو نوع من البلاغة والثراء اللغوي، فإن محاولة حمل التعبيرات التي من هذا القبيل لدى كولن على معناها الحقيقي الظاهري، والسعي إلى تضليله، ما هو إلا منهج تشويهي يكيل بمكيالين، ويحمل الكثير من الوبال من خلال هندسة اقتطاع النصوص من سياقها.

منهج كولن في موضوع التجسيم والتشبيه

لا يختلف منهج كولن في موضوع التجسيم والتشبيه عن منهج أهل السنة وعقيدتهم، وقد عبر بكل صراحة ووضوح عن أن نسبة الأعضاء كاليد والقدم والعين بمعناها الحقيقي إلى الله تعالى هو محض ضلال، حيث قال: «إن بعض الفرق التي خشيت أن تقع في مغبة إنكار هذه الصفات، قد تصوروا الذات الإلهية –حاشا– في صورة المخلوق، فنسبوا إليه اليد والقدم والعين والأذن والنزول والعروج والجري والاقتراب والفرح والضحك إلى آخره كالإنسان تمامًا...وانساقوا بذلك إلى الضلال والانحراف الفكري.»[١٩]

إن من يدّعون أنهم أعدوا هذا التقرير بعد ما اطلعوا على جميع مؤلفات كولن، كان من الواجب عليهم أن يروا أن منهجه يتفق تمامًا في مسألة التشبيه والتجسيم مع منهج علماء أهل السنة. ولكن للأسف لم يتورعوا عن ادعاء نقيض ذلك،

nesemat.com نسيات nesemat.com

إن محاولة حمل التعبيرات التي من هذا القبيل لدى كولن على معناها الحقيقي الظاهري، والسعي إلى تضليله، ما هو إلا منهج تشويهي يكيل بمكيالين، ويحمل الكثير من الوبال من خلال هندسة اقتطاع النصوص من سياقها.

ووصفوه بـ «التجسيم» و«التشبيه». وإن فعلهم هذا لا يمكن وصفه بالمنهج العلمي ولا بالنية الحسنة.

لقد عبر كولن بشكل واضح وصريح في جميع مؤلفاته، أن الله تعالى منزّه عن الزمان والمكان. يقول على سبيل المثال: «إن الله تعالى مبرأ ومنزه عن الزمان والمكان والحيز. فمن قدَّر له مكانًا وقع في التشبيه والتجسيم، وشبهه جل جلاله بالمخلوقات»[٢٠]. ويقول في موضع آخر: «إنه ليس بمخلوق ولا حادث البتة. فكل جوهر وعرض وصفات من الله تعالى، وقائمة ودائمة بقيوميته. غير أن وجود الأشياء منه، وقيامها ودوامها به لا يعني نسبة «الحال» و«المحل» إليه جل جلاله»[٢١]

وفي هذا الصدد أيضًا يذكر كولن في مواضع كثيرة من مؤلفاته عبارات نثرية للأستاذ «إبراهيم تنوري»، تفيد بأن الله تعالى منزه عن التشبيه والتجسيم والزمان والمكان، معربًا عن أن هذه عقيدته في هذا الصدد ومن ذلك:

«ليس هناك ضد ولا ندّ
ولا مثل للرب في الوجود،
هو تعالى منزه ومقدس عن الصورة.
لا شريك له، منزه، لم يلد، ولم يولد،
هو أحد، لا كفو له،
مذكور هكذا في «الإخلاص».
لا جسم ولا عرض، لا متحيز ولا جوهر.
لا يأكل ولا يشرب، ولا يجري عليه زمان،
منزهٌ على الجملة.
منزه عن التبدل والتغير،
وكذا الأشكال والألوان،
مقدس ومبرأ من الصفات السلبية.
لا في السماء ولا في الأرض،
ولا يمين ولا يسار، ولا أمام ولا خلف،
منزه عن الجهات ليس له مكان.»[٢٢]

يتضح مما سبق أن الشؤون الدينية تجاهلت في تقريرها ما عبَّر عنه كولن في كثير من المواضع عن تنزيه الله تعالى وتقديسه عن التشبيه والتجسيم والزمان والمكان، وإن ما قامت به لهو هندسة الاقتطاع بعينها (التي شكا منها السيد كورمز فيما بعد).

في الحقيقة قلما تجد من يراعي الحساسية الشديدة بقدر الأستاذ فتح الله كولن في مسألة تعظيم الذات الإلهية وتنزيهها من كل أنواع التشبيه والتجسيم، فرغم حساسيته ورعايته التامة لهذه المسألة فقد زعم معدو التقرير خلاف ذلك، ورموه بالادعاءات والافتراءات الباطلة.

شهادات العلماء والرسائل الأكاديمية

لقد شهد عديد من علماء الإسلام من ذوي الاعتبار والشأن، بعدما اطلعوا على أدبيات الأستاذ كولن وتحاوروا معه ومع تلامذته، أن الأستاذ فتح الله كولن يملك فهمًا صحيحًا ومستقيمًا للإيمان والعمل والخدمة الإيمانية، يتفق مع مبادئ أهل السنة. كما أُعدت أكثر من دراسة علمية أكاديمية حول آراء الأستاذ كولن الكلامية ومنهجه العقدي في أكثر من جامعة عالمية؛ بمصر، والأردن

لا يختلف منهج كولن في موضوع التجسيم والتشبيه عن منهج أهل السنة وعقيدتهم، وقد عبر بكل صراحة ووضوح عن أن نسبة الأعضاء كاليد والقدم والعين بمعناها الحقيقي إلى الله تعالى هو محض ضلال.

nesemat.com نسمات nesemat.com

والسعودية. وقد خلصت هذه الدراسات إلى أن الأستاذ فتح الله كولن، الداعية المعروف عالميا يسير على المنهج والاعتقاد الإسلامي الصحيح، وأن له رؤية تطبيقية عملية متميزة لهذا المنهج الصحيح، تتمثل في جهود حركة الخدمة التي تستلهم أفكارها منه. وسنبدأ أولا هنا بإيراد بعض شهادات هؤلاء العلماء في حق الأستاذ كولن ثم سنورد بعض الملخصات لهذه الدراسات العلمية التي تؤكد صحة منهج الأستاذ كولن الاعتقادي وموافقته لمبادئ أهل السنة والجماعة.

أولا: شهادات العلماء

١- شهادة المرحوم الأستاذ الدكتور سعيد رمضان البوطي

"لقد التقيت بالأستاذ فتح الله مرة واحدة، وفي هذا اللقاء ظهرت لي جوانب متميزة ونادرة في شخصيته: أولاً تواضعه الجمّ، والتواضع شأن العلماء. فالإنسان كلما ازداد علمًا ازداد تواضعًا كالشجرة التي كلما ازداد حملها ازدادت أغصانها دنوًّا على الأرض، فرأيت هذا في شخصه. الأستاذ فتح الله لا يستأنس إلا بالإسلام وعلومه. أنا أقول له: أُهنّئك على هذا الذي أقامك الله عز وجل فيه، بل أهنئك على عظيم محبة الله عز وجل لك، ولولا هذه المحبة لما سيّرك في هذا الطريق، ولولا محبة الله سبحانه وتعالى لك، لما جعل جهودك مثمرة ترى آثارها في حياتك.. وأسأل الله عز وجل لك مزيدًا من التوفيق، وأسأل الله عز وجل لك العافية التامة حتى تزداد سيرًا في هذا الطريق الذي يُنعشك ويُطربك، والذي هو مظهر من مظاهر محبة الله عز وجل لك."

٢- شهادة المرحوم الأستاذ الدكتور محمد عمارة

"لأن العقل -في حضارتنا الإسلامية-هو نور أودعه الله في القلب... ولأن العلامة الأستاذ فتح الله كولن هو ثمرة طيبة من ثمرات هذه الحضارة، فلقد جمع بين حكمة العقل وبصيرة القلب... ولأن القرآن الكريم هو الذي صاغ منهاجه في الفكر والحياة، فلقد صار كلمة طيبة، أصلها ثابت، وفروعها ممتدة، تؤتي أكلها كل حين بإذن الله... ولأن الوحي القرآني قد قرن دائمًا بين الإيمان والعمل، فإن كلمات هذا العالم الربّاني قد تجسّدت -به وبإخوانه الكرام- أبنية شاهقة، وحياة خصبة، تزدهر بها كثير من بقاع هذا الكوكب الذي نعيش فيه..".

٣- شهادة العلامة الأستاذ الدكتور على جمعة، مفتي الديار المصرية السابق وعضو هيئة كبار العلماء.

الأستاذ كولن مثال صالح للعمل الصحيح مع الأمل الفسيح، الأستاذ كولن جعل القلب فوق العقل وجعل العقل فوق السلوك وهذا الترتيب الطبيعي للإنسان، وقد اهتم بمدخل تربية الإنسان وهذا هو المنهج النبوي الصحيح الذي به انتشر الإسلام، فأصبح الإنسان داعيًا للسلام، داعيًا للخير، معمرًا للكون، عابدًا لله، معمرًا للكون.

وفي تعقيبه على تقرير رئاسة الشؤون الدينية قال:

"لقد جمع رئيس الشؤون الدينية التركي الناس وخدعهم، وانخدع الناس، وأنا أقول لهم: اقرؤوا

nesemat.com نسمات nesemat.com

إن من يدّعون أنهم أعدوا هذا التقرير بعد ما اطلعوا على جميع مؤلفات كولن، كان من الواجب عليهم أن يروا أن منهجه يتفق تمامًا في مسألة التشبيه والتجسيم مع منهج علماء أهل السنة.

كتب الأستاذ فتح الله كولن مرة أخرى، أين هذه الاتهامات الباطلة التي تتحدثون عنها؟ جميعها أوهام." "إن هذا (التقرير) يعمل على تشويش أذهان الناس وتضليلهم والكذب عليهم"، "لقد نظرت إلى قرار المشورة التي قاموا بها، وجدتهم كما يقول المثل العربي: "رمتني بدائها وانسلت"، إذ يبين لنا هذا المثل مدى بعدهم عن الحق، فليحفظنا الله من الوقوع في مثل هذا الموقف."

٤- شهادة لأستاذ الدكتور أحمد حسين عميد كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة بالأزهر الشريف في تعقيبه على مناقشة رسالة دكتوراه عن الأستاذ كولن في كلية الدعوة

"الأستاذ كولن شخصية عالمية ربانية، شخصية متدينة، ونحن بحاجة إلى مثل هذه الشخصيات لنلقي عليها مزيدًا من الأضواء والدراسات والرسائل لنستفيد منها بشكل حقيقي. الأستاذ كولن غاص في أعماق الفكرة الإسلامية والرسالة الإسلامية، وحوّل رسالة الإسلام التي ينظر إليها كثير من الناس على أنها مجموعة من الشعائر الإسلامية إلى خلق وسلوك وإلى تطبيق واقعي ومنهج حياة وإلى رسالة أمن وسلام.

٥- شهادة الأستاذ الدكتور خليل النحوي العالم والأديب والمفكر الموريتاني

"أعتقد أن الأستاذ محمد فتح الله كولن، حقق الله به جانبًا عظيمًا من هذا الوعد النبوي الصادق بأن يبعث الله لهذه الأمة وأن يجدد لها دينها على رأس كل مئة عام، ولعل المقصود هو من حين لآخر من فترة إلى أخرى، أن يبعث لهذه الأمة من يجدد لها دينها. والأستاذ محمد فتح الله كولن، قدّم درسًا عظيمًا في وراثة رسول الله صلى الله عليه وسلم".

٦- تعقيب الأستاذ الدكتور فتحي حجازي (أحد علماء الأزهر الشريف بمصر) على التقرير الذي أعدته الشؤون الدينية في حق كولن

"إن ما يتعرض له الأستاذ فتح الله كولن من تشويهٍ وإظهارِ أن حركة الخدمة من الفرق الضالة، أثبت لنا أن الأستاذ فتح الله كولن يسير في درب الأنبياء، لأن من صفات الأنبياء الإيذاء في سبيل الدعوة. وإن ما قالته إدارة الشؤون الدينية من أن الخدمة من الفرق الضالة لا أصل له ولا دليل عليه".

٧- تعقيب الأستاذ الدكتور أحمد علي ربيع (أحد علماء الأزهر الشريف بمصر) على تقرير الشؤون الدينية في حق كولن

"إن مشروع الخدمة قام على الكتاب والسنة من أول نشأته، ومن أول أن فكر فيه الأستاذ، فقد التزم الكتاب والسنة وجعلهما منهجًا ودليلًا له لا يحيد عنهما بأي حال من الأحوال، كما أنه التزم الوسطية التي نادى بها الإسلام" "ونُشهد الله أننا قد قرأنا فكره، وتعاملنا مع منهجه، ودرسنا أحواله وأحوال إخوانه وتلامذته ممن يعملون معه في نفس المشروع، فما وجدنا منهم إلا كل خير، ولم يظهر فيهم أي خروج عن المنهج الوسطي السليم".

يتضح مما سبق أن الشؤون الدينية تجاهلت في تقريرها ما عبَّر عنه كولن في كثير من المواضع عن تنزيه الله تعالى وتقديسه عن التشبيه والتجسيم والزمان والمكان، وإن ما قامت به لهو هندسة الاقتطاع بعينها (التي شكا منها السيد كورمز فيما بعد).

nesemat.com نسمات nesemat.com

٨- تعقيب الأستاذ الدكتور عبد المجيد بوشبكة أحد علماء المغرب (جامعة شعيب الدكالي- المغرب) على التقرير

"إن من ينتقدون الخدمة لا بد وأنهم لم يقرؤوا كتب الأستاذ فتح الله، ولم يعرفوه" . مشيرًا بذلك إلى أن من أعدوا التقرير لم يطلعوا حقا على كتب الأستاذ كولن أو أنهم قد تجاهلوا الحقيقة بعد ما اطلعوا عليها.

ثانيا: الرسائل العلمية

لقد تناولت العديد من الرسائل العلمية، ما بين ماجستير ودكتوراه، الأستاذ فتح الله كولن من جوانب متعددة، سواء أكانت فكرية أو حركية أو اعتقادية في جامعات معتبرة في أنحاء العالم الإسلامي، وقد بلغ ما نوقش من هذه الرسائل حتى الآن أكثر من عشرين رسالة.[٢٧] بل إن الجانب الاعتقادي من فكره خاصة قد حظي بثلاث رسائل علمية على مستوى الدكتوراه، في ثلاث جامعات من أكبر الجامعات على مستوى العالم العربي في كل من مصر والأردن والسعودية، وسوف يقتصر حديثنا على تناول هذه الرسائل الثلاث بإيجاز

- الرسالة الأولى: محمد فتح الله كولن وجهوده في العقيدة والأخلاق «دراسة تحليلية»

(رسالة دكتوراه) للباحثة أمل عبد الله محمد النعيمات، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، كلية الدراسات العليا، قسم العقيدة والفلسفة الإسلامية، الأردن، ٢٠١٤م.

تناولت أمل النعيمات في رسالتها للدكتوراه آراء فتح الله كولن في العقيدة والأخلاق الإسلامية مقارنة إياها بآراء العلماء المسلمين. وخلصت الدراسة إلى نتائج مهمة من أبرزها: أن كولن مفكر إسلامي، ومصلح، وداعية مجدد في مجال العقيدة والأخلاق، سنيّ العقيدة، ماتريدي المذهب، يعتمد في منهجه في الاستدلال على العقائد أدلة النقل والعقل والعلم، إضافة إلى العرفان، ويرى أنه لا تعارض مطلقًا بين النقل الصحيح، والعقل السليم، وحقائق العلم الثابتة، وهو لا يعرض القضايا العقدية عرضًا أكاديميًا على طريقة المتكلمين، وإنما يعرضها بأسلوب سهل التناول، لينتفع بها الجميع، دون تعقيد، ويميل إلى الاتجاه الصوفي السنيّ المعتدل، ويرى الاستدلال بحديث الآحاد ما دام لا يتعارض مع القرآن والسنة الصحيحة، وفي باب الأخلاق يجعل المصدر الأول القرآن الكريم والسنة المطهرة، ويربط بين الأخلاق والدين برباط وثيق، ويتخذ من الرسول محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل الذي يجب أن يُحتذى به في أخلاقه وسلوكه، ويعمل دائمًا على إقامة مجتمع فاضل يسوده الحق والعدل والخير والتكافل والتعاون وينأى عن الشرور والرذائل.

- الرسالة الثانية: فتح الله كولن وآراؤه الكلامية والفلسفية

(رسالة دكتوراه) للباحثة نوسة السيد محمود السعيد، جامعة الأزهر، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، قسم العقيدة والفلسفة، المنصورة، مصر، ٢٠١٨م.

nesemat.com نسيات nesemat.com

اقرؤوا كتب الأستاذ فتح الله كولن مرة أخرى، أين هذه الاتهامات الباطلة التي تتحدثون عنها؟ جميعها أوهام." "إن هذا (التقرير) يعمل على تشويش أذهان الناس وتضليلهم والكذب عليهم.

تناولت نوسة في هذه الدراسة آراء الأستاذ كولن المتعلقة بالإلهيات والنبوات والغيبيات وقارنتها بآراء علماء الكلام، وتوصلت إلى هذه النتيجة: يتناول كولن مسائل العقيدة بما يتفق مع عقيدة أهل السنة، ويعرض المسائل بأسلوب جديد يخاطب قلب الإنسان وروحه وعقله ووجدانه بالأدلة العقلية والعلمية، بشكل يلبي احتياجات العصر.

الرسالة الثالثة: آراء حركة الخدمة العقائدية والفكرية – دراسة تحليلية

(رسالة دكتوراه) للباحث لطفي بن عابد الأنصاري، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم العقيدة والفلسفة، مكة، السعودية، ٢٠١٩م.

تناول لطفي في هذه الرسالة الموضوعات التي تحدث فيها كولن، وأكد أنها تسير مع القضايا الكلية لمنهج أهل السنة والجماعة بعمومه، وشمول دعوته للعدل والرحمة والإنصاف وتعظيم كلام الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، والدعوة للاجتماع على الحق والتحذير من الاختلاف والتفرق.

هذه نماذج يسيرة وهناك الكثير من الأمثلة والتقييمات الأخرى التي لا ينبغي تجاهلها، إذ إنها تقييمات موضوعية لأساتذة وأكاديميين بارزين في مجالاتهم العلمية والفكرية.

إن الأستاذ فتح الله كولن واعظ وخطيب وعالم ومفكر ورجل خدمة جليل، مارس الدعوة والخطابة على المنابر لسنوات كثيرة باعتباره واعظًا رسميًّا تابعًا للشؤون الدينية، على مرأى ومسمع من كورمز ومعدّي التقرير. وقد كانت خطبه ودروسه ومواعظه يتابعها ويحضرها عشرات الآلاف من الناس في الكثير من مساجد تركيا وأكبرها. بل إن مواعظ كولن وخطبه وأحاديثه ولقاءاته وكتبه تعدّ من أكثر الأعمال انتشارًا وتداولاً في المجتمع. فهو ليس مبتدئا في الوعظ، بل كان يمارس دوره الدعوي والخطابي منذ الستينات، وله شهرته وصيته الذائع بين الناس في مجال العلم والوعظ والإرشاد.

كما أوكلت إليه الشؤون الدينية بعض المهام المهمة باعتباره ممثلاً للشؤون الدينية، فمن ذلك تكليفه في عام ١٩٦٨ ضمن هيئة تشكلتْ منه ومن مفتيَّين آخرَين لتقييم أوضاع الحجيج الأتراك ومتابعتهم، في سابقة تعد هي الأولى التي يُطبق فيها هذا الإجراء، وقد اتصل به هاتفيًّا السيد لطفي دوغان رئيس الشؤون الدينية آنذاك بنفسه ليبلغه بهذا التكليف. كذلك أوفدت الشؤون الدينية في ديسمبر من عام ١٩٧٧ الأستاذ كولن ممثلًا عن الشؤون الدينية إلى ألمانيا ليحاضر الجاليات التركية المقيمة هناك ويعقد فيها عديدًا من الندوات.

ومع ذلك فإن الشؤون الدينية لم تثبت أو تصرح خلال نصف قرن من الزمان عن أي فكرة قولية كانت أو كتابية تخالف روح الإسلام في منشورات الأستاذ المحترم فتح الله كولن. والأغرب من هذا أن كورمز وعددًا من كبار شخصيات الشؤون الدينية قد شاركوا ممثلين عن الشؤون الدينية في

nesemat.com نسمات nesemat.com

نُشهد الله أننا قد قرأنا فكره، وتعاملنا مع منهجه، ودرسنا أحواله وأحوال إخوانه وتلامذته ممن يعملون معه في نفس المشروع، فما وجدنا منهم إلا كل خير، ولم يظهر فيهم أي خروج عن المنهج الوسطي السليم.

الندوات والمحافل الدولية التي نظمتها الخدمة بتوصية من الأستاذ كولن نفسه وتحت رعايته، مثل مؤتمرات «القرآن والإعجاز العلمي»، و«الهدي النبوي»، و«خارطة طريق مشتركة: الإجماع والوعي الجمعي». وقد عبر كورمز خلال هذه المؤتمرات بصفته رئيسًا للشؤون الدينية عن تقديره وإشادته بالأستاذ كولن وحركة الخدمة على مرأى ومسمع جمع غفير من علماء العالم الإسلامي.

ومن ثم فإن محاولة كورمز ومؤسسة الشؤون الدينية -التي تعرف كولن حق المعرفة، وتقدر عقيدته وآراءه وخدماته، وتعترف بأن منهجه بمنأى عن أي تناقض مع روح الإسلام- اتهام كولن بأنه من الفرق الضالة من خلال «هندسة الاجتزاء» التي ينتقدها الآن، هو عمل أقل ما يوصف به أنه مجافٍ للإنصاف عقلاً ووجدانًا وأخلاقًا ومنهجًا.

خلاصة القول، لقد أردنا من خلال أحد الأمثلة في مقالنا هذا أن نبين خطأ المنهج المتبع في التقرير الذي كتب السيد محمد كورمز مقدمته بنفسه، والذي تمت هندسته في حق الأستاذ فتح الله كولن وفق فلسفة «هندسة الاجتزاء» التي يتجرعون مرارتها الآن. ومن ثم فعليهم الاعتراف بذلك حتى ولو بشكل غير مباشر. والجدير بالذكر أن السيد كورمز قد أدرك أن ما قامت به اللجنة معدة التقرير هو نوع من هندسة الاجتزاء شبه الاحترافية لآراء الأستاذ كولن، ومن ثم عمد إلى التمويه على ذلك الفعل محاولاً إضفاء نوع من الشرعية عليه بتقديم تبريرات واهية على هذه العملية المكشوفة قائلاً: «نقطة أخرى مهمة تلفت الانتباه في كل من النصوص والخطب، هي أن بعض العبارات والأفكار التي يأباها الإسلام، قد وضعت خفية بين العبارات التي تبدو طبيعية!!»[٢٨]

في الواقع لقد أُعد التقرير كله -من واقع المثال الذي حللناه- وفق «هندسة اجتزاء» متعددة الاتجاهات، فقد اقتطعت تعابير كولن المجازية من سياقها في محاولة لاتهامه بالضلال والانحراف، وغُضّ الطرف تمامًا عن العبارات الصريحة التي تنزه الله تعالى عن التشبيه والتجسيم والزمان والمكان في مواضع كثيرة من مؤلفاته، وتجاهلوا عن قصدٍ قناعة علماء التفسير والحديث التي تقضي بعدم جواز حمل التعبيرات المجازية في القرآن الكريم والسنة النبوية على معناها الظاهري، كما تجاهلوا تحذيرات علماء الكلام التي حذرت من أن حمل هذا الأسلوب اللغوي البليغ على معناه الحقيقي يؤدي إلى الضلال، حتى إنهم لم يلتزموا بالمنهجية التي اتبعوها في مؤلفات الشؤون الدينية نفسها، ولم يأخذوا بعين الاعتبار شهادات كبار علماء العالم الإسلامي في العلوم الإسلامية فيما يتعلق بفهم كولن للعقيدة والفكر والخدمة، وكذلك الدراسات الأكاديمية التي تثبت علميًا أن عقيدة كولن تتفق تمامًا مع عقيدة أهل السنة.

علينا أن «نهنئ» رئاسة الشؤون الدينية التي بذلت جهدًا جبارًا في هندسة اجتزاء احترافية لتخرج بهذه الادعاءات في حق الأستاذ كولن(!)، وهذا في حد ذاته اعتراف بمكانة الأستاذ كولن وقيمته العلمية

nesemat.com نسيات nesemat.com

الشؤون الدينية لم تثبت أو تصرح خلال نصف قرن من الزمان عن أي فكرة قولية كانت أو كتابية تخالف روح الإسلام في منشورات الأستاذ المحترم فتح الله كولن.

والاجتماعية، وفي الأخير فإن هذا التقرير بهذه المنهجية الخبيثة لن يبقي أحدا على وجه البسيطة إلا وقد تعرض إلى التكفير والتضليل.

الهوامش

(1) https://www.youtube.com/watch?v=Q_6ufoY-KjRM; 47.35-48.17

(2) https://www.youtube.com/watch?v=Q_6ufoY-KjRM; 48.18-49.03

(3) https://www.youtube.com/watch?v=Q_6ufoY-KjRM; 54.04-54.18

(4) Diyanet İşleri Başkanlığı, (2017) Kendi Dilinden "Fetö" Örgütlü Bir Din İstismarı, Diyanet İşleri Başkanlığı Yayınları, Ankara, s.8

(5) Görüntülü Vaazlar 1-Hisar 1, Kutsilerin Takvası, dk. 10:40-12:00

(6) Diyanet İşleri Başkanlığı, (2017), Kendi Dilinden "Fetö" Örgütlü Bir Din İstismarı, s. 14-15.

(7) Görüntülü Vaazlar 1-Hisar 1, Kutsilerin Takvası, dk. 7:20-8:12

(٨) صحيح البخاري، الإيمان، ٣٧، تفسير السورة (٣١) ٢؛ صحيح مسلم، الإيمان، ١، ٥، ٧.

(٩) الألوسي، شهاب الدين، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م، ٥٠٣/٨.

(١٠) الرازي، فخر الدين، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٩م، ٤٨/٢٢؛ الماوردي، علي بن محمد، النكت والعيون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٤٠٢/٣؛ النسفي، أبو البركات، مدارك التنزيل وحقيقة التأويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، ٤٦٤/٢.

(١١) الزمخشري، محمد بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٩٩٨م، ٨١/٤- ٨٢؛ الرازي، مفاتيح الغيب، ٣٨٦/١٤؛ الماوردي، النكت والعيون، ٣٨٧/٥؛ ابن عاشور، الطاهر، التحرير والتنوير، دار التونسية، تونس، ١٩٨٤م، ٢١٩/١٦؛ Elmalılı, Hamdi Yazır, Hak Dini Kur'an Dili, Eser Yay. Yayınları, s.4566.

(١٢) أبو السعود، محمد بن محمد، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٤/٨.

(١٣) سنن الترمذي، القيامة، ٥٩؛ أحمد بن حنبل، المسند، ٣٠٧/١.

(١٣) السيوطي، جلال الدين، قوت المغتذي على جامع الترمذي، جامعة أم القرى، مكة، ٢٠٠٣م، ٦٠٤/٢؛ علي القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٢م، ٣٣٢٣/٨.

(١٤) التفتازاني، سعد الدين، شرح المقاصد، دار المعارف النعمانية، باكستان، ١٩٨١م، ١١٠/٢؛ الإيجي، عبد الرحمن، المواقف، دار الجيل، لبنان، ١٩٩٧م، ١٥٣/٣؛ فودة، سعيد عبد اللطيف، الشرح الكبير على العقيدة الطحاوية، دار الظاهر، لبنان، ٣٤٥/١.

(15) Diyanet İşleri Başkanlığı, (2014) Hadislerle İslam, Dini Yayınlar, Ankara, 2014, 1/105

(١٦) صحيح البخاري، الرقاق، ٣٨.

(17) Diyanet İşleri Başkanlığı, Hadislerle İslam, 1/461-462

(18) Gülen, Kalbin Zümrüt Tepeleri, 4/148

(19) Gülen, Fethullah, (2014) Kendi Ruhumuzu Ararken, Nil yay., İzmir, s. 262

(20) Gülen, Fethullah, (2012) Kalbin Zümrüt Tepeleri, Nil yay., İzmir, 4/119, 70, 78, 210, 121; 2/93, 300

(21) http://www.herkul.org/bamteli/elest-bezmi-ahde-vefa-ve-hak-la-munasebet/; Fatiha Üzerine Mülahazalar, s. 94; Asrın Getirdiği Tereddütler, 1/40; Bir İ'caz Hecelemesi, s. 365; Kendi İklimimiz, s. 155; İkindi Yağmurları, s. 335; Sohbet Atmosferi, s. 236; Ümit ve Korku, Hisar Camii, İzmir 22 Temmuz, 1990. 15.06- 15.34

(22) https://hiragate.com/شهادات-عن-الأستاذ-فتح-الله-كولن/.

(23) https://www.youtube.com/watch?v=ygjHZgg-J6Uc&feature=youtu.be

(24) https://www.youtube.com/watch?v=tGKlIb3uC-0

(25) https://www.youtube.com/watch?v=1m2ZIRVaYbs

(٢٦) يمكن الاطلاع على كافة الرسائل التي عقدت حول الأستاذ كولن وفكره من خلال هذا الرابط: https://nesemat.com/

(27) Kendi Dilinden "Fetö" Örgütlü Bir Din İstismarı, s.8

(28) Diyanet İşleri Başkanlığı, (2017) Kendi Dilinden "Fetö" Örgütlü Bir Din İstismarı, Diyanet İşleri Başkanlığı Yayınları, Ankara, s.8

nesemat.com
نسمات
للدراسات الاجتماعية والحضارية

التعليم هو الوسيلة الأجمل لاعتناق الحياة برمتها، وصاحب الدور الأهم في نشر التناغم والتوازن والانضباط والنظام في حياة الفرد وحياة المجتمع.

المعلم المنخرط في مهنته بروح التعبد الخالص يستطيع أن يصنع من تلميذه إنسانًا جديدًا، ينظر إلى مستقبل الأمة بعيون يملؤها الأمل، وقلب ينبض بالمحبة والسلام.

ليس هناك سوى طريق واحد نحو التقدم، سواء في التعليم أو في شؤون البشر الأخرى، وهو طريق العلم المغلف بالحب. الحب ضعيف بلا علم، والعلم مدمّر بلا حب.

nesemat.com نسمات

9 789776 704152